ياسين غالب

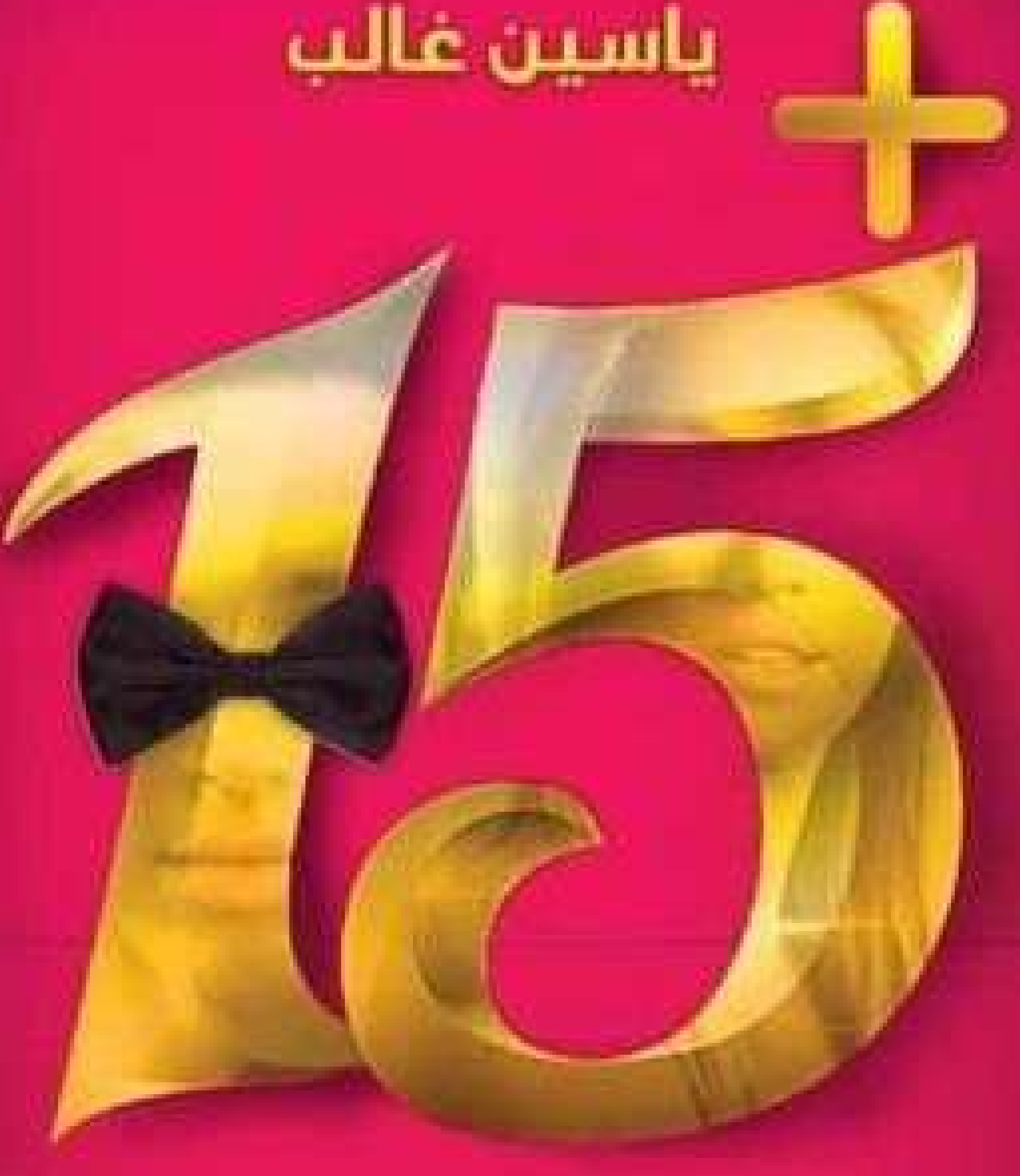

رواية

مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر

ياسين غالب
15+
رواية
أروقة

+15

هذه الرحلة الأفقية من هلمند إلى ميناء دوفر مرورا بعواصم العالم الكبرى ستكون فيلما سينوغرافيا في الذاكرة بتصنيف R، لذا وجب التحذير، أقصد إذا لم تكن مستعدا، فما عليك: أعد كل شيء لمكانه، النوم أو محاولته ستكون خيارا مناسبا، وآمنا، ماسيحصل بعد دقائق من الآن .. أو بعد بضعة أسطر ستسحبك على مهل كما النعاس إلى سواحل الواقع الموازي، والتي قد تبتلعك مياهها اللامرئية أو تبتلعها أنت كغريق ما زال يتنفس بتسارع كما لو كان حيا.

COVER BY: NOSY DESIGN

أروقة

15+

ياسين غالب

2020/4224

ياسين غالب

15+

رواية

"إنمــا أحــدثك لــترى, فــإذا رأيت فلا حديث".

النفري.

الفصل الأول

مزحة باردة، الموت.

،

بعد.....Tuut Tuut Tuut بنغمة الأبواب تقفل أن يقفز آخر راكب إلى الداخل مسـرعا, ينطلـق المترو كسهم برتقالي هائل, عميقا في الأحشاء السفلية للمدينة, من تـابيولا باتجـاه هلسـنكي. تجلس قبـالتي مهـتزة قليلا, سـيدة خمسـينية, ذات شـعر أبيض قصـير, كقطنـة طبيـة ملوثـة بمطهر. تتصفح الإعلانات المجانية الملقاة على المقاعد البرتقالية الباردة بعينين مثقلـتين عـبر نافذتي زجـاج النظـارات, يتمايـل الجميـع قليلا عند استدارة المترو الحادة قبل جزيرة لوتساري, لا يحتاج المرء للوحة المضيئة أو الصـوت الآلي النــاطق بالفنلنديـة والسـويدية ليعـرف ذلـك, بإحسـاس السـمكة الداروينيـة تستشـعر ثمـة برودة ورطوبة معا. يمضـي المـترو تحت المـاء كثعبان بحـري ثم يتحـول إلى سـلمندر برمـائي عند دخوله البر ثانية, عنـد منطقـة روهـا لهـتي. تتهيــأ السـيدة القطنيــة الشـعر للــنزول, في المحطة التالية, كامبي, مركز هلسنكي التجاري, يحتـاج الأمـر دقيقـتين ونصـف الدقيقـة فقـط لتصل, ولأمارس ما أفعل كل يــوم, من دون أن

يهتم أحد لذلك..أو حــتى دون أن يشــعروا, أبــدأ العرض.

- صــباح الخــير أيتهــا الســيدة. موجهــا صــوتي نحوها, تنتبه, تزيح نظارتها وتحملــق بي كصــقر منزعج, تتجــاهلني, تــدير وجههــا للنوافــذ الــتي تطل على العتمة, أصر على الحديث:

- أنا ميت، ميت جدا، منذ أربع سنوات، بــرغم أنــني أقطــع تــذكرة لركــوب المــترو، وأتنفس وأتكلم، وأذهب للعمل...

أتشــــمم جســــدي ككلب مــــدرب، أتــــابع حديثي، أوه..، لا يبــدو علي أنــني تعفنت أليس كذلك، هل أزعجك؟ آسف جدا، لكنني، اعتدت الحديث مع أحدهم كل مــرة يجلس أمــامي في وسيلة نقــل أو حــتى على المصــطبات المبللــة في الشــارع، لا تحبــون أن تفقــأ هــذه الفقاعــة، الخصوصية، أعلم ذلك، لكن نحن الشــرقيون لا نمتلكها أصلا.

- joo joo، تردد بتوتر ظاهر وارتيــاب، تقــوم، تحــاول أن تجتــازني لتغــير مكانهــا، متجنبــة شخصا بملامح أجنبية يتكلم أشياء غير مترابطة وغبية في هذا الصباح الخــريفي البــاكر، أتبعهــا إلى حيث جلست في الصف المقابل.

- أنت لا تصدقين، هذا يبدو من ملامحك. أوجه كلامي إلى عينيهـا، تقـف مسـتفزة وتسـرع في الذهاب نحو الأبواب، وبهياج أكـبر أصـيح فيهـا وفي الآخرين :

- أنتم لا تصدقون، كيف لكم أن تصـــدقوا لأنكم أحياء جدا، أجساد بشر، بلا روح، بينمـا أنـا روح، بلا جسد، هلوو، لم تتباعـدون عـني؟ أنـا لسـت خطرا، أنا أضـعف من أن أؤذي فراشـة. يدمـدم الركاب فيما بينهم بانزعـاج، يظن أحـدهم أنـني مجنون، أو متعاطي ماريجوانا ربمـا، أو إرهـابي حــتى، بينمــا يقــترح اخرالاتصــال بــالأمن أو البوليس حينهـا تبتسـم فتـاة صـغيرة وتهمس لأختها:"هذا مشهد تمثيلي، هذه كاميرا خفيـة" تجــوس برأســها باحثــة عن كــادر التصــوير المتخفي بملابس الركــاب، وعنــدما لا تجــده تدس برأسها داخل شاشة الهاتف.

- أنــا "هولــوغرام" مصــنوع بإتقــان، بخـار مـاء لأكــاذيب السياســيين والمتــدينين، أكــاذيبكم التي تطلقونها من ثقب المـؤخرة أو ثقب الفم, انا... انا .....

يضيع صوتي عندما تفتح الأبـواب، يـدخل هــواء نظيــف يكنس أنفاســاً مكتومــة وروائح تعرُّق بارد، يتقيـأ المـترو الجميـع، كطعـام غـير

مهضوم، مرة واحدة، عجائز وشابات، أستونيين وروس وفلنديين وبنغالا، سمراً وشقراً، مثليين ومغايرين، سامسونجيين وإيفونيين، خائفين وغير مكترثين، عنصريين وإنسانيين، أُكمل طريقي مثل كل مرة، كأن شيئاً لم يكن.

أنزل في محطة هرتونيمي، وأتجه سيراً إلى مكان عملي، دار رعاية المسنين، إلا أنني لا أجد المبنى ولا أجد الحديقة المحيطة به، بالأحرى، لا أجدني أنا أيضا، تهب نسمة واثنتان فأتطاير معها في صباح خريفي اعتادت رياحه العبث بكل ورقة صفراء سقطت من شجرة الحياة.

قبل أربعة أشهر من الآن..

من نافذة غرفة نصف مفتوحة كعيني قط مسترخ، يتسلل ضوء النهار رماديا حاملاً معه رائحة أشجار البتولا والصنوبر الرطبة من الحديقة الخلفية، ستائر بيض متطايرة كأشرعة ممزقة تدفعها الرياح الخريفية للداخل، هدوء يتخلله صوت محطة راديو أنستلوجيا تبث أغنية "No milk today" لهيرمانس هيرميت، يأتي الصوت مسحوقاً ويخفت شيئاً فشيئاً من غرفة الاستراحة في نهاية الممر الذي تراصفت على جانبيه غرف النزلاء

المسنين في دار رعاية المسنين في هرتونيمي. اقتربت من النافذة وأخرجت يدي للخارج، لمست أولى قطرات المطر المتساقطة، أفركها بإصبعي، كصبي يكتشف منيه، الماء هو الماء من الجسد أو من السماء، حياة سائلة.

شاهدت الباص يمر بالأسفل في الشارع العام، رسم قوسين مائيين جانبيين في الهواء عندما مر ببركة ماء صغيرة كونتها قطرات المطر كانت قد تجمعت من الليلة الماضية، مع صوت "تششششش"، فعلت بعض السيارات, ذلك يبدو جميلا ومتناغما مع أضواء السيارات المضاءة حتى نهارا، تشاجرت عصافير مبللة على غصن شجرة, نبح كلب قريب فطارت تلك العصافير، طقطقة المطر فوق السطوح المعدنية ومظلات المارة الملونة وأسفلت الشارع كل هذا أخذني قليلا مما أنا فيه من أجواء مختلفة في غرفة المسن هانو الممدد على السرير في غيبوبة. أجلس قرب سريره على كرسي بلاستيكي أبيض منتظرا وصول الإسعاف، ثمة زهرتا تيوليب يانعتان في إناء على المنضدة، جئت بهما صباحا، لتبعثا الإحساس بالحياة في المكان، بدتا

جنائزيتين الآن قرب جثة بين الحياة والموت، كل شيء قابل للاستخدام المزدوج حسب الموقف. ثمة أحاديث عابرة تلامس الباب المفتوح بدون أن تلج يرافقها صوت كعب حذاء أنثوي خفيف يجول ذهابا وإيابا، ل ايلا كاربونن، المديرة الطيبة، بدت غير مكترثة وهي ترتشف قهوة بدون سكر بسبب وزنها الزائد، ربما الاحترافية في العمل والتكرار يخفف الدهشة من مشهد الموت أو يلغيها أصلا. يقطع تركيزي أحيانا صوت المصعد القريب، تفتح أبوابه بنغمة دو الموسيقية، كل مرة يحصل هذا أتوقع وصول المسعفين، لم أعد أحتمل، لدي الكثير من الذكريات مع هانو أكثر مما لدي مع الآخرين من النزلاء الذين أرعاهم، حيث يبدأ اليوم بخروجهم من غرفهم متكئين بالغالب على مساند حديدية تدفع بعجلات ببطء, منحنين على أنفسهم كحلزونات ملونة متجهين إلى صالة الطعام، يبقى بعضهم في سريره بسبب الشيخوخة وصعوبة الحركة، أهتم بجميع من في الطابق الثاني، خمس عشرة غرفة متقابلة يفصلها ممر فرش بسجادة طولية زرقاء بينما وضعت أواني نبات الظل في المدخل قرب الباب الزجاجي ذاتي الفتح، زين

الجدار بإعلانات أفلام فنلندية قديمة كفيلم "الجندي المجهول"، وغيرها من أفلام أُنتِجت ما بين الخمسينيات والتسعينيات من القرن المنصرم، تحفيزا لذاكرة جمعية جميلة كما أعتقد.

ما زال هانو مسجى، بجسده المستطيل كسرير والشاحب كسحابة متربة، كفاه باردتان وثقيلتان كأجواء الغرفة التي بدت مهيبة عظيمة من رهبة الموت، كما لو أنها قبة كاتدرائية من الداخل. تختلج أصابعه بحركة مجهرية خفيفة، كرموش النيام، أفركها بحزن، للمرة الأخيرة ربما، ليعيش أكثر، بضع ثوان أو دقائق، واثق من عدم جدوى ذلك, أنبوب دقيق كشريان شفاف يخترق أنفه متصل بقنينة أوكسجين قرب السرير, بينما ركب آخر في فتحة قضيبة للتبول, مسحت على بياض رأسه الحليق، وهو مستلقٍ مائل الرأس، مثل رضيع تقيأ كريمة بيضاء بعد الرضاعة، يعود الإنسان جنينا لرحم الثقب الكوني، كانت ميلندا تتلصص خائفة, تصف الموت بالمُزارع الذي يسحب كل يوم دجاجة ليأكلها، عيونها تتساءل بقلق: لمن الدور؟ شفتيها ترتجف برضاب أبيض وزغب أشقر يحيط بهما.

- سيحرق، في أفـران ايسـبو الحكوميـة, أتوقـع هذا، ليست لديه عائلة لتهيئ له قـبراً أو تـزوره، المسكين, أفادت سارة, الموظفة الشـابة, وهي تتناول غـداءها من المعكرونـة الباردةبالصلصة بينمـا صـلت سـينكا أمـام صـليبيها الخشـبي، فعلت الأخريات ذلك واشمات الصـليب فـوق صـدورهن, حينهـا كـانت ايلا المـديرة منشـغلة بجـرد محتويـات غرفتـه، أغلقتهـا حـتى مجيء نزيل آخر.

بينمـا كنت أغـادر المبـنى باتجـاه المـترو، مــرقت ســيارة الإســعاف بأضــوائها الــزرق المتشظية فـوق الأشـجار والمبـاني المحيطـة، كانت صرخات صفارتها حادة ومسـتفزة، تبـدو لي الآن الإسعاف كعربة جنائزية أكثر منها عربـة تسـرع لانقـاذ مـريض، تعـبر سـيدة مـع كلبهـا الشــارع، يتمــازح صــبيان مراهقــان, مطلقين ضـحكات عاليـة، يـدفع أحـدهما الآخـر، يقفـز سـنجاب من شـجرة لأخـرى، صـوت حبـال الرايات الفنلندية تصطفق بقوة بالسارية، ماكنة تنظيف الشارع، منبهات السيارات المسـتمرة، يبدو أن الحياة لا تكـترث لرحيـل أحـد.. لـذا من الحكمـة أن لا نكـترث لهـا بالمثـل، لا نحـزن لمغادرتهـا مثلا ولا نفـرح لبقائنـا فيهـا, هكـذا

فكــرت، صــارت الإســعاف بمحــاذاتي بعــد استدارتها في المنعطـف إنـه يبتسـم لي، عـبر نافــذة البــاب الخلفيــة رأيت وجهــه أو هكــذا تخيلته، رددت صامتا، وداعا هانو.

كان في الثمانين من عمره، طــويلاً، كهلال معقـوف على نفســه، أصـلع، ببشـرة وأسـنان تميل للصفرة، عنـدما كنـا نجلس في الحديقـة الخلفية، كـان هـانو يتكئ على مسـند مصـطبة خشبية ويسرد لي ذكرياته المدهشة وغرائبياته، كنت أسايره، كان يعي ذلك ولكنه يستمربضــخ أرشيفه الصوري ـ الصوتي, مترسـبا في راســي يوميا بعد يوم:

- في عــامي الأول تعـرفت على المـوت، جـاء متنكرا بملابس عسـكرية سـوفيتية بنيـة ثقيلـة إلى القرية، في شتاء هو الأشد ضراوة في ليلــة راس السنة الانتقاليـة بين 1939 -ــ1940، في كاريليا، حكوا لي الحكاية كاملة لاحقا، تيو وروها وآخرون، سـأعرفك عليهمـا يومـا مـا، تحـايلت على القـدر، أقنعتـه أنـني صـغير جـدا لأمـوت، ساعدني (السيسو) .

قطـع سـرده ليطـرح سـؤالًا: هـل تعـرف مـاهو السيســو؟ لا يهم.. الأهم أن تلتقيهمــا، إنهمــا

طيبــان وحقيقيــان وغــير خاضــعين لكذبــة المنطق، كذبة أرسطو هل تعرفها؟
- هانو، لا أفهم كثيرا مما تقول، بالحقيقة لست مهتما بالأدب والفلسفة.
- حسنا، ما زلتَ غضا لتفهم هذا. وأشاح بوجهه لزرقة السماء.

كان مسـموحا لـه بتـدخين سـيجارتين في اليـوم كحـد أعلى، عنـدما دخن الثالثـة أمـامي، صـحت بـه: أرجـوك غـير مسـموح، أطفئهـا، ووقـف متخصـرا قـرب شـجرة عاريـة، برجفـة خفيفــة في أصــابعه المصــفرة أشــار إلي أن أقترب, فعلت :" هممم، لسنا في محطة بنزين على ما أعتقد".رد ساخرا,تلفت , أضاف، "تهتم لصحتي، أم لأنك تطيع التعليمات تطلب مـني هذا؟"
- وهل هناك فـرق؟ أقصـد التعليمـات وجـدت منطقيا حفاظا على صحتك . قاطعني :
- لا, لا, غــير صــحيح, التعليمــات، أوامــر، افتراضـات عموميـة، لا تقيم للجـانب البشـري اعتباراً، ولا للفروقات الفرديـة كـذلك، مـا ضـرر السيجارة في فم جثة، هااا؟ أجب، هل تعلم, أنا جثة حية، هل قرأت ملفي الصحي؟ أنـا أمـوت بالتقسـيط بسـبب السـرطان، لـدي الحــق

كمحكــوم بالإعــدام أن أطلب مــا أشــاء، أليس كذلك؟
- في الحقيقة أنا ملزم بتنفيذ التعليمـات هـانو, لذا أطلب هذا.
- أنت هنا لأجل المال؟ هذا مؤكد. عفـوا سـؤال سخيف آخر؟! صاحب صالة القمار، هـل يعنيـه ما يحصل لزبائنه خارجها؟ يسرقون أو ينتحرون، أنت كـذلك لا يعنيـك الأمـر، لكنـك تخـاف أن يطـردوك! كم تكســب في الشــهر؟ عــذرا ليس من حقي أن أسالك، سخافة أخرى مـني، ككـل ما يحصل اليوم. صمت قليلا، أردف، لكن هــل عملك يغطي تكاليفك المعيشــية؟ هـل تـدخن كثيرا، هل تدخر؟ الفنلنديون يفعلون هـذا، غــير أنه لا يجعـل أحـدنا بيـل غيتس يومـا مـا، كلنـا وجدنا لنخدم المال، وليس العكس، كنت مديرا تنفيذياً لمصرف، أو خادما بدرجة أكبرل"الســيد مال"، أفعل ما تـراه يشـعرك أنـك حي وسـيد، سأدخن سيكاري الثالث، وسـتغض البصـر عن ذلك، أفهمت؟ اعترضت: لكن..
- اششــش، لن يطـردك أحـد من عملـك، وإن فعلـوا سـتجد الأفضـل،صـدقني, صـدق هـانو العجـوز . مبتسـما يـردف, مـا اسـمك؟ أجبت لطيف. قال: لتيف، هل يعني هذا شيئاً بلغتك

الأم؟ قلت: ربما يعني نـايس بالإنكليزيـة، قـال: ننطقها (إهانا) بالفنلنديـة.اوضـحت لـه، إهانـة تعني شيئاً سيئاً بالعربية، تقليل إحترام شخص مـا. قــال اهــا، لعبــة الفونتــك الصــوتي اذا. ابتسمنا. قلت لـه: لم أفهم مـا قلت بخصـوص الفلسفة المالية ولكن أنا هنا ليس لأجل المــال أساســا، لا أنكــر حــاجتي إليــه لأكــون دقيقــا وصادقا، لكنني أحتاج لأوراق إقامــة لم أحصــل عليها بعـد، ربمـا يسـاعد العمـل بالانـدماج في المجتمــــع، الاقـــــتراب من اللغـــــة والثقافـــــة الفنلنــديتين، المــال ضــروري للحيــاة كــالوقود للســيارة، ولكن هــذا لا يكفي، بــدون ســائق أو رخصة سياقة، أنا بلا "رخصة" الآن.

ـــــ من دون تذمر، لا تسمح لرائحة غدد خوفك أن تنطلق، ستصحو الكلاب البرية في رأسك وتطاردك إلى الماضي، اخنق قلقك، اخنق هذه الكلاب أو دعها تنام على الأقل.

- سافعل، هانو.

تعضدت صداقتنا أكثر، ينصحني، يعلمني الكثير،صرنا نعتني ببعضنا البعض ، أسـمح لـه بثلاث أو حــتى أربــع ســجائر ربمــا في اليــوم الواحد، اقتنعت بوجهة نظره، القوانين"الأوامر" التعليمات القاسية لن تمنع طائراً كهـانو اعتـاد

على التحليق عالياً، برغم هذا كان محبا للحيــاة، ولسيقان النساء، على الـرغم من أنــه لم يــتزوج إلا أنه يروي مغامراته الجنسية أحيانا في صــالة الطعام، يضحكن،يصيح مازحا:

ـ هذا الشيء ما زال ينتصب كخرطوم مياه المطافئ عنـد الحاجـة. تمازحـه سـنكا, “ ليس مؤكدا هذا " يرد مبتسـما، يمكنـك أن تصـنعي حريقـا صـغيراً وسـترين ذلـك، قهقهت مـاري:

ـــ فوي فوي فوي ،رددت حتى صارت تسـعل. عدلت من شـعرها الأبيض المنكـوش ميلنـدا، عملت ذلك بأنوثة متأخرة. جاء مارتي بخطوات بطيئة كطفل تعلم المشي قبل ساعة, تحسـس فمه,كان قد نسي طقم اسنانه في غرفته.

- أوه لدينا ديكان الآن، صـاحت ريتـا متغـامزة، ضحكنا كثيرا وكثـيرا، سـألت المـديرة ايلا وهي تستطلع الأمر، ما الـذي حصـل، لمَ تضـحكون، طيييط، جـاء صـوت من مـؤخرة مـا، آه فهمت قالت ايلا مبتسمة وهي تنصرف.

تسير الحياة بمنحنيات متدرجـة، كخطـوط رسمة بيانية لقلب متقلب السـرعات، عليّ أن أتكيـف, أهمس لنفسـي، الأمـر زمـني وليس مكانيّ، هكذا أفضل وأيسر لو أخذت الأمـر على هذا المحمل، كما تخرج من حمام تركي سـاخن

للشارع في شهر يناير، يستغرق الـوقت دقـائق أو سنين، غير أنه لا يتوقف، كل مـا عليـك هـو أن تبتلــع الارتجــاف الأول، المتغــير ويمضــي الأمر.

- كيف حالك لـتيف؟ هـل مـازلت قلقـا؟ تفكـر كثيراً بالمسـتقبل، عليـك أن تفعـل هـذا، نحن نفعـل هـذا كفنلنـديين، بـوعي أو بـدون وعي، بمؤثر اللغـة الفنلنديـة ربمـا، حيث ينعـدم زمن المستقبل، اليوم منـدمج في الغـد لـدينا، هـذا يدفع للتنبؤ، للخوف الآني من القادم، بمعالجــة الأمـــور الآن، الادخـــار، الإقلاع عن التـــدخين، ممارسة الرياضة، الإنجـاب، إنجـاز المهـام، في الحاضر، الذي هو بذرة المسـتقبل، فكـر هكـذا، لتفهمنا.

- أوه، هــانو، شــكرا ســآعمل بنصــيحتك، أنت طيب وحقيقي، أشـعر أحيانـا بأنـك تعتـني بي أكثر مما أفعل أنا مقابل أجـر، ههـه. أقـول وأنـا أطوق كتفه بذراعي ماسحا على ظهره بكفي.

ـــــ اقــترب مــني قليلا من فضــلك. وعنــدما أصبحت أذني بمحاذاة فمه همس:

- لتيف، أخبروني بأني سـأموت غـدا، لن أخفي عليك أنا خائف ومتحمس، تأخرذلك كثيرا، وها هو يجيء، استغربت.

- من أخبرك هذ هانو؟ أنت تمزح، لا أحـد يخـبر أحداً بهكذا أمر، لا يعلم الغيب إلا الله.تنحنح :
-حسـنا, هـذا مقبـول إلى زمن قـريب، اسـمع، الحيوانـــات بـــأجهزة الإنـــذار البايولوجيـــة لــديها,هاتفــك بخوارزميــات بســيطة، مراكــز الدراسـات الاسـتراتيجية، حـتى مـذيع النشـرة الجوية، يعلمون الغيب نوعا ما .. على أي حـــال ليس هذا مهماً الآن.
- أحترم رأيك، ولا أتفق معـه، تقـول أن أحـدهم أخبرك بذلك. من؟ ممرضة أو طبيب؟
- تيو وروها، هما من أخبراني، يعيشان هناك منذ نصف قرن تقريبا، خرجا البارحة بعد أن نام الجميع، من هناك. ثم أشار إلى حقيبة يد رجالية جلدية قديمة جدا، كانت متيبسة بلون بني عتيق كما لو أنها استخرجت من تحت الأرض أو قبو.
ــــ هذه لك، خذها لكن لا تفتحها إلا بعد موتي البايلوجي، غدا كما قلت لك، ستجدني هناك في داخلها، مادة مدورة لأشياء مدهشة، لا تخف عندئذ، ستجد فيها أرواحاً ناطقة وأشياء مرعبة وثمينة، عليك أن تكون شجاعاً أولا وثالثا وعاشراً لتحكي بصوتك ما ترى، أعد تدويري كمادة صوتية، وطاقة سردية، لأعود حيا من

خلالك، هذا ما أسميه الحياة الأبدية حسب إنجيلي الماورائي الخاص، عدني لتيف أن تفعل هذا. عدني أرجوك. لم أفهم شيئاً أردت أن أسأله إلا أنه استسلم للنوم تاركا غابة من الدهشة والقلق وعلامات الاستفهام في رأسي.

بعد ساعة من موت هانو..

وصلت إلى تابيولا بواسطة المترو، أسكن شقة صغيرة بالباطن، هذا يعني تأجير بلا عقد رسمي، مجرد اتفاق شفهي، أدفع أربعمئة يورو لشخص عراقي كردي يسكن مع حبيبته، أدفع، بينما تدفع الحكومة بدل ايجارها الأصلي لشركة ـ ساتوـ بواسطة مكتب السوشيل، هذا سائد جدا بين طالبي اللجوء، الذين لم يحصلوا بعد على أوراق رسمية، بالنسبة لي هذا أفضل من البقاء في الغرفة 155 بـ (كمب)، مركز استقبال اللاجئين، في فانتا، حيث تعرفت على سرمد، سعد (سمعت أنه انتقل قريبا للسكن مع بايفي)، أمير أفغاني،فيصل، شياو الكردي، صالح، تاج الدين الصومالي، مروان، اكثم وزوجته ليلى وابنته، وكثير من الأصدقاء الآخرين.

بعد أربع ساعات من وصولي..

المساء في الخارج كلوحة قاتمة بسواد ضارب إلى الحمرة، بلمعة مصدرها انعكاس القمر المكتمل تحف به غيمات بدت كحملان رمادية عملاقة، تتقافز فوق الأفق، أمطرت بحماس أكثر مما توقعت نشرة الأنباء الجوية في الراديو، رياح رمادية تأتي من بعيد يبدو هبوبها كحصار قاسٍ حول المدينة أو حولي، زاد ذلك من الشعور بالكابة واللاجدوى من الحياة التي تعيد تمثيل فصول مسرحيتها المملة كل عام من دون تغيير، أو كسر روتين بخروج أحد المهرجين عن النص.. حركة الستارة يتسلل من بين طياتها ضوء السيارات المارة وأصواتها وهي تبتعد، تشبه حالة الاكتئاب عند مطلع نهاية الأسبوع، فودكا بالتونك وشرائح ليمون وسلمون مدخن يرافق ذلك عزف كمان مثقل بالاغتراب، استغرق هذا دقائق، تذكرت حقيبة هانو العتيقة، تجدد حزني الذي بددته بالكحول قليلا.

ما زلت متحمسا لمعرفة محتويات الحقيبة، نبشت داخلها، وجدت ساعة فضية قديمة متوقفة، كانت ماركة suunto ، بضع أوراق بخط يد هانو بالفنلندية" لم تكن الحروف واضحة, كانت متداخلة تشبه اجتماع قبيلة من

النمل فـوق ورق معمـر مصـفر، الأهم من هـذا كان ألبوم صور مسـتطيل، بغلاف بـني, لم يكن سـميكا، خمنت أن عـدد صـوره لا يتجـاوز العشرين في أحسـن الأحـوال، قلبت الصـفحة الأولى من الألبوم، بالأسود والأبيض.

صورة قديمة جدا لحصانين تقف بينهما امرأة في سن الثلاثين تحمل رضيعا، كانت الصورة مصفرة ومهترئة، أخرجتها بحرص من بين الغشاء البلاستيكي للألبوم، في زاوية منها على الوجه الآخر كتب: مارتا لاينن و الصغير هانو، الحصانان تيو وروها,صيف 1939، وضعت الصورة أمامي، ثقلت عيناي، وهبطت من وجهي للأسفل، ربما غفوت قليلا بسبب إرهاق عمل الأسبوع السابق، مال رأسي على صدري، وسمعت شخيرا للحظات، ازداد تدريجيا، إلا أن صوتا آخر بدأ يشاركه، صهيل ربما بدا خافتا ثم علا كأنه يقترب، أعقب ذلك صوت حوافر على أرضية الشقة، التفتّ مفزوعا، كان الحصان(تيو) قد خرج من الصورة وصار أمامي بحجمه الطبيعي, بلونه البني الداكن، بدأ يحمحم، بينما قفزت إلى الوراء واصطدمت بالسرير وسقطت ، نظرت إلى اليسار، كانت الفرس(روها), سبقته بالمجئ ربما، كانت

بيضاء ناصعة, صارت تقترب مني وتمسح وجهها المستطيل بكتفي، بدأ العرض السينوغرافي، تحولت الشقة إلى أسطبل قديم، شممت رائحة التبن تنبعث من تحت قدمي، أحسست رطوبة الخشب وصوت الجنادب والطحالب من حولي بينما لفحتني رائحة بول خيول تأتي من جهة المطبخ، أزيز أسلاك كهربائية، المصابيح تخفت إنارتها وترفع, استمر ذلك لدقيقة، فجأة انطفأت كلها، صهيل متقطع، بدأ يتحول إلى صوت بشري غير مفهوم، بدأ يتضح أكثر فأكثر، تجمد الدم والزمن في رأسي، أصخت السمع وشخصت ببصري:

- هـل لـديك عليقـة تبن وملح في المطبخ؟ أنـا جائع.قال الحصان.

- ليس لـدي، من أنت؟اجبت من خلال أسـنان مصطكة.

- انا تيو، وهـذه روهـا، الفـرس الأم، قـال وهـو يشير برأسه إليها.

حمحمت وهزت رأسها للتعريف، أردف:
أرسلنا هانو الطيب، جئنا لنقص حكايتنا، هل تسمح لنا بذلك، ساد صمت، مصدره خوفي

وارتباكي، فهم منه أنني موافق.

الحصان تيو..

- إذًا، يومهــا كــانت العاصــفة تئن في الخــارج كبومــة جريحــة، أو تدمــدم، بكلمــات غاضــبة تحولت إلى كتـل من الثلج همـدت فـوق قريـة (كوسيارفي) الصغيرة، ترتج النوافـذ المغلقـة، تتســاقط الصــور المعلقــة من أعلى جــدران المنـازل المهجـورة وتخمـد أنفـاس المواقـد أو تعبث نسمة متسـربة بمـا تبقى بهـا من رمـاد، جنـون من النتـف الـبيض المتسـاقطة يجتـاح الأفــق والمكــان والعيــون، تصــطفق الأبــواب الخارجيــة بفعـل ريح متهـورة أو تصـدر صـريرا موحشا كصرخات متنـاثرة تطلـق هنـا وهنـاك، هـذه السـنة تحمـل معهـا قسـوة وبـرودة غـير مســبوقة، كشَّــر الشــتاء عن أنيابــه المدببــة كموشور وراح يعض المنازل الريفيـة والأشـجار والحظائر والأسيجة الخشبية المتهالكة وكل مــا يجد في طريقه .كنت أخفي نصــف وجهي وراء أعمــدة الإصــطبل الخشــبية, كــانت ترتتجــف بسبب جسدي الملاصق.بعين متلصصة واحدة أراقب القرية الفارغة تماما كطفل مختبئ جيدا في دولاب ملابس، تتبعثر الحاجيـات المنزليـة بين الطرقات الممحوة الملامح بالثلج، الــبيوت

الخشــبية غامقــة اللــون والــتي تشــبه قطــع الشكولاتة السويسرية بانتظار الغرباء بعد هـرب أصحابها صباحا. بدا كما لو أن السماء تثلج كــل مخزونها مرة واحدة هذه السنة، لم أشهد هكــذا شتاء طوال سنوات عمري العشـر ولم تحـدثني جدتي عن شيء كهذا من قبل، أضع خدي على خشب الحائط، أحتك به طلبا للـدفـء، أتوسـل بالقديس سـتيفن شـفيع الخيـل والفرسـان أن يهبني ولو نصف درجة فهرنهايت.سألت روها:

- لقـدكانت ليلـة رأس السـنة الجديـدة 1940 أليس كذلك تيو؟

- نعم كانت كذلك. سـمعت الصـغار يدنـدنون وهم يركبــون الزلاجــات للمغــادرة إلى حيث لا عودة:

> “Silent night، holy night all is calm، all is bright 'Round yon virgin Mother and Child Holy infant so tender and mild Sleep in heavenlypeace,Sleep in heavenly peace, Silent night, holy night!”

في ليلة الميلاد وبعد العودة من الموعظــة والصــلاة في كنيســة القريــة ذات الأجــراس النحاسـية تتجمـع العائلـة مثـل كـل عـام حيث اعتاد الصغار على التقافز والغنـاء قـرب ألسـنة اللهب المتراقصة في المواقد المبطّنـة بحمـرة دافئة، بينما تعد النساء فخـذ الخـنزير المشـوي

على العشاء مع خبز الجادور والنقـانق وهريسـة البطاطـا ومشـروب اليـالو وشـراب الكلـوكي المحلّى، كـان الرجـال يوقـدون على الموائـد شموعا صنعت منزليا من زيوت حيوانية بينمـا استدارت أكاليل خضر من الغار والصنوبر حـول نفسها وعلقت على الأبواب. أتـذكر ذلـك بينمـا المنـازل فارغـة وصـرخات الـرعب تنطلـق كعاصـفة صـارخة بين الأبـواب المصـطفقة بوحشة وارتقاب. في تلك الليلة على غير عادته لم يحضـر سـانت كلـوز وأيائلـه اللابيـة من روفـانيمي، لم يحضـر القـزم الـذي يسـامح الأطفال لشيطنتهم المحببة طوال العام، حضـر قـزم العقـاب فقـط وأفـزع الصـغار، ربمـا أسّـر الجنود السوفييت سانت كلوز وهو في طريقـه إلى هنا، قلت مع نفسـي، بينمـا تـدفأوا بحـرق علب الهـدايا، لكن بمـا أن القريـة بلا أطفـال أو كبار حتى، ما الداعي لمجيئه؟ ها؟ لا تكن مغفلا تيـو في أوقـات الحـرب يتجـه سـانت كلـوز للمعسـكرات الحربيـة ليقاتـل أو يطهـو الطعـام للمقاتلين، على الأقـل سـحابة رخاميـة رماديـة تهبط الآن ككابوس فوق القرية، رائحتهـا بـارود ودخان، دوامات من رغوة بيضاء تلـف المكـان والأشـجار المتجمـدة، كأنمـا فم إلهي عملاق

نفخها مرة واحدة واستراح، بعـدها بـدأت تنمـو من بعيــد أشــباح بملابس بنيــة اللــون، ازداد عددها واستطالت أكثر، أصوات أحذيـة ثقيلـة، عيــون نجميــة حمــر تــومض من بعيــد وســط ضباب مدخن، إنهـا تقـترب بحـذر، أشـم ذلـك بأنفي الحصاني، في الحقيقة منـذ يـومين وأنـا أشــم رائحــة بــولهم وشــايهم وخــبزهم، أســمع نكاتهم ولا أميزهـا، يتكلمـون لغـات عـدة تحت علم سوفيتي واحد، صاروا أقـرب، صـرت أمـيز قبعاتهم الفرائيـة واصـفرار بشـرتهم وأسـنانهم، أسمع أسلحتهم وهي تطلق الطلقات الموجهــة إلى صدر القرية لتمشيطها قبل اجتياحها، أديــر وجهي هنا وهناك، لا أريد أن أصدق هـذا، هـذه قريتي كذلك، أسطبلي، وطـني الصـغير، لـو لم أكن بجرح خاثر لخرجت ودافعت عنها بحوافري الأربعة.

– أعلم أنك شجاع، تيو. قالتها روها بفخر.

بعد ساعات وصلت أولى الدبابات تختبئ خلفهــا متحصــنة ناقلــة جنــود، هــل شــاهدت الدبابة من قبل عزيزتي روها؟ كيف أصفها لك، إنها كفيلٍ من المعدن مقطـوع الأقـدام الأربــع، لكنه مع ذلـك يسـير بخرطـوم منتصـب ينفث نــارا. كنت صــغيرا عنــدما شــاهدت فيلا في

سيرك روسي جاء إلى القرية عبر كاريليا، كـانت هناك كرة ملونـة يتقاذفهـا مـع مهـرج، وأعلامًـا صغيرة وأوراقًا مثلثة زرق وحمـر وصـفر ربطت في حبال عند مـدخل الخيمـة. كـان ذلـك منـذ زمن بعيـد، انتهى زمن الفيلـة المسـلية الـتي تـأتي للـرقص في السـيرك، وجـاء زمن الفيلـة الفولاذيـة القاتلـة، لم يعـد هـذا زمن الكـرات والشرائط الملونة، ولا المهرجين المسلّين.. هذا زمن الجنرلات وفيالق الجنود.

بعدها حلقت طائرة سوفيتية، إنها.. كيـف أصفها لك، تشـبه نحلـة أو ذبابـة عملاقـة تطن فيُسمع صوتها عن بعد. ززززززززز صدقيني روها لا يمكنك هشها بـذيلك. إنهـا قاتلـة، أخطـر من أفعى ذات الجـرس، تلقي كـل مـرة مـا يصـنع جحيم يكفي لحـرق مئـة اصـطبل بأحصـنتها. حمحمت روها بحزن، أوه عزيزي تيو هـذا كثـير، أنت بطـل، أقسـم بمهـري على ذلـك. أكملت، كنت قطعـة صـلدة من الخـوف، كـل قلـوبي الخمسـة كـانت ترتجـف، سـمعت طقطـة أضـلاعي وصـوت حـذاء عسـكري يقـترب من الإسطبل قلت لنفسي بينما كـان أحـد الجنـود يجس بيده جسدي، هل سـيأكلني السـوفييت حيا الليلة؟

لماذا تركوني، لم يكن جرحي غائرا، كنت أستطيع سحب زلاجتين، لماذا لم أُعدم كما يحصل للأسرى والجنود في الجبهات؟ الخيول ككائنات تشترك بشرف الموت العسكري، بالرصاص، عندما تشيخ أو تُكسر ساقها، سمعت السيد توبي يقول لهم عندما كان الجميع يسرع بالهروب: ابقَ تيو، سيلحق بنا بعد أن يشفى، كان واثقا من ذلك، في منزل السيدة مارتا التي غادرت مع الجميع صباحا. قال جندي سوفييتي وهو يقرب مصباحه العسكري من كتلة صغيرة من اللحم البشري الحي متفحصا ملامحها، أنه رضيع، نائم أو ميت. تردد صوته في الغرفة الخشبية المظلمة، جاء ساشا وقد بدت أشباح الجوع في وجنتيه البارزتين كنتوءات جبلية، شحب لونه أكثر بتأثير الضوء الأصفر الخافت. كان النقيب إيكورفيتش يلوح كجذع شجرة داكن، من خلف زجاجة النافذة المضببة بدخان، كان يشرب بعض ما وجد من يالو كاريلي خلال التفتيش. هل نأكله قال ساشا مازحا؟ قرّب فوهة بندقيته من قماط الصغير، جسّه بها وتركه، حضر النقيب إيكوفيتش نظر إلى الرضيع متفحصا كما يفعل من يريد شراء حمل صغير، تخلصوا

من هذه المشكلة، الآن، هذا أمر. أدّيا له التحية وهو يغادر.
كم يبدو شبيها بالمسيح في المهد، قال إيفان بعاطفة. زجره ساشا بعصبية، اششش لا تقل هذا كأنك لم تتثقف في اللجان الحزبية المحلية، ألم تستوعب الديالكتيك بعد؟ هل تؤمن بحكايات العجائز والقساوسة البرجوازيين؟ بصق بعدها على الجدار ..رد إيفان بصوت عميق:
- كان جدي قسيسا، قسيسا ماركسيا يؤمن بالرب والفقراء بالمقدار نفسه. ساد صمت بين وجهيهما المتقابلين، بينما يُسمع صوت طلقات متقطعة في الخارج، يترافق ذلك مع صرخة من العاصفة الثلجية سمعتها في الغرفة بعد أن نجحت في فتح ضلفتي النافذة الخشبية. مر هواء باردً جمّد أنفاسهم، استفاق الطفل، بدأ بالبكاء، كان جائعا. صاح ساشا وهو يمثل شكل دب: هيه أيها الفنلندي الرضيع لست أنا أمك لتفعل هذا، هل تعتقد أن لدي حلمتين؟ قالها وهو يشير إلى صدره، اطلب ذلك من إيفان فهو ذو ثديين ورديين ممتلئين لإرضاعك، ههههه. انفعل إيفان حذر ساشا: ساشا لا تمزح مع جورجي جائع أو غاضب،

تصاعد الشجار، تصاعد كذلك صراخ الطفل طلبا للحليب، حضر الآمر المسؤول، دخل شاهرا مسدسه بوضع الاستعداد للإطلاق، ربما سيحصل الآن الأسوأ. تخيل إيفان مشهدا دمويا ما، لكنه أبعده عن رأسه بهزة خفيفة، كما يتساقط ثلج متراكم من على غصن شجرة عجوز، هبطت كآبة مفاجئة بحجم جبل هلتي، قال الآمر العسكري: ماذا الآن، هل مشطتم المنزل جيدا، هل تتصارعان على سرقة شيء ثمين كالعادة؟ صمتا. انتبه للطفل الذي ازداد بكاؤه خوفا من الأصوات المتشاجرة، يتساوى الجنود مع الرضيع بالجوع والخوف. صاح الآمر: انتباه، ما هذا العبث من جاء بالطفل إلى هنا؟ كان الأجدر أن يقول من جاء بنا، من بلدنا، إلى هنا، أليس كذلك عزيزتي روها؟ قال ساشا: لقد وجدناه سيدي، إنه رضيع فنلندي غادر الجميع وتركوه، ربما لإزعاجنا أو تأخيرنا بواسطة بكائه، ربما هو كمين ليعودوا ويقاتلوا من أجله.
نظر إيفان حانقا لساشا، أي غباء يمتلك هذا المجند القوقازي؟فكر بداخله. صاح الآمر: اسمعوا لم نأت إلى هنا كمربيات أطفال، هذا ليس عملنا، بالأمس خسرنا خمس دبابات حرقها أولاد الملاعين بالكوكتيل الحارق،

خسرت ألكسندر، أعز صديق لي في كمائن الأشباح الفنلندية البيض المقاتلة، وجدنا جثته مذبوحا هكذا، وأشار بخط أفقي إلى حنجرته، قبل أن يطلق رصاصة واحدة، لديكم دقيقة لتتخلصوا من هذا الخنزير الوردي الصغير، وأشار للطفل، أسلخوه أو أطهوه للعشاء، عندما يجوع الجنود يأكلون كل شيء، كل شيء حتى جثث اطفال أعدائهم.

- لكن سيدي الأطفال لا يقاتلوننا، قال إيفان بشجاعة مباغتة.

رد الآمر بعينين بدتا مثل فوهتي بندقية مزدوجة مسدده باحكام:

-ماذا قلت؟ تريد أن تناقش الأوامر العسكرية اذا .

- سيدي أعتذر, أقصد الأطفال ., أنا أب كذلك.قال بتلعثم واضح.

- اسمعني جيدا مجند إيفان, كل بذرة تصير شجرة يوما ما تعيق طريقنا نحو البروليتاريا، تقلع مبكرا، هل فهمت ما أقصد؟ الحرب عودة لطبيعتنا الحقيقية، نحن سنوريات قاتلة لن تغيرنا الحضارة، كل ما تسمعه عن الإنسانية هي أقاويل برجوازية غبية، انتهى.

أديا له التحية العسكرية, غادر الآمر المنزل ، سمعت خطواته تبتعد .

ثمة رائحة دم ستطل برأسها من رقبة هذا الصغير، احس إيفان بهذا, بحركة مباغتة دفع ساشا من كتفه واحتضن الطفل، حمله إلى الخارج,صار ساشا يهدد بكتابة تقرير إلى الكومسيار الحزبي، ذهب إيفان بالطفل وهو لا يعلم إلى أين.. مر تيار هواء بارد طقطقت فيه أسناننا كلنا مرة واحدة أنا، الطفل وإيفان في الخارج.

توقف تيو عن الكلام، حبس دمعة كبيرة شقت طريقها بين جفنيه كخنجر,طأطأ رأسه، حمحم، ثم اتكأ بجسده على جدار الإسطبل كمن تخلت ساقاه عن حمله، لم يعد يقوى على السرد.

- استرح عزيزي تيو. قالت له روها وهي تمسح رأسها بشعر رأسه.

- تعلمين عزيزتي روها أن الخيول تتنقل كثيرا، ونصلح لأن نكون حكواتيين أفضل من قطيع من الروائيين الآدميين الذين يجترون ما لديهم كل مرة أو يسرقون حكايات الآخرين ويعيدون تدويرها فتأتي عادة ساذجة وخالية من النكهة

وينقصها الكثير من ملح الصدق وواقعية التفاصيل، أتوافقينني الرأي؟. حمحم تيو.

في يوم الإثنين، عدت للعمل، بعد إجازة نهاية الأسبوع، مضت الساعات ثقيلة، أسير في الممر متخيلا هانو يطل برأسه من غرفته يناديني:

- لتيف هل حان وقت الطعام؟

- قريبا جدا هانو، لا تستعجل، أرد عليه مبتسما بمودة.

- لست جائعا لتيف، الموتى لا يأكلون صديقي، هل نسيت؟

ألتفت هنا وهناك، ريتا تخـرج من غرفتهـا باتجـاه صـالة الطعـام في الطـابق الأرضـي، حيتـني: moi, هـل أنت بخـير، هـل تبحث عن أحد؟ لا. أجبتها. ساعدتها في الدخول إلى كابينة المصعد، سألتني: هـل تعمـل ليلا؟ مـا سـبب الهـالات السـود حـول عينيـك، تبـدو كالبانـدا، اسـتعمل أكيـاس الشـاي البـاردة، زوجي كـان يعمل هكذا عندما كان يعمل سـائق بـاص ليلا. شكرتها. جلس الجميع على الموائد، أسـرع هنـا وهنـاك، أجلب لهـذا فطـيرة التـوت، ولتلـك هـريس البطاطـا والسـمك أو العصـيد، ثمـة

كرسي ترك عمدا، وضع عليه زهـور بيض، كـان هانو يجلس هناك، ترك هكذا كحداد ليومين.

في غرفــة ســينكا ,اصــطدمت بالكتــاب المقدس الذي كان على منضدة صـغيرة قربهـا فأسـقطته أرضـا، كنت أبـدل مـاء آنيـة الزهـر، حملته ومسحت جلدته الخضراء ذات الحــروف المذهبــة، قبلتــه ووضــعته في مكانــه. راقبت ذلك، قالت بنبرة فجة: لا أحد يدفع لـك لـذلك، ليس عليك أن تمثل أنك تحترمه، أنت لا تؤمن به حتى. كانت فجة نوعا ما وحادة، جلست على الكرسي أمامها:

- من قـال هـذا؟ أنـا مـؤمن بـرب واحـد مثلـك ســـيدتي، الكتـــاب المقـــدس يـــدعو للحب والتســامح وتقبــل الآخــر كمــا أعــرف وهــذه مشتركات إنسانية، ليس مهما أية ديانة أعتنـق لأؤمن بهذا.

- هل أعتبر هذه محاضرة في القيم المسيحية؟!

ردت بحـدة، نطت عـروق رقبتهـا مثـل أسـلاك دواخل السيارات.

- ليس هذا ما قصدت، فقط تصـرفت بـاحترام ازاء كتاب مقدس، حسب معتقدك ومعتقـدي كذلك.

-هل أنت متدين؟ سألت بفضول.

-ليس مهمـــا أن أكـــون متـــدينا حـــتى أحـــترم معتقدات الآخر.
- هل تؤمن بيسوع كمخلص؟
-حسنا، لكل إنسان يسوعه الخاص سيدة سنكا. أجبت وتشاغلت متعمدا بغسل يدي في الحمام لأنهي الحوار. سمعتها تقول:
ـــــ هذا صحيح إلى حد ما، أوافقك الراي، هل أستطيع أن أسألك عن بعض أمور الشرق، الديانات، حجاب النساء، العنف، وعن القرآن؟

أجبتها بإيجاز: لست مختصا، وليس هذا مكان نقاشات دينية أو ثقافية، سيؤخذ علي في عملي أنني أروج لمعتقداتي وأفكاري.

هربتُ من حلبة النقاش قدر المستطاع أخبرتني مديرتي ايلا أن سنكا تريدني أن أصطحبها يوم الأحد للكنيسة:

ــ لطيف, هذا اختياري، لا أعلم إن كانت ديانتك تسمح بدخول الكنيسة. ابتسمتُ، قلت: طبعا ولمَ لا؟ الكنيسة بيت اللّه.
-حسنا ولأنها عطلتك ستدفع هي لك أجرة مضاعفة. أردفت ايلا.
- لا مانع لديّ، سأرافقها دون مقابل ك "لطيف" وليس موظفا.

أثار ذلك إعجابها، فاحتضنتني بدفء وسعادة.

في صباح يوم الأحد، جاءت سيارة "تاكسي" خاصة ونقلتنا إلى كنيسة حُفرت داخل صخرة في وسط هلسنكي. بعد انتهاء القداس، همست في أذنها: عليك أن تصلي لنا أيضا، نحن المنتظرين الفرج منذ سنوات في العراق وفي فنلندا كذلك .

ما أن أوصلتها إلى المذبح حتى أشعلت شمعة لي ولها. مكثت صامتة قرب المذبح وقد شبكت كفيها كفراشة مطبقة الأجنحة، كانت تصلي بخشوع ، انسحبت أنا إلى الخارج لأدخن, تخفت أصوات الترانيم في أذني بالتدريج كلما ابتعدت.

بعدها, صرنا شبه صديقين أو صديقين جديدين، هكذا قالت سينكا لي، ثم رحت أطرب سمعها بموسيقى عربية. قالت إنها تحب التراتيل الشرقية، وما زالت تتذكر النغمات المنبعثة من كنيسة المهد عندما زارتها في الثمانينيات.

كانت مشتريات ريتا التي تخطر كوحي على بالها طفولية جدا وكثيرة، وفي أي وقت،

علكة بالفراولة، شوكولا غامقة بنسبة سبعين بالمائة، صودا بالليمون أو شبس مدخن. كانت قصيرة بشعر أحمر قصير، شكت لي مرة من سنكا:

- لطيف قالت لي سنكا إني لن أدخل الجنة لأن شعري أحمر، هل تعتقد هذا؟

- هذا مضحك، لا أعتقد أن للون الشعر علاقة بالأمر، ربما لن تدخلي الجنة لأنك تزعجين المسكين مارتي دائما بالمزاح بخصوص قصة شعره السبعينية. رددتُ ضاحكا.

- أوه هل تقصد أنني شريرة، أنا طيبة، أفعل هذا بدواعي الصداقة والمشاكسة.

- لطيف لا تكن سخيفا معي.

- إذا ، سأشتري لك صبغة شعر سوداء لتضمني الجنة, ما رأيك؟

- هممم؟ أنا أيضا فكرت بهذا، إن فكرة سنكا هذه تعود إلى جداتنا وجزءًا من ثقافتنا الشعبية، كانت بنت القس لا تلعب معي، حذّرها والدها بسبب هذا.

أكتشف كل يوم أن العالم، أي عالم شرقي أو غربي لا فرق، يتداول الغباء والخرافات نفسها ولكن بمفترقات زمنية ومكانية.

طلبت من موظف المعلومات تاريخ ميلاد ريتـا، جهـزت لهـا مفاجـأة، حفلـة عيـد ميلاد صـغيرة، كعكـة وبالونـات وبـيرة بـدون كحـول، دعوت زميلاتها في الطابق الثاني تـولا، سـنكا، كايا، أليس، صوفي، التي تتحـدث في الغـالب السـويدية وأخريـات. من الرجـال حضـر أرتـو، أنـــترو، يوســـي، والعاشـــق مـــارتي كـــان في الخامســة والثمـانين، وكـان يغـازلهن بكلمـات قديمـــة جـــدا تشـــبه تســـريحة شـــعره:

ـــ أوه.... انت أميرتي الصـغيرة, حلمي الـوردي الذي أنتظره , مستقبلي المشرق، تجيبه:

- مـــارتي عليّ أن أفحص محركـــك أولا، هـــل أستطيع ذلـك الليلـة، هههـه ,ينفجـر الجميـع بالضحك بمن فيهم سـنكا المتحفظـة، نـرقص ونغني، نأكل ونشرب بفرح حقيقي.

- مارتي.. أفتقد هانو، لست أقـول هـذا لأفسـد الاحتفال، ولكن المسـكين كـان سـيفرح وربمـا سيرقص لو أنه معنا.. بحزن قالت ريتا.

صـــمت الجميـــع قليلا. ســـاد شـــيء من التساؤل.. من التالي؟!

- أوه عزيزتي.. إنها الحياة هكذا، شطف وأخـرج، تتـــذكرن إعلان الشـــامبو في الثمانينيـــات للمصمم فيدال ساسون، إنها الحياة.

رد مارتي: هيـا لنفـرح قليلا، هـوب هـوب. وبدأ يتقافز ويصفق.

أبدو في الأربعين من العمر، برغم أنــني لم أكمل الثالثــة والثلاثين، أصــلع ببشــرة لاتينيــة، ببنية قوية وهيئــة لاعب كـرة سـلة. حكيت لهم في دائــرة الهجــرة مــا جــرى لي في مــدينتي، الفلوجة، حين احتلهــا المتطرفــون الجهــاديون، علقوا رايتهم السود في كــل مكــان حــتى فــوق شمس الظهيرة، تجوَّل الرعب في الأزقــة وبين الأســواق. كنت في المرحلــة الثانيــة، من كليــة الطب، طلبــوا مــني إجــراء عمليــات خطــرة لجرحاهم، رفضت، لست مؤهلا لهذا، شــرحت لهم أنا لست جراحا في الحقيقة... إنك طــبيب على الأقــل، أجــابوا بخطــاب ديــني براغمــاتي سخيف "الضرورات تبيح المحظــورات"، ليس لــديهم كــوادر كافيــة وهم في حالــة قتــال مــع القوات النظامية العراقية وغير النظاميــة. كنت أفعــل المســتحيل، أخيــط أغشــية مهترئــة، أستخرج شظايا من الأدمغة، كان الأمــر يفشــل في الغــالب، لم ألاحــظ انزعــاجهم كــل مــرة، يعتقـــدون أن الله أســـرع في طلب القتيـــل كشهيد وسيكافئه بالجنــة. كنت أمــوت نفســيا كل مرة لا أقدر بها على انقاذ إنسان، مدنيا كــان

أم مقاتلا، أنا لســت معنيــا بعقيدتــه أو تصــرفه قبل أن يصل إليَّ كحالــة في غرفــة العمليــات، عملي مع الإنسان، الجسد، ومهمتي هي كيــف أحاول إصلاح مــا أقــدر عليــه، لســت قاضــيا أو محققا، قلت هذا للقوات العراقية التي تحاصــر المدينة عندما هربت منها ليلا. كانت أســئلتهم "هل عالجت مســلحين؟" "كم عــددهم؟"، "مــا هيكلية القيادة الميدانية لــديهم؟"، "هــل جــرح فلان الفلاني؟"، "هــل يصــمدون طــويلا؟". يــا الله، جرى التحقيق وكأنني جزء من المقــاتلين، ليس لدي معلومات، كررت هــذا مــرارا، حســنا إذن أنت منهم، أجـــابني محقـــق عســـكري حكــومي، اعتُقلت طــويلا، عُــذبت، أُخــرجت بوساطة شخصية ســنية سياســية معروفــة من مدينتي، أنا ومجموعة هــاربين من المتطــرفين إلى الشك الحكومي العراقي، ثم الشك الإداري لاحقا في دوائر الهجرة الفنلندية. طلبــوا شــهادة التخرج، أجبت أنني لم أكمل دراسة الطب بعد، قالوا إن مدينتك عادت تحت سيطرة الحكومة، كــانوا يتــذاكون بمعرفــة الشــأن العــراقي، مــاذا تعرفـــون عن المشـــاكل الطائفيـــة؟ الشـــك المتبادل بين أبناء الطوائف، المليشــيات الــتي ســتفقد عملهــا لــو اســتقرت الأمــور، الأحكــام

الجاهزة المتبادلة بين الجميع بمجرد ذكـر اسـم عائلتـك فقـط، أنت كـذا الكـذائي حسـنا، أنتم مجرمــون، جهــاديون، إرهــابيون، متطرفــون، دواعش، أو على الأقـــــل متعـــــاطفون معهم، لكنني علماني بالغالب. اجيب...:أهـا علمـاني، حتى لو كنت ملحدا، الأمر لا يختلف، الأمر أنت من الــدواعش، أنتم مــدعومون من(...) - وأنتم كــذلك مــدعومون من(...)، نحن مظلومــون، - ونحن كذلك، -لا ليس حديثا منذ ألف وأربعمائة سنة، يا لثارات...، يـا للفجيعـة، ويسـتمر سـوء الفهم المتعمــد، يســتمر العنــف والتهديــد، ويفشل حتى الله في ترطيب الأجواء، هكذا يتم تــداول الحــوارات العراقيــة حــتى بين النخب المتعلمة..

أخطرتـــني دائــرة الهجــرة بــرفض طلب لجوئي. كـان هـذا الثـالث، سـيكون لزامـا علي إعادة التبصيم، لم يكن لدي ما أضيف للقضية، بعــد أربــع ســنوات من الانتظــار، والجمــود المعنوي والإنساني، هذا قرار غير عـادل اتصـل بي المحــامي بعــد شــهر: للأســف، لم تنفــع توصيات المحكمـة الاتحاديـة في إعـادة النظـر بالقضـية، "قفلت السـالفة"..قلت لـه باللهجـة العراقية.

-عفوا لا أفهم ما تقول.
- لم يعد مهما أن تفهم، شكرا على أي حال.

إمعانـا في التضـييق طلبت دائـرة الهجـرة من شركة إدارة دار رعاية المسـنين إيقـافي عن العمل، أمهلـوهم يـومين لتصـفية مسـتحقاتي المادية، هذا الإجراء في العادة يأتي متزامنا مع إيقاف المعونة الماديـة لطـالب اللجـوء والطـرد من مركز إيواء اللاجئين، لن يشفع لك أن تعمل وتـدفع ضـرائب كـأي مـواطن أو مقيم أجنـبي. كـونت لي سـمعة طيبـة لـدى الإدارة، وعـدتني المديرة ايلا بمخاطبة دائرة الهجـرة للسـماح لي بالاسـتمرار في العمـل.. مناشـدة غـير ملزمـة، إنسـانية لا أكـثر، محاولـة، هنـاك قلـة في اليـد العاملة في هكذا وظائف، أي رعايـة المسـنين، يفضلوننا بسـبب المسـحة العاطفيـة الشـرقية الــتي نعــاملهم بهــا، بينمــا يعمــل الآخــرون كموظفين إلكترونيين.

السـيناريو الأسـوأ والـذي حصـل لكثـيرين غيري من قبل كان الاعتقـال في مركـز ترحيـل ماتسـلا، كـان سـجنا محكمـا، النوافـذ مقفلـة ومعززة بقضبان من الخارج، سور مزود بالسلك الشـائك، لا تـدخل أيـة سـيارة إلا بعـد نقطـة تفتيش بعارضة وشرطي.

هــانو....كم أفتقــدك صــديقي، مــا زالت حكاياتــك تشــغل ذاكــرتي، وحقيبتــك وألبــوم صورك وتيو وروها يذكرانني بك.

كـــان علي أن أتــرك الســـكن، اتصـــلت بصاحب الشقة كاكـا أزاد، سـأعود لمركـز إيـواء اللاجـــئين في أول يـــوم من الشـــهر المقبـــل بحسب الاتفاق، بلا عمل لن أسـتطيع أن أدفـع الإيجــار، ذهبت للمركــز لأخــبرهم أنــني عائــد للغرفة 155، مع مروان وسرمد وأمير الأفغــاني وسعد (كان سعد يتنقل بين المركز وبين شــقة بايفي، بالغالب كان يسكن معها كعشيق).

- نأسف لأنك لا تستطيع أن تعود للمركز، حتى الخدمات الطبية لم تعد مشمولا بها، أخطرتنا دائرة الهجرة بذلك. قالت الموظفة في الاستعلامات .

ـــــ هل أنام في الشارع، في ديسمبر، الشتاء سيبدأ قريبا، أو بدأ فعلا، كيف سآكل؟، كيف سأعيش؟، أتعالج؟ هل يعقل هذا، هل تمزحون؟ وبعصبية ضربت بيدي على الطاولة,اردفت.

ـــــ أجيبوا هل مطلوب منا أن نعود، أن نموت في العراق أو نموت من البرد في الشارع؟

ضغطت زرا ما، اقترب مني اثنان من الحرس الأمني، أشارت لهم باتجاهي. صحت:

- ابتعدا، لست هنا للعراك، أنا أتحدث فقط.

قـــالت لي بنـــبرة قاطعـــة: اذهب إلى محاميـك ليسـاعدك، هنـاك منظمـات تـوفر السكن ليلا فقط، اتصل بها، اتصل بالسوشـيل المركـزي في هلسـنكي قـد يجـدون لـك حلا، آسفة. وبحركة سريعة أغلقت النافـذة الزجاجيـة الـتي كـانت تحـدثني من خلالهـا وانصـرفت. عدت إلى الشقة، احتسيت خمرا حتى الثمالـة، تحـدثت بعشـر لغـات مـع نفسـي، كـان منهـا لغـات سـومرية وبابليـة وآغوريـة منقرضـة، سقطت في السرير أخور كثور فقد خصيته.

أستعين بصديق ,كما يفعل متسابقو" من سـيربح المليـون"، الحشيشـة الإسـبانية المغشوشة التي التجئ إليها كلما شعرت بحجم المشكلات كمحيـط، بينمـا أنـا سـمكة ابتلعت كيسا بلاستيكيا لا يمكنها إخراجـه من مؤخرتهـا الضيقة، أدخن فأنسى تفاصـيل مـا حصـل لي وما سيحصل، سألت يارفي زميلي في العمل، لمـاذا يسـمي العـالم هـذه البلاد فنلنـدا بينمـا تسمونها انتم (سومي)، هـل يعـني هـذا شـيئا باللغة المحلية؟!

أجاب: بلاد المستنقعات.

ودعني يـارفي بعـدها بشـهرين وغـادر إلى أستراليا في إقامة عمل لمدة سنة، كان يمتلـك منزلا وحبيبة ساخنة كممثلات البورنـو، قـال إن ما ينقصه هو الصيف. تمـنى لـو تبتكـر جامعـة (التو)التقنية أو شركة نوكيا صـيفا صـناعيا مـا، الشـتاء الفنلنـدي ثقيـل وبطيء كشـاحنة نقـل محملة بصخور. :"ستقابل الكثير منـا، يتمنـون أن يشاهدوا ولو مـرة في حيـاتهم صـيفا شـرق أوسطيا وأجـواءً متوسـطية سـاحرة".أصـمت ، مفارقة أخرى، يتـوق هـذا ال يـارفي إلى شـيء هربت منه، بينما يهرب من شيء أتوق اليه.

- لكنني قايضـت كـل هـذا بمـا لـديكم، دفعت مقـدما، " شـمس الشـرق " ولم أحصـل على شيء، هل هذا عدل صديقي يارفي؟! قلت له.

- ربما عليك الانتظار، أو الغـاء الصـفقة, وداعـا، أنا ذاهب إلى آخـر العـالم من الجهـة المقابلـة ، ابق أنت هنا. رد ملوحا بكفه.

اعلم ان الانتظار مشروع كوني يعمل عليــه الجميـع من هـانوي إلى ريـودي جـانيرو مـرورا بازمير وماتـاليني، مـرورا بقلـبي المبلـل دائمـا بمطر الـترقب والمحـاط بريـاح العنـاد. على أي حال سيتدحرج كل هذا الوقت يومـا مـا كعربـة

مـات حصـانها وسـقطت من سـفح جبـل. سـأتوقف عن التفكـير وأدس رأسـي بين مخدتين كما أفعل بالعـادة، متخيلا حلمي قبـل أن يبدأ، ليبدأ النوم ليبدأ النوم آمـرك يـا رأسـي بذلك. هيا، انطلق.

قبل أن أشغل ماكنة الشـخير الـتي تعمـل بوقود النوم تذكرت ما حصـل في الشـارع قبـل أن أعود إلى الشقة...

كنت سـاعتها في إقليم الحاضـر، هكـذا أقـول لنفسـي، المخـدر يعمـل الآن جيـدا، لم يغشـني البـائع المغـربي، جـاءت السـيارة من الفـراغ ولكـانت قلبتـني رأسـا على عقب في الهـواء كقنينـة كـولا بلاسـتكية، لـولا تـدخل المصـادفة أو الله، على أي حـال، لم يحصـل الأسوأ، كـذلك لم يحصـل أمـر حسـن، كـل مـا حصـل هـو تبخـر ضـباب المخـدر من رأسـي، انتهى تأثير الحشيشة، أطلقت صـرخة أفـزعت أربعـة غربـان كـانت مجتمعـة على الرصـيف المقابـل، قلت لنفسـي كفيلسـوف متـدرب: حسنا، ما حصـل هـو تـذكير دائمـا بأننـا كبشـر أكيـاس دم من جلـد بشـري قابلـة للتلـف بمفاجآت سخيفة. نعمـل جاهـدين لتجنبهـا إلا أنها تقع دائمـا، مـرة بخسـائر ومـرة من دونهـا،

أقـول صـادقا، نحن من ابتكـر التلـف والمـوت ونحن من ابتكر الإنشاء والحياة.

كل مسـاء أتكسـر كأغصـان صـغيرة تحت إطارات سيارة ثقيلة مسرعة. لن تجدي الكحول بأعلى تركـيز لهـا ولا الحشيشـة ولا الله يتـدخل ليمحـو القلـق من تلافيـف رأسـي، حـتى ثقبـه وإفراغ زلال المخ، لا ينفع.....عالق هناك، يمحو كل شيء كل شيء ولا ينمحي.

وككل خاسر نفض جيوبه وقام، تبـدو ركلـة الهزيمة كطبعة حذاء فوق مؤخرته، كنت أتجول بلا وجهـة محـددة وبلا زمن، لا تكـترث بـالزمن كثيرا، ستفقد عنـدها لـذة العبث بالحـدث كمـا تفعـل وأنت تـدفع مؤشـر الفيـديو لمشـاهدة فيلم، أعتـبر هـذا الفيلم حياتـك، قـدِّم وأخـر بأصابعك الأحـداث أو أوقفهـا في الثانيـة الـتي ينتابك فيها إحساس الرضا بالأشياء والأحداث.

في رأسي الصغير والمحشو بخدر لذيذ منشؤه نصف غرام، فلنقل هليوم خفيف بدل ماريجوانا، ما الضرر في ذلك، أقصد تغيير المسميات من دون المسمى، لي الحق كمنتشٍ بتغيير اسم المؤثر سيء الصيت باسم مؤثر آخر يعطي الإحساس نفسه من دون إحراجات مجتمعية، هذه لعبة السياسة، القدرة

الكاملة والواعية والواثقة على خداع الآخرين بما يناسب رغباتهم الغريزية السرية، سرّب لأدمغتهم مخدرك وأقفل على أنوفهم وبقية ثقوبهم البشرية لئلا يتسرب، أرحهم فقط.. هذا نجاح يقود لزعامات، شابو..

كانت ليلة السبت اكتفيت بنصف قنينة جن.. فتحت النوافذ كلها اقتحم الظلام من النافذة كقوات النخبة واحتل المكان، رجفة خفيفة بسبب تيار الهواء، بدت مؤلمة ومنعشة، أسلمت أذنيّ لموسيقى جون كرانت، كل شيء ساكن... فُتح باب الحمّام ببطء، وببطء أيضا ظهرت ساق فرس معقوفة في الهواء، ثم استقر على السجادة المخصصة لتنشيف الأرجل. ابتلعتُ ريقي، كان يجب أن لا استعمل النوسكا السويدية القوية تحت الشفةمع الجن الإنكليزي gordons عيار 35 ملم،أتنفس رائحة خيول مرة اخرى, دون خوف هذه المرة, اقتربت روها مني وأنا مصمغ في كرسيّ، تبعها تيو.

- جئنا لأن هانو طلب منا ذلك.

صمت تيو بينما بدأت روها تسرد ما حصل معها :

- بعد مسير نصف يوم في طريق متعرج غير مأهول في الغابات، بينما يصل سُمك الثلج لنصف ساقيّ، كنت أجر زلاجة تجلس فيها ثلاث نساء وثلاث أطفال وسائس شاب نبت شاربه الأشقر حديثا، كان يعرف أنني أمّ فقدت مهريها. قدّر ألمي لذلك عاملني بعطف وهو يقودني لأسحب زلاجة الهاربين من قريتهم، كانوا قرويين مرعوبين تبدلت أحاديثهم بين يوم وليلة من الحديث عن الحطب والقمح والخراف والأبقار إلى ذكر أشياء لم أفهمها غير أنني شعرت بخوفهم عندما يذكرونها، أتخيلها كما يقولون كبقرة حديدية أو ثورًا ينفث من فتحة أنفه النار أو يتف حدوات كما في حوافرنا غير أنها تكون ساخنة ومميتة عندما تتطاير في الهواء وتصيب لحومنا نحن الخيول وكذلك لحوم البشر مسببة جروحا وحروقا. كنت أفهم بعضا من كلماتهم بحكم نشأتي معهم، ذكروا مرة الطائرات، تخيلتها كذباب كبير له عيون حمر تبصق أشياء فتحدث انفجارات وحرائق، خمنت أن القرويين لن يصحبوك لكبر سنك او لانك جريح، ربما سيتركونك أو.. سمعتهم يقولون إنهم سيحرقونك حتى لا يستفيد السوفييت الغزاة منك، بلعت ريقي بصعوبة

وتوسلت في صلاتي إلى الحصان (سليبنير) ذي الثماني أرجل الذي يمتطيه الإله (أودين)، هل سيحصل هذا؟. كانوا على عجل عندما ساقوا بعض الخنازير وقتلوها بينما أتلفوا لحومها، أتلفوا كذلك بعض البيوت وبعض الطعام، قالوا إن التعليمات العسكرية التي وصلتهم على شكل منشورات من قوات مانرهايم الدفاعية تشدد على ألا يستفيد العدو من شيء، الأرض المحترقة عزيزي، رأيت حزنا في عيون القرويين، ليس أصعب من أن تتلف محصولا بذلت عرقك فيه، ليس أصعب من أن تترك قريتك وهي مغروسة برفات الأجداد كعروق وجذور تثبتك بالأرض، ليس سهلا أن تقتل حيواناتك التي تآلفت لسنوات معها من دون الحاجة لأكل لحومها... تيو أعرف أنك حزين مثلي لهذا، لكن أشكر الإله، الفرس العظيم، لأننا لم نكن بشرا يوما ولا نعرف لعبة الحرب هذه التي غالبا ما يخسرها جميع اللاعبين أو يموتون أو يصابون بجروح وإعاقات، فاقدين سيقانهم وأيديهم وعيونهم بعد أن خسروا أرواحهم النقية وتلوثوا بوحل لا يجف ولا ينزع منهم أبدا.. تيو ليس هذا كل شيء.. مارتا ، السيدة التي أنزلوها من زلاجتي بالأمس ميتة

هل رأيتها، هل شممت رائحتها، كانت تفوح منها رائحة الوجع والألم والصراخ المحبوس في الرأس، قتلها صراخها تيو.. صدقني يموت البشر أحيانا بسبب صراخ يطقلونه فينجون أو يلتف عليهم كشبح ويدخل رؤوسهم من أفواههم ويخنقهم فيموتون، عشت كثيرا وشاهدت كثيرا، تيو صدقني، بينما نموت نحن إذا قطع ذيلنا أو مرضنا أو نقتل بعد أن نصبح غير صالحين للعمل ويؤكل لحمنا، غير أننا لا نموت من شبح الصراخ هذا.. أعود لمارتا.

عندما وضعوها قبل مغـادرة القريـة كـانت مغمى عليها، أفـاقت بعـد مسـير نصـف يـوم، تحسسـت نهـديها، كانـا ممتلـئين بـالحليب، شممت ذلك برغم العاصفة الثلجية الـتي كنت تعيقني كثيرا في سحب الزلاجـة عـبر الأشـجار المعمـرة أو الهرمـة المتجمـدة المتشـنجة كأسـماك الكـراكي الميتـة يحـدث هـذا تحت سماء داكنـة وثلج يهطـل بغـزارة. وقفت مارتـا وصـاحت،هـانو، هـانو، طفلي، أين انت؟ اين أنا؟ من نقلـني إلى هنا؟ كـانت تحت تـأثير الحمى عنـدما حملوهـا إلى الزلاجـة ووضـعوا عليها وعلى الآخرين شراشـف بيضـاء للتمويـه،

أوقفن السائق الشاب ودار حديث بين الجميـع وبين السيدة مارتا:

- أوه كيف لم ينتبه الآخرون لصغيرك..هل كـان نائما في المهد؟

- نعم كنت أرضعته في الليلة الماضــية ونمت، كنت محمومة ولم أشـعر بشـيء، سـأعود إليـه أيها الشاب، أرجعني للقرية لأجد صغيري هانو.

كـانت تتحـدث ووجههـا شـاحب وعيناهـا شاردتان تبحثان عن اتجاه القرية في هذا الفراغ حيث لا ملامح لأي شـــيء وكـــأن رأســـك في ســـطل طلاء أبيض يغطيـــك من الأعلى إلى الأسفل.

- سيدتي لا نستطيع ذلـك، الجنـود السـوفيت في الغـالب دخلـوا القريـة الآن، الفـرس روهـا عجوز ومتهالكـة وليس لـديها طاقـة إلا لإكمـال المســير لمـــا تبقى من المســـافة، إذا عـــدنا سنموت جميعا، قال الشاب.

- إذن لأمت وحـــدي. قـــالت وهي تقفـــز من الزلاجة، ولمرضها الشديد سقطت على وجههـا وبدأت ترتجف. شممت رائحة خيـط دم صـغير ربما كسر لها ضرس أو أكثر.

- ساعدنها وأرجعنهـا إلى الزلاجـة. قـال الشـاب بامر للنساء الثلاث اللواتي تقلصن في أماكنهن

خوفـا من أن يعـود الشـاب إلى القريـة متـاثرا بمأساة مارتا. بكت إحداهن من الحزن لفقـدان الصـغير، بينمـا تراصـف الأطفـال الثلاثـة إلى بعضـهم مـرتجفين كـدجاجات شـقراوات في قفص، برغم صغر أعمـارهم. كـانوا يعلمـون أن أسـرهم من قبـل السـوفييت يعـني شـواءهم وأكلهم أو أخذهم إلى سيبيريا ليعملوا كعبيد في نهار مجمـد إلى درجـة خمسـين تحت الصـفر، كـانوا صـغارا ولكن عقـولهم نضـجت بسـرعة، خلال يومين فقط بسبب الحرب وما يسمعونه من الكبار. أُقسم بالإله الحصـان سـليبنير كنت سأعود وأتحمل المشـقة لـو قـرروا هـذا، أنـا أمّ وأفهم هذا, صدقني تيو.

حملوها إلى الزلاجة كما قلت لك، كانت تهـذي طوال الطريق وتردد هانو، أوه صغيري الوحيـد، هانو، ها..... نو..

عدة مرات كنت أقرر أن أتوقف وأعـود بهم بنفسي للقرية من تلقاء نفسي لإنقاذ الصغير، أوه عزيزي تيو ,البشر، قسـاة وفاقـدو الرحمـة، ربما هم عقلانيـون أكـثر منـا، لكنهم، أوه كيـف يحتملون أنين أُم فقـدت صـغيرها؟ كـان عليهم ان يفعلوا شيء .

تبللت أرضـــية المســـكن بـــدموع تيـــو الســاخنة، حمحم كمفجــوع وكــاد يقــع جانبــا، تابعت روها:

-تيو.. لن تحتمل ما سأقص عليك، أوه كم نحن كائنات عاطفية ورحيمـة أكـثر من البشـر، ربمـا تعلمنـا منهم الحـزن والبكـاء، بينمـا هم أغلفـة جميلــة لقتلــة متعمــدين بلا أســباب غريزيــة نفهمها كالجوع أو الدفاع عن النفس.

ـــــ حسنا تيو , كـانت السـيدة مارتـا قـد أفاقت بحركة مباغتة، كجثة مدت يـدها خـارج صندوق الموتى في صلاة جنائزية، ربما بســبب صــخرة مختبئــة تحت الثلج حصــل وأن مــرت الزلاجــة فوقهــا، لــذلك حــدث ارتجــاج كــاف لتصحو السيدة مارتا المريضة جـدا والـتي كمـا قلت أصعدوها الزلاجة وهي محمومـة وتهـذي، كـانت تـردد بصـوت بـاطني أغنيـة صـغار عن الضفائر الـتي سـقطت في النهـر والـتي يجب البحث عنها واسـتعادتها، تعقب ذلـك بــ:" يـا أمي يـا أمي" بـأنين خـافت يصـدر من كهـف رطب داخلهــا، تــوقفت الزلاجــة أو أوقفهــا ، الشــاب الحــوذي الــذي لم تكن ســنواته تكفي ليلتحـق بـالحرب, تيـو، لا أجيـد معرفـة أعمـار الآدميين، يبدون صغارا وهم كبـار أو كبـارا وهم

بلا منطق. عندها , تهامسن النسـوة بينهن، كن يحشرن ثلاثة الأطفال بين أفخاذهن كما تفعـل الدجاجة لبيضاتها، يرتدين ملابس ثقيلـة تغطي رؤوسـهن ايشـاربات ، اثنــان منهن كن بعمـر السيدة مارتا، واحـدة كـانت مسـنة جـدا، ربمـا حتى الأكبر سنا في قرى الغابـة الكاريليـة الـتي هربنا منها قبـل مسـافة نصـف يـوم في شـتاء مصــاب بالســعار الثلجي، أسـقط الكثـير من مخاطـه الأبيض البـارد، تيـو أنـا لا أحب ثلاثـة أشياء:الشتاء والشتاء والشتاء، والحرب.

– هذه أربعة يا روها.. ههههه. رد مبتسما.

كـانوا جـزءًا من أبيض مطلـق، الأطفـال الثلاثــة، والســيدات الثلاثــة،السـيدة مارتــا، والحـوذي الشـاب يضـعون شراشـف بيضـاء فـوقهم للتمويـة، هنـاك فرصـة كبـيرة لمـوتهم بطلقات موجهة من قناص أو طائرة تتسكع هنا وهناك كما يفعل أطفال القرية يوم الأحد، كانوا خـائفين شـممت ذلـك في تعـرقهم البــارد، وأصبت بالعـدوى كـذلك. ليس بـالأمر السـهل تيو، كنت أبذل طاقة أربعة خيول لأعْبرَ صـحراء الثلج هذه، كنت كمن يجر قرية بأكملهـا بإصـبع واحد، الأطفال الثلاثـة كـانوا يـذكرونني بمهـريّ

اللذين جندوهما للحرب. فرس أنـا وأُم، يـا تيـو، تذَّكر ذلك,هز رأسه المستطيل بالإيجاب.

تهذي السيدة مارتا في كل خطوة أتقدم بها للأمام، حسبت ذلك بعد عشرين خطوة بالضبط، صرخت بصوت أفزع عصابة من الغربان كانت تلتصق ببعض تقف فوق غصن متجمد، طارت بومة أمّ للأعلى بينما وجهها يدور ويدور حول مركز الرأس كطاحونة صغيرة. صرخت وصرخت ثم صمتت للأبد،كان صوت السيدة مارتا مكثفا ومجمدا وغير إنساني، شعرت بأن ذلك الصوت يعادل فوضى أصوات سقوط إسطبل كبير، حدث هياج، بكى أحد الأطفال بينما أزت طائرة من بعيد،شعرت بأن أحدهم أصبح قلبه كحدوة ساخنة، أنصت جيدا برغم التعب والإرهاق الذي أصبح يثقل جسدي كتمثال حجري.

- أنا شاهد على ما حدث في القرية عندما غادرتم.. لذا أتخيل ما حصل معكم جيدا...كانت الريح تهز أبواب الإسطبل فيصدر صرير خفيف تلتقطه آذاننا الفرسية القوية السمع مكبرا عشرات المرات، ينبح كلب المزرعة من بعيد، ربما يرى خيال ذئب في الغابة القريبة أو جاء

زائر ما. قال تيو بصوت يشبه دمعة ستنفجر قريبا.

أكملت روهـا: تـذكر تيـو، أنا أُم فقـدت مهريهـا في الحـرب، ربمـا أكلهمـا السـوفييت حيَّين أو ربمـا تجمـدا خلال حـرب الشـتاء، سيظهر الصيف جثتيهما عندما ينكشف الجليد ويعود الطائر ذو العين الذهبية.. الرابحون فقـط من يسـردون بأصـواتهم المفتخـرة، الخاسـرون ليس لهم صـوت, الرابحـون هم من يجب أن يؤكدوا للآخرين ذلك عزيزي، تيو، نحن من صـد الموت مرة وسنصد النسيان مرة أخرى.

تأملت صامتا كلام الخيول، فليس أصدق ولا أكـثر حياديـة من أرواح لم تتلـوث بأنسـنة مخيفة، لتسرد ما جرى.

في الساعة الحادية عشرة تقريبـا، تـوقفت سيارة شرطة قرب مبنى رعاية المسنين، حيث ما زلت أعمل. من نافذة غرفة سنكا التي تطـل على المـدخل الـرئيس، شـاهدت اثـنين منهم يـدخلان المبـنى، توقـف قلـبي لثـوان ثم عـاد نابضا بشكل عكسي، ضخ الـدم حيث يجب أن

يستقبل واستقبل حيث يجب أن يضــخ، كنت قد تلقيت إنذارا بالترحيل من دائرة الهجرة، في الحقيقة ليس لدي ما أضــيف لملفي، فشـلـت جهــود ايلا في إبقــائي في عملي، أخبروهــا أن عليهــا إنهــاء مســتحقاتي الماديــة حــتى آخــر الأسبوع، لاحظت سنكا اضـطرابي:" مـا بـك؟" سألتني.

أجبت: لا شيء. أريد أن أقول لك شيئا في عجالة قبل أن أغـادر، شـكرا للمحبـة والصـداقة التي منحتني إياهما عزيزتي، سـأتذكرك دائمـا، سنكا الصعبة والسهلة في الآن نفسه.

حضنتها، دمعت عيناي، كـانت مندهشـة، شخصت عيناها قليلا..هل أنت بخير؟ لِمَ تقول هذا؟! لم ينته وقت عملك بعد لتودعني.

هبطت السلم كـل درجـتين بقفـزة، كـدت أقع من السرعة والارتباك والخوف، صعدت ايلا بمرافقة الشرطيين بالمصعد بينمـا كنت أخـرج من باب المطبخ الخلفي المـؤدي إلى مسـتودع تجميــع النفايــات، لاحــظ أحــد المــارة لهــاثي وارتباكي نظر إليّ بتمعن كأنمـا يعرفـني، اكتفى بهذا، لم يخدش خصوصيتي كما يفعل الجميـع هنــا، أكملت طـريقي وأكمـل طريقـه بالاتجـاه المعاكس.

ماريهوانـا زائـد النوسـكا السـويدية قويـة التـأثير - صـار لـدي محـرك بحث أعظم من كوكل، ما أن تدخله حتى تصبح كوكـل نفسـك، أو صاحب سيرفر الخيـال اللامحـدود، تـذكرون علاء الدين والمصباح السحري في قصص الف ليلـة وليلـة، المصـباح الـذي مـا أن تمسـحه أو تمسه حتى يخرج جـني أزرق عظيم يحقـق لـك ثلاث أمنيـات حصـرا، لمس المصـباح فيعمـل هـذا، وصـف للأدوات الـتي تعمـل بـاللمس، كـانت هـذه صـورة مسـتقبلية كتبهـا متعـاطي سافر إلى زمننـا مسـتعينا بحشـيش من النـوع الفاخر، ، بدأت بعدها أفكك فكرة الزمن كذلك، جغرافيا كثلاثة أقاليم نتنقل بينهـا بلا تأشـيرات عبور أو ضباط جوازات المطارات.

مرت في رأسي سيارة رانجروفـر، رماديـة، مسرعة، ربما دهسـتني، أو دهسـت ظلي على الأسفلت، صدقني لا أذكر، كانت كثـور نصـف مذبوح، ما زال هدير محركها في رأسـي، شـيء خـاطف كالحيـاة ومؤكـد كـالموت، مفاجـاة كصفعة غير متوقعة، مربك كالخسارات الكبرى ومخيف كالسقوط من طـائرة بلا مظلـة، غيمـة ما مجنحـة مـرت كنت أراقب شـكلها الغـريب أبطأت عبوري ثانية كطـوق نجـاة يقـاوم الغـرق

في بحـر إيجـة، هكـذا هي المصـادفة، تحـيي وتميت وتميت وتحيي.

في اليوم الأخير من إقامتي في الشـقة، أو في الحياة بأسـرها للمـرة الثالثـة زارني مجـددا الحصان تيو والفرس روهـا، وربمـا الأخـيرة من يـدري؟ لم أخـف، كنت مسـتعدا لهـذه الزيـارة، وضعت آلة تصوير لتسجل ما سيحصـل. هـذه المرة تحدثا عن صورة لم أتبين ملامحها، أشجار رماديـة عاريـة مرتجفـة وسـط ركـام هائـل من الثلج، في أقصـى يمين الصـورة ثلاثـة أشـكال داكنة، كما لـو أنهـا من حـبر أسـود، ركـزت في ملامحها التي بدت مفزوعة ومتألمة جدا، ظهـر ذلك في وضع الفك المفتوح كصـرخة سـجلتها صـوتيا الكـاميرا الفوتغرافيـة، كنت أسـمعها صوريا، العيون كـانت مفتوحـة بدهشـة أوسـع من قطر مجرة.

قــال تيــو: مــررت على الكثــير من هــذه الجثث، بعضــها ذبح من قبــل أن يطلــق رصاصة، كنت فخورا بخيوليـتي، كيـف تعلمتم هـذا الخـرق لقـوانين الطبيعـة كبشـر، كيـف تهينون حيوانات الغابة وتسمونها وحشية؟ هي تقتل لتأكـل، سلسـلة غذائيـة لا أكـثر، لكن أنتم لماذا تقتلون؟هل تعرف؟ هذا المشـهد بالـذات

شاهدته بعيني عندما هربت من القريـة، جنـود روس أُعدِموا ووضِـعوا كعلامـات طريـق تشـير أذرعهم المتصـلبة لليمين أو اليسـار. كبشـر , تمتلكون روح المزحة والجريمة في آن واحد، كم أنا محظوظ كوني لست إنسانا.

قاطعته مازحا:ـ تيو، أنت تهينني عرقيا، يمكنني أن أشكوك إلى المحكمة. صهل مبتسما , اكمل:

ـ لن تتعلموا احترام الروح البشرية إلا إذا احترمتم بقية المخلوقات، أنتم شركاؤنا في الكون، ولستم أسيادنا، الذكاء الذي لديكم هو ليس حقا بالسيادة، هو تكيف بيئي فقط، استبدال وظيفي للناب والمخلب مقابل العقل، مع هذا صنعتم أنيابا ومخالب معدنية قادرة على إنهاء الأرض بأكملها، كان من الأفضل لو توقفتم عند إنسان الغاب، كانت الأرض ستكون أكثر خضرة وحياة. روها لماذا لا تقولين شيئا؟! حرضها لتتحدث, تنهدت ثم قالت:

ـ كلما كانت عظام ساقي تصطدم بعظام جثة في الثلج، أعتقدت انهم أمهاري الذين أخذوهم للحرب, جندوهم كبشر ، سحقت في طريقي جثتين أو ثلاثا على الأقل، كانت

مدفونة في الثلج، أكلت الغربان شيئا منها عندما تجلط الدم وتجمدت الأعصاب من البرد. تركوها ليأكلوا جثة طازجة، عين أسير مقلوعة، أو كبد ممزق بفعل الشظايا، كان موسم الجثث الطازجة، ازداد وزن بعض الغربان من الجثث حتى أنها تثاقلت بالطيران. واصلت مسيري، وعيناي مغلقتان، لا أعلم إلى أين، الحوذي الشاب نام خلال الطريق وتركني أسير بلا وجهة، عرفت أنهم تركوا جثة السيدة مارتا في قرية مررنا بها، شعرت بذلك من خلال فرق الوزن، أمّنوها لدى رجل يرتدي صليبا لامعا، شاهدته وقت أطعموني وأزالوا الغمايات، بكت عليها النسوة والأطفال، اكتفى الحوذي الشاب، بالنظر إليهم بعينين حمراوين من الحزن، أنفه كان يشفط المخاط، لكنه لم يكن يبكي، كان ينتحب بقلبه.

شاهدت القرى الخربة، المهجورة بطريقي، حقائب سـفر مفتوحـة سـقطت من القـرويين الفــارين من بيــوتهم، ملابس فتيــات ورديــة صـغيرة، دمى، قـدور طعـام، ألبومـات صـور، أحذيــة، شــالات مزركشــة بزهــور برتقاليــة وبنفسـجية كبـيرة، محفظـات فارغـة، كـانت الزلاجات تعلـق كـل مـرة فيضـطرون للتخلص

من أشيائهم للتخفيـف، تركوهـا كعلامـات على دروب لن يعودا اليها أبدا.

قلت بخجل: لدي طلب، لا أعـرف إذا كـان هــذا ممكنــا، هــل يمكن أن أمتطي أحــدكما؟ "امم "..." هل تجيد ركوب الخيـل، وبلا سـرج، هل جربت ذلك من قبل؟" استفهم تيو.

قلت: نعم في الأنبار، يمتلك أخوالي هناك مزارع تعدو فيها خيول عربية أصيلة، بعضها رئاسية، تعود للرئيس العراقي السابق.

عظيم. ردّت روها. تعال، اركب، لا تخف أغمض عينيك، سنأخذك لصديقك هانو، وقد يعجبك المكان فلا تعود إلى هنا، ما رأيك لطيف؟ لن تخسر إذا أتيت ولن تربح إذا بقيت.. فكر في الأمر.

بزغ الفجر،تنسحب روها يتبعها تيو إلى النافذة،أقفز على ظهرها، كنت خفيفا كدخان أبيض، حرّ مثله، اتجها كالعادة إلى النافذة، قفز تيو أولا، صهلت روها، أحسست بصوتها كرغوة فوق أفق المدينة.. قفزت روها وأنا فوقها من النافذة، أخذاني بعيدا، إلى هانو وكثيرين ممن أشتاق إليهم، آخر صوت سمعته كان صوت ارتطام.

هسيس احتكاك أغصان أشجار في
الأعالي،
كاميرا ما زالت تصور حتى نفاد البطارية،
هواء يحيل الستائر إلى رايات أفقية
متطايرة.

الفصل الثاني
"من منا
ابتكر الاخر.؟"

بول ايلوار

"وبيذكرني بيك،
لون شبابيك،
بس ما بينسيني شو حصل.."

فيروز، أيقونته الصوتية الـتي أهـداها إليّ، عندما تغـني، تسـتطيع أن تـرى دانـتيلا أجنحـة الملائكة حولك، أحببتها من خلاله أو أحببته أكثر من خلالهـا، كلما يسـتمع إليهـا صـباحا، مـع القهوة، يشف فأرى داخله، يصير بلا ظل، يتخذ وجه طفل، برغم شواربه الكثة كذيل هـر أسـود، ولحيتـه المشـذبة كحديقـة قصـر إنكلـيزي.

ــــ إنهـا تشـبه المخـدر، أليس كـذلك، لا أفهم اللغة العربية إلا أن إحساسها يأخذني بعيـدا إلى عوالم وأزمنة لم تتشـكل بعـد، يحصـل لي هـذا مــع إديث بيـــاف مثلا، بــــرغم أني لا أفهم الفرنســية أيضا: ســـاد، ســـاد "VIITU" أنـــا أكلمك..هل تسمعني؟

- همممم، بـايفي سـاد سـاد. sad يعـني حـزين بالإنكليزية، بينمـا معـنى اسـمي "سـعد" هـو happiness، مفارقـة أليســت كـذلك؟ رد نصـف مبتسم مغمض العينيين.

كنـــا متقـــاربين عمريـــا في منتصـــف الثلاثينيـــات ومختلفين شــكليا، كنت ممتلئـــا قليلا ببشرة بيضاء وشعر يميل للحمـرة، أرتـدي

نظـارات بإطـار أسـود، أشـد شـعري عـادة إلى الـوراء كـذيل حصـان مقطـوع. لا أهتم لشـكلي بسبب انشغالي، أو ربما انشغال الآخرين عني، أمـا هـو فعينـاه مصـممتان كقـاربين في نزهـة ليلية، وحاجبـاه الملتقيـان لا ينتهيـان، كطريـق دولي.

يســكن مــع آخــرين في مركزاســتقبال اللاجئين،كامب, في فانتا قرب مطار هلسنكي، أعرف تفاصيل الحكايـة كلهـا، في عطلـة نهايـة الأسبوع يزورني خلال ليلتين صاخبتين أستعيد هويتي البايولوجية خلالها، نتواصل نصــيا خلال بقية أيام الأسبوع. أستمر هذا لمدة ثلاثة أشـهر، انتقل بعـدها للسـكن معي، صـار لديـه نسـخة مفتاح شـقتي نـوع اسـتوديو، غرفـة متوسـطة تتصل مباشرة بمطبخ وطرقة تقـود إلى الحمـام وخزانة ملابس في المـدخل، صـار صـديقا لي. عنـدما يـذهب ليـبيت مـع أصـدقائه يسـائلني جسدي عن لمسـته، أتسـاءل هـل هـذا إدمـان نوعا ما؟ ماذا لو... حتى رالف، كلـبي الهاسـكي الرمـادي الصـغير الـذي اعتـاد السـير معـه في المتنزة القريب ,رالف الكلب يشعر بما أشعر به أيضا.

ــ صباح الخير بايفي,سأذهب للركض قريبا من الملعب.قال مستعجلا.
ــــــ اوووو, اوكيييبه. ارد بتثائب ومط للكلمات بكسل.
كان صباحا مشرقا ومحرّضاً للتسكع، غسل سعد طبق إفطاره المفضل، بيضتين مقليتين ومربى كرز مع خبز توست أسمر وشاي بالحليب، يوم السبت، العطلة الحكومية، لكنه دوام رسمي منزلي، تنظيف السجاد، غسل الملابس، الاعتناء بنباتات الظل، تنظيف منزل رالف، الكلب، تزويد الثلاجة بطعام الأسبوع المقبل، تفاصيل مملة. قلت له: انتظر لماذا لا نهرب من المنزل ونخيم طوال اليوم في جزيرة، سوره ساري؟ أجاب: من سيكمل أمور المنزل بايفي؟ أنت مثل السياسيين يرحلون المسئوليات دائما إلى الغد، وعندما يأتي الغد، يقفزون بعيدا متنصلين كالضفادع. أمسك يداي وبدا بفركهما برفق، أراد تقبيلي ابتعدت، قلت: دماغي مشغول. نظر لي بحميمية: بايفي علينا أن نطفئ أدمغتنا قليلا عندما يعمل القلب.أتثائب"اووو..
ـــــ أشعر بكسل أنا الآخر الان،ربما عدوى،

متلازمة بايفي الكسولة... عقب مبتسما,نكش شعري دفعته برفق.

ـــــ ساد ساد، لا تكن سخيفا، سأذهب للتنزه وحدي، مع كلبي رالف، ربما سأثير إعجاب أحدهم سيغازلني، أو نسبح في البحيرة معا، ما رأيك؟. قلتها متراقصة كفتاة مراهقة.

ـــــ حسنا، حسنا فهمت، تستغلين غيرتي عليك، من ملابسك أو حتى من رالف، سآتي معك رغما عني.قال وهو يغير ملابسه للخروج.

أعددنا طعاما خفيفا، خلال طريقنا اشـــترى سـعد "سـايدر" ومكسـرات مملحــة وسـجائر، انطلقنا مع أغنيــة ماجنــة، حلقنــا من السـعادة، كنــا نــرقص بأكتافنــا المطوقــة بحـزام الأمــان، انقضى يوم ممتع، وعدنا بكسل أكبر ورغبــة في النوم، سـاد هــل سـتنام ببنطـال الجـنز؟ سـاد، ساد,

أجابني بشخير كاذب..

أتذكر كل ذلـك الآن كـإعلان تشـويقي على نت فلكس لفيلم لم يكتمـل إنتاجـه لانسـحاب البطل أو البطلة قبل تصوير مشـاهدها حسـب سيناريو ملفق أو سيناريو الحياة، ربمـا سـمعتم بمتلازمــة ســتوكهولم، هي ببســاطة تعــاطف الضحية مع الجاني، أيـا كـان الجـاني وأيـا كـان

حجم الجريمة، الأمر نسبي، حتى لو كانت أنــثى عاشقة تتعاطف مع مختطف قلبها الصغير.

“بذكرك كل ما تيجي لتغيّم..وجهك بيــذكّر بالخريف"

أتــذكرك، حــتى بعــد أن أنتهى كــل شــيء وتضببت كالمدن البعيدة، كنورس توارى خلف أشــرعة بيض، وأفقت من حلم بالكــاد أتــذكر تفاصــيله الصــغيرة.لكن فــيروزك مــا زالت تســكن، شــقتي مــا زال طعم لعابـك المـدخن ومـربى الكـرز في فمي، حـتى خشـونتك الـتي أحب لحظة الأورجازم، تمزق الكوندوم كل مـرة، جســدك المشــعر كحمــار وحشــي، حلمتــاك المختبئتان بين أدغال صدرك الــذي أتحسســه حيث تتدلى سلسلتك الفضية بحرف s، أنا من أهديتها لك، بينما أهديتني رائحة الذكورية فوق السرير، وسادتي وجسدي، كان عليـك أن تعيـد كل شيء لمكانــه قبلهــا، تعيـد ضـبط المصـنع قبل معرفتك، كلنا نكذب، حــتى خلال مــا نحن نكذب، اللغة، الأفكار، السـلوك ليس صـناعتنا، نحن آلات مجتمعة تؤدي مــا دربت عليــه، كلنــا روبوتات بشرية بفعل الحياة التي تتطلب ذلك، لكننا صادقون عندما نشعر، نحب بلا ســلطة أو

توجيــه أو تخطيــط، ســرا، علنــا، كمــا الجــوع والعطش والتنفس والـــذهاب إلى الحمـــام، بايلوجيا إذا لم نلبِ نداءها فإننا نموت حـتى لـو كنا ظاهريا أحياء.

هل تحاول أن تعيد سدادة الشمبانيا إلى عنق القنينة بعد أن فتحتها؟ لن يكون ذلك سهلا، أنت تفهم ما أقصد، هل أنا قوية لأقول أحبك، هل أنا ضعيفة لأقول ارحل، كم حقل سعادة سيحترق أمام عيني بينما أنت غيمة مضربة عن المطر، هل ما زلت تتصفح رسائلي اليك في الماسنجر، تبحث عن أرشيف علاقة كضرس مهزوز، مؤلم قلعه، ومؤلم أكثر بقاؤه..سألتني مرة في بار "همنغواي" وعيناك الليليتان تبتلعان كياني وصوتي، من أنت؟ أجبتك: أنا فتاة هلسنكية عادية. لكن، من أنت؟ سألتك أنا بدوري..

قلت إنك من مدينة أور التاريخية،مازحتك, هل تقصد أنك جئت مسافرا من الماضي عبر الزمن؟ هل التقيت النبي إبراهيم هناك؟ نقهقه نشرب معا، تشيرز، تشيزر، تنضم إلينا نينا، المجنونة، فتفسد مزاجك.

- ساد، أنت صيف قصير في شتاء اسكندنافي أفقي طويـل، أنت نخلـة مثلجـة الآن. هـه.يـرد بنظرة حانية .

- بايفي، أنت بحيرة باردة بينما أنا رجل يحــترق بجليدك الآن.

حدثته عني، أكملت دراستي الجامعية من سنتين وأنا أُحضر الآن للماجستير، أختص بعلم الاجتماع، عملت باحثة لمدة ثلاث سنوات قبل أن أحصل على عملي الحالي الذي يتطـابق مـع اختصاصي، أتناول غدائي في الواحدة ظهرا في مطعم قــريب، ينتهي عملي عــادة في الرابعة، أعـود متعبـة خصوصـا هـذه الأيـام، مـع موجـة اللاجئين التي وصلت إلى فنلندا حـديثا. مـا أن أصل حتى أسقط في محيط النوم إلى الأعماق، أستيقظ بعد ساعتين أذهب في بعض الأحيان إلى قاعــة تمــارين الرشــاقة "الجيم" أو أكتفي بالمشــي الشــمالي مــع رالــف، أُبحر في النت حتى أتثاءب كعلامة وصول إلى سـواحل النـوم، أندس في الفراش وأصدر شخيرا ورديا ناعما.

حدثني عن نفسـه،قـال انـه كـان شـرطيا، ساهم في اعتقـال رئيس ميليشـيا مغمـور في حينها، أصبح بعدها وزيرا في الحكومة العراقية، وبــدأ وقت تصــفية الحســابات. يقــول: ركلتُ

مؤخرته في أثناء الاعتقال، تــداول زملاءه ذلــك يوتيوبيــا في مقطــع مصــور بالهــاتف، كــانت لحظــة زهــو وتهــور، لكنهــا الآن كارثــة حقيقيــة بالنســبة لــه، هــرب إلى تركيــا، تعـرض مـنزلهم للحرق، دفعت عائلته غرامة مالية كبيرة حسب الاتفاقــات الاجتماعيــة، أو القبليــة، اســمها "فصل عشائري".. عبر البحر إلى أوروبــا وانتهى به الأمر في مطبخي، يقشر البصل بينما أقشــر أنــا البطاطــا، لا أحب الــدموع.. أو في ســريري يقشرني من ملابسي وأقشره، بينما يدير رالـف وجهه للجدار.

بدأت الحكاية بإلحاح نينا أن نسهر ليلتها، عدت من عملي في "كالاستما". تهبط عتمة ليل الجمعة منذ الرابعة عصرا، مؤكد فنحن في نوفمبر، عليّ أن أنام ساعتين، سأتثاءب بكسل لنصف ساعة عندما أصحو، ثم أستحم وأصفف شعري بساعتين، ستكون الساعة عندها تقارب التاسعة مساء سأصل إلى مركز هلسنكي في العاشرة تقريبا.. كانت نينا تنتظرني هناك عند أول الطابور، تتسرب موسيقى الدي جي من باب الديسكو كبخار ساونا، بينما تجمع بعض المراهقين في المقدمة يحاولون بدون جدوى الدخول، يصر الحارس الشخصي على طلب

هوياتهم ليتبين أعمارهم، لن تدخلوا إذا كنتم دون الثامنة عشرة۔
يشتمونه"سارتنا"(شيطان)، إلا أنه يبتسم وينسحب للداخل. بدت نينا غريبة الشكل ببنطال برتقالي تتهدل من جانبيه سلسلتان طويلتان وقميص بلا أكمام أخضر، بينما دبست شفتيها المصبوغتين بالأسود بأقراط وحلقات كما في أنفها، شعرها مربوط للأعلى مثل مخروط الآيس كريم، حضنتني ودخلنا في عتمة كهف حيث الأضواء حمر خافتة ورائحة الكحول القوية تتطاير مع موسيقى أغنية لسامبا رائجة. جلسنا على كرسي قريب من المرقص، بالكاد أسمعها أو حتى أراها كلما انبعث بخار بارد أبيض من حولنا، هل تشربين الآن؟! قلت:"لا. لاحقا". سكرت بسرعة,أزعجتني نينا، لا تخفي أنها تشتهي جسدي، تبالغ بالتحرش بي كلما أفرطت في الشرب، لكننا صديقتان، اعتدت هذا منها، بما أنني قبلت السهر معها وهي سكرانة سأقبل تصرفاتها، وأسامحها. تقول كل مرة أنها لا تعي ما تفعل، لست متأكدة، أخذت كأس ويسكي، أتحاشى المزيد،حتى لا ينتهي بي الأمر عارية من دون وعي على سرير نينا في شقتها..

انتبهت إليه من بعيد، يشبه رأسه منحوتـة للأسـكندر المقـدوني رأيتهـا مـرة، بملامح أكـثر شـرقية وفحولـة، لم أر مثلهـا من قبـل، مـزيج هيليسـتين عـربي، عينـان عميقتـان وشـاربان كثان يتوجان شفتين غليظتين، جسـد رياضـي ليس بالطويـــل وليس بالقصـــير. لأســـتمتع باللحظـة شـربت كأسـا أخـرى، بصـره مصـوب نحـوي، ونظراتـه تصـلني متقطعـة عـبر أثـير الأجساد المتراقصـة والمترنحـة بسـكر، ذهبت إليه متمايلة قليلا، مددت يـدي، بـايفي اسـمي بايفي. صافحني.. وهل أنت مهتم بالفتيـات أَم الصـبيان؟! سـألته، ضـم حاجبيـه باسـتغراب: سـؤال عـادي جـدا، مـا بـك، ربمـا غـريب على ثقافتك. لا أذكر مـا قـال لي.. راقصـني، شـربنا أكثر.

فعل الكحول تأثير كاسحة جليد بيننا، عض شـــفتي مـــرتين، أطلقت آهـــة، قلت: أنت تؤلمني. جذبني إلى جسـده أكـثر، تبادلنـا قبلـة بطيئة طويلـة على إيقـاع أغنيـة تـانغو، اختفت نينـا والآخـرون، ربمـا اصـطادتها فتـاة ليكملا السهرة في مسـكنها، دار رأسـي دورتين كـدت أقـع، كنت ثملـة ومهتاجـة جـدا، أوصـلني إلى مسـكني على مـا يبـدو. هـل تحب أن تقضـي

الليلة معي؟ انتهينا في الفـراش، سـقط رأسـه الســاخن كنــيزك بين فخــذي، مص حلمــتي اليمنى، فندت عني صـرخة خفيفـة لم توقفـه، أدخـل لسـانه في سـرتي ثم لعـق بين فخـذي، أتلمس ظهره المشعر الوعر كطريق جبلي، لعق خاصرتي كذلك، أثارني جـدا، كـان محترفـا في السرير كممثلي البورنو، لم أكن أتمـنى لهـذا أن ينتهي، ولكن..الأورجازم، نهاية العـرض اللذيـذ، تنهد بعدها بارتياح مسـتلقيا على ظهـره، يشـم شـعري الملقى على صـدره، شـبكت أصـابعي بأصابعه، كان مدخنا قديما، أثارني هـذا جنسـيا مرة أخرى، فحضـنته بقـوة، قلت لـه بفمـه، مـا اسمك، هل تقدر؟ لم يرد، كـان قـد نـام عميقـا كقاع بحيرة.

في اليوم التالي عرفت أن اسـمه "سـعد". قال إننا كنا ثملين، أتمنى إلا يجلب هذا مشكلة لأحدنا. أراقب انفعالاته، وجهه، هل أنا مجنونــة لأستضيف دبا في بيتي؟ كان جسـده المشـعر القوي البنية يبدو كذلك، مـاذا لـو ...؟ لا، لـدى إحساس بالأمان، أثق بحدسـي دائمـا، تـذكرت بصـورة مشوشــة، هيئــتي المترنحـة بسـبب السكر، اسـتعمل قمصـلته كمظلـة تقيـني من المطر، استأجر سيارة تاكسي وأوصلني لشقتي

ليلا، ربما كان سكرانَ لا يعي ما يفعــل، أو كــان لطيفــا بــوعي، في الحــالتين كــان "جنتلمانــاً"، أعجبني ذلك.

سعد...

أفقت في الثانيــة بعــد الظهــر، مــا زالت شــمس الشــتاء متكاســلة عن تدفئــة الأفــق وإنارتــه، وجــدتها تنــام في وضــع الجــنين وقــد دست مخــدة بين فخــذيها، مؤخرتهــا باتجــاهي بدت كحبتي فاصوليا بيضاء كبيرتين، اعتــدلت في جلستي، بحثت عن لباســي الــداخلي، كــان على الســرير بــالقرب مــني ملتصــقا بفخــذي، تحسســت الوســادة ملطخــة باللعــاب وأحمــر شفاه، عصرت رأسي كليمونة لآخر قطرة، أتذكر أنني راقصت فتاة في الديسكو بعدها... ذاكــرة من ضباب، يبدو أنني ضاجعتها، هذه الــتي أنــا في بيتها، أتمنى إلا يكون رد فعلها كما سمعت سابقا عن بعض الفنلنــديات تأخــذك لســريرها ليلا غــير أنهــا تتصــل صــباحا بــالبوليس بتهمــة الاغتصاب تحت تأثير الكحــول، يشــبعن متعــة مشتركة ثم يطالبن بتعويض بنات ال...، فركت عيني، أفاقت، ســألتني: هــل أنت ذاهب الآن، ما اسمك؟

قلت: اسمي سعد، سآخذ حماما وأغادر. سرت أمامها بقضيبي المنتصب طلبا للمزيد، لاحظت ذلك،حل بيننا صمت كغرباء في محطة، وكاننا لمن نتشارك سرير ووقت حميم في الليلة الماضية, كانت تشرب قهوة في المطبخ، جلست على المائدة بتراخ، نظرت إليّ. قالت ببطء من أثر الكحول المتبقي: اسمع هذا يحدث أو فلنقل حدث ليلة البارحة، أفترض أن كلينا ضاجع الآخر، بلا حب ولا تخطيط مسبق، بسبب الكحول وأشياء مثيرة في وقتها. استدارت مشيرة إلى جهاز تحضير القهوة، تستطيع أن تسكب لك، يوجد خبز أسمر وزبد إذا كنت جائعا، على كل حال، شكرا لاصطحابي للمنزل بتكسي، أستطيع أن أدفع نصف الأجرة لك لو رغبت، لنكن متعادلين.

قضمت شفتي السفلي، عادة سيئة عندما لا أجد ما أقول، شكرتها، سأشرب قهوة، وأنصرف، قلت بعفوية، ثم غيرت نبرة صوتي إلى تساؤل: هل يمكن أن نكون صديقين؟ هل لديك شريك، زوج؟ ركزت عينيها الخضراوين في وجهي، وأجابت: نعم، ممكن، أضفني لديك في الفيس بوك، بايفي التولين. استدركت: بالمناسبة أنت وسيم جدا، قالت

بنبرة شبق، لا يتوفر هذا في فنلندا، خليط غربي وشرقي هل أنت إسباني أو تركي؟ هل أحد والديك أوروبي؟! أجبت: لا. أو ربما نعم. من يعلم.. فقط الله واختبارات ناشيونال جيوغرافيك.. ابتسمت: طيب أنا جائعة هل تساعدني لنعمل موزريلا بالصويا، أنا نباتية بالغالب، رحبت بالفكرة، ما زال لدي بعض الانتصاب، طبخنا معا الموزريلا، أكلنا.. تحدثت عن العراق ومشاكله، قالت إنها تعرف كل شيء، فوجئتُ، استدرت ووضعت الأطباق المتسخة في حوض المغطس وأدرت صنبور المياه، انسكب الماء هادرا، تطاير خارج المغطس، وقفت خلفي، ملتصقة بي من الخلف، تظاهرت بتنشيف المياه المتناثرة على خزانة الصحون، صدرها يلهث كأرنبين هاربين. تصاعد الموقف أكثر عندما استدرت فاصبحنا ملتصقين من الأمام. آسفة.. قالت شفتاها المقاربتان لشفتي، أغمضت عينيها كمن تتوقع قبلة، مرت ثوان حرجة، هويت على رقبتها بشفتي، التحمنا مجددا، تصرفت بشبق وحرفية أكثر، جذبت قضيبي، مصته بلا رحمة، تجردت من ملابسها وامتطتني بينما أنا نائم على ظهري، أشد أشد، أكثر أكثر، كانت تصيح

مهتاجه، كم تأخر المطر على صحرائك، بايفي، ولكن الربيع جاء ولن يغادر تقويمك, ليلة ثانية إذن، تبادلنا اللعاب والمشاعر والذاكرة، وفي الصباح التالي قبلتها وهي نائمة وخرجت، متجها لكامب هوبرنتيا1 حيث اسكن.

أتشـارك الغرفـة 155 مـع أمـير الأفغـاني وسرمد ولطيف، ننتظر قرارات إقاماتنا، لطيف يعمل متطوعـا في دور رعايـة المسـنين، أمـير الأفغاني يجمع علبا من القمامة ويقايضـها في ماكنة التجميـع، سـرمد مهتم بالشـأن الثقـافي والسياسـي بسـبب خلفيتـه في العـراق، أنـا أتسكع كل عطلة نهايـة أسـبوع بحثـا عن الحب والجسد معـا. تواصـلنا أنـا وبـايفي بعـد ذلـك، علّقت وأعجبت بمنشـوراتها في الفيس بـوك، سهرنا طـويلا في الماسـنجر بدردشـات عاديـة، كيف حالك اليوم، ما الجديد، ذهبت بعـد ذلـك للأعمق. اعتدنا على السرير المشترك كـل ليلـة سبت وأحد، بعـد ثلاثـة أشـهر أو أكـثر، انتقلت للسكن معها، وجدت عملا بمساعدتها، تنظيف أرضـيات وحمامـات، ومـازلت أنتظـر قـراري بالإقامة من دائرة الهجرة.

بايفي...

عدت من العمل، آه نسيت شـراء مناديـل التواليت الورقية, VIITU..ألقيت كيس الأفوكادو والــبروكلي على مائـــدة المطبخ حيث ســـعد مسترخٍ على الكرسي، رأســه ملقى للــوراء قليلا وأذنـــاه متوثبتـــان لأغنيـــة عربيـــة بإيقاعـــات المنــدولين . لمســت أشــواك صــدره العــاري كحقل صبار، تأوه بخفة وارتجاف. آســفة، قلت. كانت يدي مبتلة وباردة بالنســبة لـدفـء صـدره المتسع كساحة عامة، كانت"فـيروزه" تتواصـل بإطلاق شـلالات صـوتها المـدهش من هاتفـه. جلســت أمامــه، كـان قـد حضـر لنفســه عشـاء خفيفا من الخبز الأسمر والتونة بـزيت الزيتــون وقطـع الباذنجـان المخلـل والطحينـة. قـال إنـه ينتظرني لنأكل معا.. شـكرا "هبيـبي"، سـرقت لقمـتين من طبقـه، أنـا ذاهبـة للنـوم، متعبـة، بتثاؤب أرد.

- هل تحتاجين لتدليك، أنا مستعد، قـال بمكـر لاعقا شفتيه.

أرد:لاbaby،لامزاج لدي, سينقلب التــدليك الى جنس .

صـحوت في نحـو السـابعة مسـاءا، سـعد يتراى لي من انفراجة باب الحمام عاريا, يشذب لحيته بأناة وهدوء أمام المرآة, التحقت به.

- حبيـبي إنهـا كثيفـة كسـجادة فارسـية، خطـر ببالي شيء, جنون صغير، تحك عانتي بلحيتـك حتى.. أنت تعرف، أقذف فوق شاربيك، انزعج، القى ماكنة الحلاقة.فاجأني تصـرفة كمـا فاجـأه طلبي ..

- أنت تهينينني هكذا، قال بعصبية.

- مـــاذا، هـــل أنت جـــاد، لم أقصـــد، أردفت باستغراب، هل تشكل اللحية حســب ثقافتــك قدسـية مـا, إنهـا شـعر لا أكـثر, مابـك؟ طالمـا قذفت على وجهي، لم أشعر بإهانــة، افهم هــذا الإحساس وجربه, أن يمنحك الآخر عصيره هــل فهمت قلت بحدة وانا ابتعد عنه.

- أنت من كـان يطلب هـذا، تـذكري، لم أقـترح عليـك هـذا. رد منزعجـا مغـادرا الحمـام. إذن فأنت تفكر كرجل؟ رجل شرقي بالتحديد، آسفة للتصنيف، قاطعني بانفعال: لا تفسـدي الليلـة بايفي، أنا رجـل.. شـرقي، بالتحديـد.. سـأذهب للتدخين. وخرج.

سعد...

قلت لها وأنا أفرك ظهرهـا المتصـلب من جلوسـها في العمـل: حبيبـتي، علي أن أذهب لمركــز اللاجــئين, الكــامب, الآن، اتصــلوا بي صباحا، هناك بريـد مهم لي، من دائـرة الهجـرة

ربما، تغيرت تعابير وجهها قليلا وكأنما تـذكرت شيئا، قالت: نعم نلتقي نهاية الأسبوع المقبـل. سأوصلك بسيارتي إلى فانتا.

أنزلتـــني في الباحـــة الأماميـــة لمبـــنى الكامب ، حضـنتني قبـل أن تغـادر، لاحـظ من كان في النوافذ المفتوحة، أطلق أحدهم صفيرا وتأوها ماجنـا، كـان هنـاك عشـرة لاجـئين على الأقل مجتمعين حـول موضـوع مـا، مفترشـين قطعـا كارتونيـة على الأسـفلت، بعضـهم كـان يدخن.. أمطروني بنظرات التسـاؤل، تجـاوزتهم مسرعا ملقيـا "السـلام عليكم" من دون انتظـار إجابـة. كـانت وجـوههم المحبطـة متعبـة من الرفض المتكرر لطلبات اللجـوء، قلت لنفســي الحال من بعضه. قابلت أكثم وليلى زوجته عند السلم، كانا على موعد مع "السوشيل"، الباحثة الاجتماعية، نادرا ما يكونا بـدون ابنتهمـا زهـراء ذات الخمس ســنوات, أردت أن أســالهما عن ذلك إلا أني استدركت وأكملت مسيري، عندما وصلت كان سرمد يستعد للخـروج، سـألته عن وجهته فقال بصوته الإذاعي العميق: "أكو ندوة ثقافية بكايسانيمي، إذا تحب تعال". تسـاءلت عن مضـمونها فأجـاب إنهـا تخص اللاجـئين وحقوق الإنسان، تنظمها منظمة العفو الدوليـة

بهلسنكي، قلت لـه: تتحـدث أنت باسـمنا، أنـا متعب، ونعسـان، دخـل في أثنـاء ذلـك أمـير: -"سلام أمير جه طوري؟ خوبه؟". كان هذا كل ما تعلمتـه من خلالـه من الفارسـية اولغـة الـداري كما تسـمى في أفعانسـتان، رد بلهجـة عراقيـة معززة بابتسامة.

-ـ "أنا زين شلونك أنت شكو مـاكو". أربت على كتفـه، سـألتهم عن لطيـف، فقـالوا إنـه مـازال يعمل في دار المسنين، لم يرجع بعـد "شـلونها بايفي؟" سألني سرمد بمكر, أجاب نفسه: راحة وأكل ومشروب.و..

خلال ذلـــك تعـــالى صـــياح من الطـــابق الأرضي، صوت تكسير زجاج وهياج مـوظفين.. هذا محمد هندية الملاكم تشاجر مـع الـوظفين وتـدخل الحـرس، لم يصـرفوا لـه معونـة هـذا الشهر، حصلت لديهم أخطاء في الحسـابات أو ببطاقة "الموني كارد" ناولني أمـير قـدح شـاي ساخن. شـربت وغطسـت في سـريري مطلقـا شخيرا ذا صفير.

قلت لها مرة: أنا لا أرتـاح لتصـرفات نينـا، تجاهلت ذلك، كانت قد دعتها لتسهر معنا في بار "همنغـواي" خلـف متحـف الأتيـنيوم، كـان الصـيف قـد جـاء سـاخنا على غـير العـادة في

فنلندا مما أغرى الكثيرين بـالخروج في نزهـات مفتوحة أو السفر، بينما اكتفى آخرون بتشـغيل أجهــزة التبريــد أو فتح النوافــذ جميعهــا ليلا، الحرارة تجاوزت الخمس والعشرين درجــة، إنــه الجحيم بعينه. قالت نينا وهي تصافحني بـبرود عند وصولها.

- "يقولــون في مجموعــات الفيس بــوك أن موجـة اللاجـئين السـاخنة مثـل سـعد هي من تسـببت في ذلـك"، وغمزتـني. لم تهتم بـايفي لذلك، بعد كأسين خرجنا للتسكع، تتغـابى نينـا بتصرفاتها وهي تؤدي دور السـكرانة، ضـربتني مـرة على مـؤخرتي، معلقــة: "واوو أجمـل من مــــؤخرة كيم كاردشـــــيان، آســـــفة". في المتــنزه ,تبــولت وهي واقفــة قــرب شــجرة، وعندما ضحكنا استدارت لنا وهي ترينــا كيــف, هكذا هههه، قفزنا مبتعدين عنها، تترنح وتطلق نكات جنسـية وغـازات بصـوت عـال. قبـل أن نودعها لـتركب البـاص إلى شـقتها القريبـة من مركــز المدينــة، في روهــا لهــتي، حضــنتني ثم حضنت بـايفي, عضـت شـفتها السـفلى وهي تقبلهــا، أحرجتهــا، أبعــدتها بلطــف وابتســامة متكلفة.

-"كم هي سـخيفة, سأضـربها إن فعلت ذلـك مجددا". قلت مع نفسي.
- هـل انـزعجت, إنهـا سـكرانة. قـالت بـايفي, أردفت: "أو تمثـل ذلـك لتقـترب مـني, هي تتعشقني جدا منـذ مـدة طويلـة، قلت لهـا أنـا لسـت سـحاقية، وعـدتني بـأن لا تزعجـني مـا دامت بوعيهـا". "مـاذا؟" صـرخت بوجههـا, أردفت: "لماذا تتقبلين ذلك، أقصـد صـداقتها وأنت تعرفين أنهـا تريـد أكـثر من ذلـك؟" ردت بعيـنين تشـعان دفئـا وبـراءة: "هي ذاكـرتي المدرسية وصديقتي الوحيدة، سعد انس الأمـر أنا أحبك".

بايفي...

في الصـباح، وقبـل أن أذهب إلى عملي، تناولت أحمر الشفاه، كتبت فوق ظهره العـاري بالإنكليزية – من منا ابتكر الآخر– جملـة شـعرية لبول إيلوار تعلمتها في كورس اللغة الفرنسـية. اسـتدار وقرأهـا بـالمرآة، قبلـني، ودخـل للاسـتحمام. "لا تغسـلها صـحت وراءه". لم يسـمعني تحت ضـجيج تـدفق الميـاه، دخلت المطبخ، سخنت قطعـتي خـبز حـد التحميص، أحبهـا هكـذا مـع الزبـدة وكـوب القهـوة، أقـول لنفسي: لقـد جـاء في الـوقت المناسـب، بعـد

شـتاء واحـد فقـط، سيسـاعدني ذلـك لأنسـى "اكي", البوي فرند السابق. أذكر ذلـك الصـباح، عندما خـرج اكي خـرج بهـدوء من دون وداع، أو أحضـان حميميـة، ولكي لا أصـحو تـرك بـاب الشـقة نصـف مفتـوح، كالفتحـة الولاديـة في القلب، كـان واقعيـا، حـادا كمشـرط جـراح في دماغ، أرسل لي بعد أيام رسالة نصية: "آسـف، هكذا أفضل بلا دراما، أتمـنى لـك حظـا أوفـر". كنت طيبـة معـه، ومـع الجميـع، لـذا كافـأتني السماء بسعد. تذكرت أمي، سنكا، ربما بسبب صلواتها لي في قداسات يـوم الأحـد، سـأزورها في نهاية الأسـبوع، سـأعرفها على سـعد، ربمـا تغير وجهة نظرها بالقادمين إلى فنلندا. علمـني بعض المفـردات العراقيـة، علمتـه العاميـة الفنلندية، وبعض الشتائم السـوقية، كمـا يحب متعلمو اللغات أن يبدأوا. أنـا بخـير الآن، أشـعر بأشـرطة الشـمس الصـفراء تـدخل عـالمي من جديد، وأن ميـاه الوحـدة لم تعـد تنضـح داخـل قاربي المثقوب، لكن الهاجس يعـود كـل مـرة، يـدعوني لشـيء، كـان يجب أن أقولـه، كنت أماطل، ربما خفت أن أخسره، أو يخسرني، في طيات الحياة، غبـار خصوصـيات نحـرص أن لا يطـير، نمـارس بعض الخـدع والاختبـاءات

الصــغيرة، خلــف الســتائر الســميكة، أو بين سـيقان الظـل، الضـوء، لتسـتمر آلـة الدهشـة والحميمية بالعمـل بأقصـى طاقتهـا، حـتى لـو كلفنا ذلك عطبها سريعا,سـريعا جـدا, كمـا كـل شئء, بسبب.. الأنانية؟ الإيجو؟ ربما, قرأت عن ذلـك, يمـوت الإيجـو عنـد مـا نصـل إلى درجـة الوعي 500, أقصد نتخفف عندها من ثقل أناتنـا لهذا نحلق بسعادة وخفة, لكن هـذا لن يحصـل طقـق هكـذا, هـذا تـدريب تامـل نفسـي عـال, بـوذي أو صـوفي لا أعلم, مـا أعلمـه أني أحب سـعدًا يومـا بعـد يـوم, أعتـاد على مفترقاتنـا الحياتية والثقافية, سيكمل هذا السـاخن لوحـة البزل في قلبي, أصلي أن يتكيف ليتطابق مــع أجزاء الرقعة, البزل, أنا,الحياة.

سعد...

أصـــرت على أن أقابـــل والـــدتها في دار المســنين، ذهبنــا بعــد الظهــر، تقــع الــدار في هرتونيما، مبنى مكون من أربع طبقات بواجهـة سـيراميكية زرقـاء، تحيـط بـه مسـاحة خضـراء وشجيرات، تجلس بعض النسوة المسنات عند المدخل، يتبـادلن الأحـاديث وأعقـاب السـكائر بالنسبة للمدخنات. لمحت لطيفا هناك حييتـه من بعيـد لم ينتبـه لي، كـان يهم بـالخروج عنـد

نهاية عمله، كان هناك مع رجل مسن بكرسي متحرك يدخن قرب شجرة ويطفىء أعقاب سكائره بجذعها. ليس بعيدا جلستْ نساء بشعر أبيض ناصع قصير يتبادلن الأحاديث، انتبهت إحداهن إلينا، حيتها بايفي، ربما قريبتها، أو صديقة قديمة لوالدتها. تذكرت الآن حكاياته عن مبنى المسنين، دخلنا إلى غرفتها، كنت أمر ضمن صف من الغرف زودت كل واحدة بصندوق بريد قرب الباب، تتجاور الغرف في ممر مزين بلوحات زيتية رخيصة ينتهي عند المصعد. كانت غرفتها نظيفة ومعطرة، أغلب محتوياتها باللون الأبيض، الشراشف، الستائر، الكراسي، ماما تحب الأبيض، أوضحت لي بايفي لاحقا، بينما التصق صليب خشبي بطول متر تقريبا في الجدار الموازي لسريرها: "ماما، هذا صديقي سعد". صافحتها: "اسمي سنكا، سنكا التونين". قفز اسمها إلى رأسي كعفريت العلبة، آه تذكرت طالما تحدث لطيف عن سنكا "ما" يقوم بخدمتها، المرأة المتدينة جدا، وبما أنه يعمل هنا فمنطقيا أن تكون هي. إنها امامي الآن كما وصفها، حادة تقليدية ومتحسسة من الأجانب، كم هي صغيرة هلسنكي هذه، كصحن كوب شاي.

تحدثت مـع ابنتهـا بـايفي بالفنلنديـة، دفعـني الفضول لأعـرف مـا تقـول، اسـتعنت بتطـبيق كوكول بالترجمة الصوتية، جاءت الترجمة رديئة لكنهـا قريبـة ممـا يـدور، سـألت ابنتهـا: "هـل تثقين به!؟ هـل تحبينـه؟ يبـدو سـاخنا جنسـيا، هـل أنت معـه لهـذا فقـط، هـل هـو قضـيبه مختــون كــاليهود؟".. كــانت بــايفي تبتســم، وتجيب بطريقة تثير فضول سنكا أكـثر، قـالت لأمها: "أنا أحبه وهذا يكفي، مامـا أنت مؤمنـة، البشارة في الكتاب المقدس تقول أحبـوا حـتى أعـداءكم، سـعد ليس عـدوي على الأقـل". مـر الـوقت رتيبـا، حـاولت أن أحضـن سـنكا ونحن نغادر، لأجل بايفي على الأقل، تملصت مني إلا أنها قالت بإنكليزية جيـدة: "اعتنِ بـابنتي، إنهـا تحبـك، هـذا كثـير عليـك، ولكن فلنقـل أنـك محظوظ، سأصلي للرب يسوع لأجلكما". خرجنا كأنمـا من غرفـة عمليـات جراحيـة، كـل شـيء يـذكرني بالمستشـفى، شـكل ورائحـة المكـان، المطهـرات، أشـفقت على من يسـكنون هنـا، على الرغم من أن المكان لا يختلف بـل أفضـل من مركز إيواء اللاجئين الـذي أسـكن فيـه، لكن سكني يغمره الشعور بالألفة والإحساس كما لو أنـك ضـمن عائلـة دوليـة كبـيرة، هنـا يـدفعون

للموظفين كي يمثلوا العاطفـة والشـفقة كـأداء جاف وتجـاري، ربمـا لطيـف يفعـل ذلـك بحكم نشـأتنا الشـرقية العاطفيـة تجـاه كبـار السـن واعتبار أي واحد منهم بمنزلة جدك أو جدتك.

هــل تــأتي معي إلى الشــقة، أم أوصــلك لسكنك, الكامب؟" سألت وهي تقود ســيارتها قرب مفترق طرق.

استمرت علاقتي بها لسـنة ثلجيـة تقريبـا، أقول هـذا الآن بينمـا هي تمسـك كفي البـاردة الموصولة بحقنـة المغـذي وتعصـره، متجاهلـة طلب الممرضة بإن لا تفعـل ذلـك، وأن تخـرج الآن، لست بحاجـة للـوعي لأحس بـذلك، ثمـة كيــان هلامي آخــر يعمــل داخلي الآن، فتحت عيني نصف ملم ,بـرغم التخـدير الـذي لم ينتـه مفعولـه بعـد العمليـة، رأيتهـا باكيـة، هـل هـذا يعـني شـيئا؟، تحبـني؟ لا. لـو عـاد بهـا الأمـر سـتفعل مــا فعلت مجــددا.. هنــاك عــدة شخصــيات تتصــارع داخــل بــايفي، دمجت كصورة HD للاعتداد النسوي بـالنفس, كهرمـون وليس فكـرة، كنت أول غـير مختص أكتشـف ذلك، إذن الحكاية مدورة، كل ما عملته هو أنني قفزت خارج هذه الدائرة، أشفقت على نفسـي،

وعليهــا، كــانت نســقا ونســخة من مصــنع روبوتات نسوية تجاوز بدائية العاطفة.

ســألتها مــرة: "هــل تؤمــنين بــالحب؟" أجــابت: "نعم. ولكن كــامرأة مســتقلة قويــة لا تخـدعها الكلمـات، أنـا مـا أنـا, كمـا غـيري من فتيات هلسنكي، عندما كنا في الثانوية، نتفــق للخــروج إلى المــراقص ليلا، نقــول لبعضــنا، فلنضــاجع بعض الفتيــان الليلــة، كنــا نفعلهــا بحمــاس, نســيطر في الســرير عنــدما نجــدهم مغمضــي الأعين وممــددين كالوســائد، هــل يحصــل لــديكم هــذا في ثقــافتكم؟ أقصــد أن تسيطر الفتاة وتتباهى بذلك أمام صديقاتها في اليوم التالي؟" أجبتهـا: "لم أسـمع عن هـذا في مجتمعاتنــا، في الغــالب الرجــال من يفعلــون هذا، على أية حال دعينــا نحن الإثــنين نعصــب أعيننـــــا ونتبــــع الحب، الحب فقــــط. نحن متساويان بالفعل ورد الفعل في السرير".بمكــر ومزاح تلكزني بمرفقها.

- ربما تزيح عصابة عينيك في وسط الطريق, لا أمان للرجال، ههه.

تركت محل إقامتي وسكنت معها، أستلم من دائـرة الهجـرة شـهريا ثلاثمئـة يـورو تقريبـا كمعونة تأتي عن طريـق مركـز إيـواء اللاجـئين،

كـــانت لا تكفي لشـــراء الســـجائر والطعـــام والفودكـا، ازدادت تكـاليف المعيشـة، لم يعـد الأمر شايا وسجائر فقط كمـا في السـابق حيث يوفر المركز الطعام بثلاث وجبات هزيلة يوميــا، لــذا عملت بــالتنظيف، كعشــرات البنغــاليين والأفارقة الذين جاءوا لغرض الدراسة العليا، ثم اكتفــوا بإقامــات العمــل، تــاركين شــهاداتهم الجامعيــة في الحقــائب المغلقــة، أقــود عربــة تكنس أرضــيات الفنــادق والمبــاني الفخمــة. مازلت بلا أوراق وأنتظر مقابلة قريبا، كــان عليّ أن أنزه "رالف" أربـع مـرات في الأسـبوع، أغـير حوض الرمل حيث فضلاته وأضع له طعاما كل يوم، كان عليّ أن أعتني بنباتات بـايفي الظليــة كذلك، وبأمور شراء الطعام، كانت نباتية إلا أنها اســتثنت الســمك، خاصــة الــذي أطبخــه لهــا، بصلصــة الطمــاطم والثــوم، تعــود من عملهــا، الذي اتفقنا أن لا أسالها عنه، في الرابعــة، تنــام لتصحو في السادسة، تذهب لمركز الرشــاقة أو تنهي مشــاويرها الأخــرى، لقـــاء صــديقات أو حضــور مناســبات اجتماعيــة أو حــتى فنيــة، تســوق، وغيرهـــا، لم أكن أنضــم إليهـــا مـــع أصدقائها، تكفيني هي من العالم.

لكن في ثانية، انهارت كل ستائر المسـرح. ظهر الممثلون الحقيقيـون بملابسـهم العاديـة، بلا مكياج، يتنقلون على المسرح قبـل العـرض. حـدث هـذا عنـدما رأيتهـا مصـادفة في دائـرة الهجرة، أخذتني قدماي القلقتان هنـاك لأعـرف العنوان قبـل يـوم، دخلت، صـرنا وجهـا لوجـه. قالت: "ألم تخبرني أن مقابلتك غدا؟". صـمت وأنــا منــدهش، أجبت، بــبرود، شــاردا: "جئت لأتاكد من العنوان". استدارت لتذهب.. "بايفي لماذا لم تخبريني؟". صحت بها بصوت انتبه له الحــراس فــاقتربوا منــا، قــالت لهم بالفنلنديـة شيئا جعلهم يعودون لأماكنهم.. "حســنا ســعد، لم أخبرك، ليس هذا مكــان ولا زمــان مناســب للنقــاش، أراك لاحقــا" وهمت بالــدخول إلى إحدى الغرف.. "لا". قلت لهـا "لا أعتقـد ذلـك، ســأغادر اليــوم إلى مركــز اللاجــئين، خــذي".. وألقيت عليها مفتاح الشـقة. تلقفتـه بعصـبية، زمت شــفتيها لتقــول شــيئا لكنهــا صــمتت، دخلت غرفتها وأغلقت وراءها الباب.

اتصلت بي كثيرا، بعدد مكالمـات الصـين في اليــوم الواحــد، لم أجب. تــركت لي رســالة صـوتية: "حبيـبي سـعد آسـفة، كنت مضـطرة لــذلك، إذا كنت تحبــني ســتتفهم الأمــر، أنــا

محققــة في دائــرة الهجــرة، دفعــوا لي ملفــك لأقرر، واعتذرت عن ذلك، لن أكون موضــوعية، وهذا غير مسموح به، سيكتشفون ذلك لاحقــا، حتى لو كانت قضيتك حقيقية وتستحق عليهــا اللجوء فســيلغى إذا عرفــوا بعلاقتنــا، كـذلك لم أكن أرغب أن تعتمـــد علي، حـــتى لـــو كـــانت قضـــيتك حقيقيـــة، وكنت صـــادقا وتســـتحق الحمايـة، صـدقني كـانت مخاوفـك سـتدفعك لطلب مســـاعدتي، بينمـــا أنـــا أحبـــك، كنت سأستجيب، وستخسر أنت مصداقيتك لـديهم لاحقــا، بعــد ســنة أو اثنــتين، طالمــا أنت معي فهذا ضدك وليس بجانبك، إنها مفارقــة، لعبــة القــدر، أنت أهم مــا لــدي الآن، وغــدا ومهمــا حصـل، بعـد أن عـرفت عملي عليّ أن أخـبرهم بذلك، أو أترك العمل، أنا خــارج الوظيفــة أنفــع لك من داخلها، لا تتصرف كطفل اترك الكامب وتعـال، أنـا بحاجـة إليـك سـعد. بالمناسـبة أنـا حامل، منك، أحبك، حبيبي".

دون وعي, أفتح النافـــــــــــذة, أدخن في المطبخ, أقاوم ابتسامة, سعد كـان يفعـل هـذا, صوت المطر يتســارع في الخــارج كلهــاث قلب في نشـــوة متصـــاعدة, فـــيروز تغـــني فتمنـــع الإحساس بالزمن, تنـوم مغناطيســا, أو صـوتيا,

تفعـل ذلـك على مهـل كطفـل يطيـل مضـغ الكاندي في فمه ليستمتع أكثر.

"بديت القصة تحت الشتي في أول شتي حبوا بعضن

خلصت القصة بتاني شتي تركوا بعضن

حبو

تركو

بعضن"...

الفصـــــــل الثالث

(تقشير الفستق)

ركع شمس على ركبتيه أمام جلال الدين المهرب، عند المنحدر الصخري، ران بينهما صمت، جفت حنجرة شمس من العطش والتوسل، دخن جلال الدين سيجارة أفيون قندهاري ممتاز، قال بنبرة أبوية حانية: - "هل أتممت التشهد، ليغفر الله لي ما سيحصل بني؟ لا تلعني بقلبك الطاهر فيسمعك الله".

انطفأت عينا شمس منذ تلك اللحظة، تبول على نفسه مكونا بركة صغيرة تحت قدميه، هدأ كل شيء، الكون، الطير المحلق، الريح.. امتد الهدوء للحظات، صوت صدى إطلاقة بين صخور الجبال المحيطة يصم الآذان، تدفق دم غزير حار هابطا من رأس مثقوب ممتزجا مع بركة البول بينما اختلجت ساقان غليظتان رفستا في الهواء والتراب، ثبتهما جلال الدين بقدميه واقفا فسكنتا. رجع جلال الدين إلى بقية المجموعة، تفحصنا بهدوء، ألقى بحقيبة شمس في الوادي، تدحرجت حاجياته، الكلوجة وقطع الجبن والطماطم وخبز (النان)، كان قد ادخرها ليأكلها لاحقا. بلهجة آمرة صاح بنا:

- فلنصلِّ عليه صلاة الميت قبل أن ننطلـق إلى الحدود الإيرانية، فقرأنا بخشوع، الفاتحة.

ما أن وصلنا فجرا من شمال فنلندا إلى جنوبها، فانتا، ضاحية على مشارف العاصمة هلسنكي، بواسطة الباصات، حتى وزعونا عشوائيا على مراكز الاستقبال، صار أصدقائي في مبنى اوروما القريب ، بينما أُخِذت لمبنى هوبرنتيا1. هناك اقتادني كونستا، الموظف المرشد، إلى الغرفة 155، صعدنا إلى الطابق الرابع. بإنكليزية مشبعة بلكنة فنلندية تقلب الشين سينا قال:
"will show you"

زودونا بمناشـف جديـدة وشراشـف بينمـا احتفظـوا بوثيقـة بصـمة شـنغن الـتي حصـلنا عليها في يوم دخولنا فنلندا عبر السويد.

يقع المبنى قرب مطار هلسنكي، في فانتا،كان المبنى من أربعة طوابق, منبطح ، بجانبين أيمن وأيسر، بينهما ممر من طبقة أرضية واحدة يحتوي على غرف الإدارة والاستعلامات والمدخل الرئيسي،طلبت من كونستا:

ـــ أريد أن أكون مع أفغان أنا لا أتكلم العربية ولا الكردية، ولن تسير الأمور بسهولة معي.

رد بسرعة متشاغلا بالاتصال عن طريق الهوكي توكي .

ـ هذه الغرفة الوحيدة المتاحة الآن,تستطيع تغييرها بعد مدة بالاتفاق مع أصدقاء آخرين.

تركني وغادر متعجلا إلى جهة ما، كان الوضع مربكا، الآلاف من اللاجئين يصلون تباعا أوقد وصلوا بالفعل، بينما لا توجد خطة حقيقية لاستيعاب هذه الموجة الاجتياحية، يبدو التخبط والارتجال واضحا، عشرة موظفين سيكونون مسئولين عن ألف إنسان بينما ليس لديهم سوى ثلاثة حمامات وأربعة مرافق صحية لا غير، ليس لديهم ممرضة ولا مطبخ، ولا كاميرات مراقبة في المبنى، ليس لديهم خبرة بالتعامل، استعانوا بمترجمين لا يجيدون فهم اللهجة المحكية للاجئين، أضف أن لغتهم الفنلندية ضعيفة في الأساس لذا يضطرون لحشر كلماتهم الخاصة مسببين إرباكا في المعنى للطرفين. سيستمر الأمر طويلا، سيقع ألف شجار وشجار بين الإدارة والنزلاء.

في الغرفة التي اختيرت لي عشوائيا وجدت ثلاثة أشخاص، احتل اثنان سريرا حديديا من طابقين بينما استلقى الثالث على سرير قابل للزيادة، بتثبيت سرير فوقه ليماثل

بقية الأسرّة هنا وفي جميع الغرف، كان عليّ أن أنـــام في الأعلى. شــعرت بضـــيق، ســـأحتاج للإنكليزية لأتفـاهم مـع هـؤلاء العراقـيين، لـديّ كلمـات عربيـة لا تصـلح لنصـف جملـة، لكنهم رحبوا بي جيدا، كانوا ودودين، هذا مشجع لحـــد ما، إنها مرحلة انتقالية، لبضـعة شـهور أو حـتى سنة للحصـول على حـق الإقامـة والسـكن في شقة منفردة لاحقا.

تقع الغرفة155 في الطابق الثـالث، تطـل على مـــدخل المبـــنى بنافـــذة من ثلاثـــة أمتـــار مربعة، كنت خجولا، اسـتغرق الأمـر أسـبوعين لأعتاد عليهم، متحسسا، مشوشا، وعلى الأكـــثر كنت قلقـا. صـار لزامـا عليّ أن أفعّـل خاصـية التـأقلم، كـانوا مـرنين واجتمـاعيين، لن أكـون مربعـا حـاد الزوايـا مـع ثلاث دوائـر، في غرفـة ضـيقة واحـدة، حصـل ذلـك بسلاسـة.لطيـف، نصف طبيب عراقي، صافحني بحرارة، بـدا في أواسط الثلاثينيات، فارع الطول بمسـحة حـزن غير مرئي، لمست ذلك لاحقـا، مـروان، شـاب في العشـرين، مـرح لديـه قصـة شـعر غريبـة بخصلات صـبغ برتقاليـة، أسـاور واكسسـوارت شبابية، يدندن في العادة بألحان لجستن بيـــبر، وإنريكه إكليسياس وريكي مارتن.

سعد، يمتلك كتفي رباع وقامـة كمئذنـة، ملتحٍ قليلا، هـــادئ وعميـــق النظــرات، ربمـــا في الخامسة والثلاثين أو أكبر.

- مرحبـا، أنـا سـرمد، قـال بالفارسـية، بصـوت عميق، استغربت، كيف؟

- أنا أتكلم خمس لغات عزيزي، لا تشغل بالـك، أمامك الكثير لتفكر فيه غير سرمد.

وابتسم لثوان ثم عاد وجهه لجديته، كاريزما عالية، بشعر أبيض، في الخمسـينيات، نظارتـه تبـدو جـزءا من معمـار وجهـه، لاحقـا، سـيكون أقربهم إليّ.

- أنا أمير غزنوي، أفغاني..

صاح لطيف: "أهلا أهلا، حشيشتنا صارت مجانية."

قهقه الجميع للمزحـة، ترجمهـا لي سـرمد، ابتسمت متضايقا ومجاملا، أجبت:

- ليس كل أفغاني تاجر حشيش.

صمتوا قليلا، كإعتذار، ثم عادت الأحـاديث العادية، عن الطريـق إلى فنلنـدا، دائـرة الهجـرة والمشاكل السياسية في العراق.

أجلس قرب النافذة، مر الخريف مسـتنفدا كـــل صـــفرته من ورق الشـــجر الـــذي يغطي الطرقـات بفوضـى، جـاء أول شـتاء، تهيأنـا لـه

كعدو حذرنا منه الآخـرون الـذين يعيشـون هنـا منــذ ســنوات، ســيتجمد الــدم في قلــوبكم، ستتنفسون هواء ببرودة سالب عشرين مئويـة، رئاتكم سـتتوقف، نصـال الـبرد تصـل للعظم، من دفعكم لفنلندا؟ لماذا لا تفكرون بالعودة؟

نشــترك أنــا وســرمد بالفارســية، لطيــف وســرمد يشــتركان بالشــخير المرتفــع، ســعد ولطيــف يشــتركان بالتــدخين، مــروان وســعد يشتركان بعشـق الفودكـا، الرخيصـة بالتحديـد، لطيــف ومــروان يشــتركان ببغـداديتهما وربمــا بالطائفــة، ســعد وســرمد يشــتركان بلهجتهمــا الجنوبية العراقية، بينما نشترك بالشاي والسكر وتنظيف الغرفة جميعا.

منحنا أول تسعين يورو مساعدات شهرية، احتفل كل منا على طريقته، فودكا، وجبة كباب في مطـاعم ايتـا كسـكوس الشـرقية، بنطلـون جديـد، نظـارات وهيـدفون جديـد، انفـرد سـعد باحتفاليتــه، ذهـب لمحـال المسـاج التايلنـدي، دفع خمسين يورو إضافية ليمارس الجنس مـع المدلكــــــــــــــــــــــــــــــة.

انتهى المبلــغ ســريعا، عــدنا لواقــع الطعــام النصف نيء، الرز المتصلب، اللحم البقري غـير المسلوق جيدا، شوربة العـدس حلـوة المـذاق،

سوء إعداد واضح من الطباخ ومساعداه،شـكونا كثيرا ولم نحصـل على إجابـة. - لمـاذا أنتم غـير راضـين؟ هنـاك من السـوريين الان من يأكـل العشـب وهـو محاصـر في ريـف حلب, اليس حالكم احسن منهم هنا في فنلندا؟.

قـــال ميكـــا مـــدير المركـــز ذو الأصـــول الإسـتونية في اجتمـاع عـام في قاعـة الطعـام، هاج الجميع، تدخل الحـرس الأمـني للسـيطرة، في لحظة غضب صاح ميكا: "هـذا مركـز إيـواء اللاجئين وليس فندق هيلتون".

في الرابعة عصرا يبدأ العشاء ويمتد حتى السابعة، في ليلة شتائية طويلة يشتد الجوع بنا، نتقاسم خبز التوست المتيبس، نطريه بالشاي مرة، وبأحاديث العابرة مرات أخرى، نتبادل الأحلام، سيكون لنا سكن ومدرسة عمل، إذا حصلنا على الإقامة "إن شاء الله". بعد مدة وجد لي كونستا غرفة مع شركاء آخرين، قال إنهم إيرانيون ولن تعاني من مسألة اللغة، كانوا من كرد كرمنشاه وايلام غرب.

- سأبقى في الغرفة 155 مع الأصدقاء العراقيين. شكرا كونستا.

حك بأصابعه صلعته البيضاء المذهبة بزغب أشقر، بدأ في حيرة:

-أنت من طلب ذلك،أتذكر؟ على كل حال كما تحب.

بعد ثلاثة شهور من وصولنا,أخذني تكسي مؤجر للكامب إلى مركز شرطة تيكوريلا، أخذت بصمتي مجددا مع توقيعي، حرر لي طلب اللجوء الرسمي هناك والذي سيعتمد في مقابلة دائرة الهجرة، تمضي الأيام ببطء بين هدوء وضجر وبين مشاكل وعراك وصراخ ودم يملأ الأرضية، وأسنان تقلع بقبضات خشنة. استعان بعضهم بالصبر وبالله وبالانتظار وبالحلم وبالكحول والحشيشة، التوتر النفسي كان كقدر ضغط إذا تركته ينفجر، أو يثور إذا فتحته في وجهك. سجل الألف العراقيين عودة طوعية، بينما اختفى بعضهم هاربا إلى دول أوروبية أخرى.

كان سعد يصلي متقطعا، بينما واظب لطيف على صلاته، أنا وسرمد لا نصلي، جاء أول شهر رمضان، صام لطيف, اكتفى سعد بأول خمسة أيام متعللا" أذا أبقي عشرين ساعة من دون تدخين، أجن".

كانت قاعة الطعام تعج بثمانمائـة شـخص كلهم مرة واحدة، لم تكفِ الكراسي ولا الموائـد، افترشنا أكياس القمامة السود وجلسنا للإفطار،

لم يكن الجميــع صــياما، قســمونا بكارتــات، المفطر أصفر والصائم أخضر، صاحب البطاقــة الصفراء يتناول ثلاث وجبات الاعتياديـة إلا أنـه لا يحـق لـه وجبـة الإفطـار في الحاديـة عشـرة مســاء. لم يلــتزم أحــد بــذلك، كــانت فرصــة للشباب ليشبعوا، بتناول أربع وجبات، مر ذلـك سريعا، كزمن لعبة الموسـيقى ذات الأسـطوانة المدببة والكوك الـذي تـديره فتسـتمع نغمـات تمر كنسمات سريعة.

مرة شـاهدت جارنـا في الغرفـة الملاصـقة [154] تاج الدين الصومالي ممتعضا جـدا، سـألته عن السبب، فأجاب:

- صوّت البرلمان الفنلندي على قرار إيقاف منح أي إقامــة إنســانية، عشــرون ألفــا على الأقــل سيرفضون بسبب هذا القرار، الأمـور أصـبحت صعبة للغاية، أوراق الإقامة صارت حلما فقط.

حصل هذا في تموز 2016، كان الصيف أخضر ويانعا في الغابات الفنلندية، بينما تتزجج البحيرات المحيطة بنا بصفحات زرق مدهشة تحت سماء مشمسة صالحة للتفاؤل برغم كل شيء، ليحصل ما يقدر الله، قلت لنفسي، كل قلق هو أرضية قاتلة للحلم والجسد.

استهللك خامة الوقت الفضفاضة في مراقبة الطائرات المقلعة و التي تهم بالهبوط، أتخيل قصصا وأشخاصا على متنها الآن وأقارنهم بما نحن عليه، لا أوراق ولا حق لنا بالسفر، الطائرة حرية، أتذكر الطائرات الورقية التي تغطي غزني وعدَّائيها، حيث تصير السماء ملونة، كل طائرة ورقية فراشة تدور حول نفسها وحول الأخريات.

يبدو سرمد متحمسا للكتابة عن كل من يقابله من اللاجئين، خرج الصحفي الذي في داخله، لذلك جهز دفترا بغلاف أسود سميك من مئتي صفحة، كتب في أولها في حكايتي, سالته "هل أبدأ الحديث؟"

رد سرمد: "نعم ، بعد أن تشرب شايك. طبعا، سيبرد إذا تركته هنا وعدتَ بالذاكرة إلى أفغانستانك, حسنا فلنبدأ المسرد الغزنوي، طريق الشوك والحرير,ابدأ أمير حكايتك .

" في مساء آخر يومٍ من شهر القوس، وعلى غير المعتاد في هذا الوقت من السنة الأفغانية، أمطرت بغزارة، سرت مختبئا تحت أشجار الفستق، كانت الخضرة متوهجة كحشرات مضيئة، كان المساء طريا ويتقشر بنسمة هواء، له رائحة آسرة كرائحة السعادة، تجذبني فأسير للأعلى، عبر سماوات مدينتي

غزني، أراها بعين طائر البـاز المتهـيئ للرحيـل، أرى أزقتها ومناراتها وأبراجها القديمـة النجميـة الشكل، أرى أخي "ماشـالله" يتقلب في نومـه وابتسامة سـاذجة تمـط شـفتيه، بينمـا تنهض عمتي نيلـوفر لتسـاعد جـدتي بهشـت العميـاء على الوضوء للصلاة فجـرا، تعـود عمـتي للنـوم بـدون أن تشـاركها الصـلاة، أرى أصـدقائي محسـني، كـريمي، ناصـر زادة، آغـا جـان، أرى الوجوه الهازارية الحزينة دائما تتقاطع مع وجـوه الباشـتو القاسـية، أرتفـع أكـثر كلمـا حـاولت الهبـوط، صـرت في حقـل معلـق من نغمـات النايـات المنبعثـة من لا مكـان، بينمـا سـديم الفسـتق المتطـاير يحيلـني إلى مجـرة متقـدة، أترك رأسي على وسادتي وأُسـرع بلا رأس نحـو مدن غرب الأرض التي لا تنام ولذا لا تحلم.

صـوت مولانـاالرومي يـرف حـولي كرايـة خضراء بلا سارية :

"هفت اسمان را بردرم.....وز هفت دريا بگذرم

چون ميروى بى من مرو...اي جان جان بى تن مرو.

ولدت في مدينة غزني شرق أفغانسـتان، AFGHANISTAN الدولة الأولى في العـالم أبجـدياً،

في سجلات الأمم المتحـدة، وأفيونيـاً، البـترول النباتي للبلاد، السـائل السـحري الـذي يجعلـك شاه ملك في ثانية، ويعيـدك صـعلوكا بمثلهـا، شاهدت تـأثيره على الآخـرين، حسـنا، سـأكون حقيقيًـا، جـربت ذلـك بفضـول المعرفـة ولم يعجبني لذا لم أستمر.

في الشنازنامة ملي، وثيقة الأحوال المدنية اسمي أميرآيت غزنوي، تتحدث الجدة العمياء عن دمنا السلطاني، كلما كانت تأخذنا صغارا لزيارة منارات النصر النجمية المتبقية من مملكة سلطان محمود غزنوي الممتدة من غزنى إلى أجزاء من الهند وإيران في القرن العاشر الميلادي، قبل ألف سنة من الآن، لا أقدس التاريخ مهما كان عظيما، بالنسبة لي، الحاضر أهم، أما المستقبل فغير جدير بالثقة، كرمية نرد، ولدت في شهر السنبلة لعام 1389 الموافق لشهر أغسطس 1999، السنة الهجرية الشمسية أو الأبراج كما نسميها، ويسميها متابعوها بأبراج الحظ، الهوروسكوب، تبدأ ببرج الحمل 21 مارس وتنتهي ببرج الحوت 21 فبراير، باستثناء الشهر أو البرج الذي ولدت فيه, فبدل العذراء نسميه السنبلة، لارتباطه بالحصاد.

عندما كنت في الرابعة انتقلت للعيش مع

عمتي نيلوفر، وهو اسم زهرة الماء، كانت عمتي جميلة كزهرة، غير أنها لم تذق ماء رجل طوال حياتها، سقطت أنوثتها مرة واحدة، ونمت شوارب خفيفة تحت فوهتي أنفها، هي عزباء لسبب ما، تقول أن اللّٰه أراد ذلك، لا أصدقها ولا تصدق هي ذلك، إلا أنها اعتادت القول كما تفعل النساء من حولها، كثيرا ما كانت تبكي في جوف الوحدة الليلية. الجسد كخبز ناضج سيبرد وتجف أطرافه بينما في غزني، وحدها مئات الأفواه الذكورية بشوارب كثيفة تتقن قضم الشفاه، كلما تشاجرت جدتي، يفتح كيس القمح قليلا فتخرج حكايات عن حبيب لعمتي أُعدم عند دخول طالبان، علقت مصارينه مع أشرطة كاسيتات الأغاني على أعمدة النور في كابل بداية التسعينيات، كان فنانا ومن المقربين للرئيس نجيب اللّٰه، تقول جدتي يستحق ما جرى له كان شيوعيا. ماالشيوعي؟ تخيلت أنها شتيمة أو مهنة سيئة الصيت، صرت أطلقها على أخي ماشااللّٰه عندما يضايقني، "اسكت شيوعي.. هه، تستحق أن يلحق بك العار". كنا نسمع أنا وأخي هذه الحكايات ونحن ندس رؤوسنا تحت البطانيات ,كأننا لصوص القصص. كانت

عمتي تنشج كل مرة فيغرق منزلنا الصغير بالدمع والحزن.تنشد من ال"لانداي" الباشتوني "يارب ما الذي فعلته كي يزهر الآخرون, وابقى انا برعما".
كانت جدتي قد تجاوزت الثمانين، كنت أتخيلها كالله، قديمة جدا ولا تموت، ترتدي الشادور الأفغاني ولا تخلعه حتى أمامنا نحن الصغار، تحبنا أنا وأخي ولا تبخل علينا بالمعجنات المحشاة بالتمر، أو بحفنات الپسته ، الفستق الأخضر الطري الذي يكفي أن تفركه ليتطاير قشره الشفاف بين أصابعك، كانت تسميني پسته(فستق)، أحبها وأشتاق إليها الآن. لكنني أشتاق لعمتي نيلوفر أكثر، هي أمنا وأبونا بعد ما حصل. هناك روايتان لكل حدث في البيت، الأولى عن طريق مذياع حكومة عمتي وهي الرواية الرسمية والمنقحة والمحررة جيدا لتناسب مشاعرنا كصغار، أما الرواية الثانية فهي لجدتي وهي صوت المعارضة في برلمان المنزل، قالت لنا جدتي إن أبوي قد قتلا في هلمند، لكن عمتي قالت إنهما توفيا معا في غزني في المنزل. "ما الذي دعاهما ليموتا معا؟ لماذا لم يمت أحدهما فقط من دون الآخر؟" سألتها بسذاجة، ردت بثقة: "اللّٰه أراد

ذلك يا صغيري". كانت منشغلة بإعداد العشاء، أجابتني بقفاها متعمدة ذلك كي لا أرى عينيها الدامعتين: "ماتا لأن اللّٰه أرسل غارة أميركية قصفت المنطقة، كانت طالبان موجودة، حصل ذلك في شهر العقرب الموافق للخريف من عام 2002، كنتما أنت وأخوك ماشالله صغيرين لتفهما، قلنا لكما إنهما ذهبا لحفلة زفاف، في هلمند، وتاها في الطريق ولم يعودا". تقول الجدة بهشت ذلك ضاحكة: "في الحقيقة كانا ذاهبين لجلب بذور الخشخاش، كوكنار، المحسنة الجينات والتي تنتج ثلاثة مواسم. بعد سقوط طالبان التي كانت تحتكر زراعة الخشخاش للتمويل وتحرمها على بقية الأفغان، أصبح استخراج الأفيون مصدرا للدخل، ما أن تجرح جرة زهرة الخشخاش بشق صباحا حتى تقذف منيها الذي يتجلط خارجا بعد ساعات. كان هذا كافيا لتتصدر أفغانستان لائحة الدول المنتجة للأفيون. على كل حال، دفنا من ساعتها هناك في مقبرة، نما حقل من الخشخاش في داخلها بعد الحاجة الملحة لزراعة مساحات أكثر، إنهما يستحقان ذلك". تعتقد الجدة بهشت: "ما تسعى لطلبه يسعى لطلبك كما قال مولانا الرومي". تمتلك عمتي

نصف هكتار من الأرض المزروعة بالحنطة وبعض أشجار الفستق، يكفي ذلك حاجتنا لنصف العام، نتحايل على ما تبقى ليمضي كيف ما اتفق. وهكذا كبرنا ودخلت المدرسة، تبعني أخي بعد عامين، كبرت عمتي خلال ذلك بسرعة مدهشة، إرهاق العمل في الحقل مع النساء، الشيخوخة، مقبرة الرغبة الجنسية، فهمت ذلك عندما بلغت، كل هذا أسقطها كمصارع في آخر جولة عناد أمام صعوبات الحياة. قالت لي مرة: "يا عصفوري الصغير أمير، سأفتح لك القفص بما ادخرت لمراسيم جنازتي وتشييد قبري من نقود، خذها فالجنائز لا تتعطل والموتى يدفنون آجلا أم عاجلا، سيتدبر الناس ذلك، فمهما استذأبوا لن يتركوا جدتك العمياء ولا أخاك الصغير في حيرة إذا ما مت يوما". "ماذا عن جدتي، هذه الشجرة المتيبسة الميتة الحية، وهي الأزل كروح تجول في المنزل؟" ردت:"تذكر، الأرواح لا تموت يا صغيري أمير".صمت قليلا لأبتلع هذه المفاجأة ولا أغص بها."بعت قلادتي ونصف الحقل كذلك، لتسافر إلى أوروبا. ما أن تصل تذكرنا وأعمل جاهدا لتثبت عروقك في الجليد لأجل هذه الأفواه التي شقها الله وسيجعلك من

أسباب رزقها. اذهب جسدا ولا تذهب روحا، خذ..". وناولتني مبلغا لم أرى مثله من قبل. أردفت:"اذهب إلى جنتك حيا، الآخرون يذهبون إلى جناتهم قتلى بالرصاص أو بالأمراض أو تصادم الحافلات في طرقنا الجبلية الوعرة، هناك جنات مفترضة للجميع، حتى الشيوعي الذي أحببت لديه جنة ما، أنت الآن رجل، وأنا أتحدث معك عما يدور في رأسي، ابحث عن جنة تدخلها حيا لا ميتا، كما أنا وكما الشيوعي. الشيوعي يا صغيري ليس شتيمة كما تعلمت وليس فخرا، كل الأشياء بين بين، تعرّف على الحقيقة لذاتها وليس لتأثيراتها الخارجية. عندما تُلوث الأفكار الطاهرة باليد البشرية فإنها تصاغ حسب مبتغانا.
كانت تتشبث بي بقوة وهي تحتضنني, قوة تفوق جذب الأرض لتابعها القمر, تملصت منها بحزن.
وأنا جالس في الباص قبل أن ينطلق، فكرت بالرجوع، قد أفعلها في أي لحظة.
- هل نتوقف قليلا؟ إنها الرابعة عصرا، حان موعد العشاء في قاعة الطعام. لترتح قليلا أمير، سنكمل حكايتك لاحقا. قاطعني سرمد وهو يربت على كتفي.

نزلنا لتناول الطعام ,زكمت أنوفنا رائحة اللحم المسلوق، كان زنخا، بلا توابل أو ملح, تقيأ أحدهم بعد ملعقتين من تناوله، الرز كذلك نصف مطبوخ، قطع الخبز الأبيض الشيء الوحيد القابل للأكل. تكرر هذا كثيرا، فقدنا عشرات الكيلو غرامات من الوزن، تحايلنا على الجوع بعلب التونة الرخيصة، يقدم الطعام بطريقة غير شهية، من المؤكد أن أموالا كثيرة تصرف لهذا، أجور عمال وطباخين، إلا أن ثمة مشكلة في سوء الطبخ، هل كانت مقصودة لتجبر الآخرين على العودة إلى بلدانهم؟ من يدري.

بعد أن تطوع لطيف للعمل في دور رعاية المسنين، اقترحت على مروان أن نبحث عن عمل, حاولت إقناعه.

- لتستطيع أن تشرب الكحول كما تشاء وأستطيع أنا أن أشتري طعاما غير الذي يقدم.

وافق على فكرتي، بحثنا في الإنترنت، سألنا الموظفين، كان شرط العمل أن نتحدث اللغة الفنلندية، كانت الستة أشهر التي قضيناها غير كافية لتعلم التحيات اليومية.

مروان يتسلم حوالات مالية بصورة دورية من عائلته في بغداد، ما أن انقطعت حتى وجد

مصدرا آخر، الجنس مع الرجـال مقابـل الطعـام والكحول بينما رفضت أنا هذه الفكرة.

- إنهـا تثلج بكثافـة، لن أخـرج اليـوم ولا غـدا، سرمد هل أكمِل؟

- بـالطبع تفضـل.. قـال لي وهـو يعـد دفـتره وأقلامه للكتابة.

"تحرك الباص في الثالثة فجرا، غزني النائمة رغم صياح ديكتها، أخرج من رحمها الآن وقد لا أعود إليها كما حصل لوالديَّ من قبل، من المؤكد أنهما غادرا في الثالثة فجرا أيضا كما هو موعد حركة الباصات المنطلقة من السوق الشعبي، كانت العشرون دقيقة بطيئة جدا لتمتلئ المقاعد بالركاب نصف النائمين، أجلس قرب النافذة بينما ينحشر صديقاي مختار ونصيري إلى جانبي، أرى توتري في عيونهما تحت ضوء الباص الداخلي الخافت، لم ننم ليلتها، ثلاثتنا على ما أعتقد، سترافقنا سحابة مستطيلة كنعش مفتوح، تظللنا تحت سماء صيفية صافية، ستنتقل معنا إلى سماء زابل ثم تختفي في سماء قندهار داكنة الزرقة والمضببة ببقع حمر، حيث تجلط الموت كثيرا هناك في الهواء ولم يزل، تذكرت كيف قبلتُ عينيّ جدتي العمياوين آخر مرة وهي نائمة

قرب الجدار وقد تكفنت بجادور أبيض، تذكرت عمتي التي مثلت دور أمي وأبي جيدا منذ ما يقارب الخمسة عشر سنة على خشبة مسرح منزلنا القروي البسيط، عانقتني بقسوة وألم وصمت، قالت لي الكثير بجسدها، دفعتني عنها، لأهرب من كل شيء عداها، رائحة عناقها الأخير ستلتصق بي ولن تزيلها مياه بحور العالم السبعة، سالت دمعة أولى، يبدأ السيل بقطرة. في الخارج يرسم رذاذ المطر الخفيف مسارات متعرجة على نافذة الباص، تحريض آخر على البكاء، رافق هذا أنين غنائي للمطربة الأفغانية "نغمة "انسكب من جهاز مسجّل قديم قرب سائق الباص. أعطاني مختار قطعة جبن وخبزا، قلت له لست جائعا، كان يعلم هذا، أراد للطعام أن يكون موضوعا بديلا عن البكاء. بعد ثلاث ساعات في أحشاء جبال تصل غزني بزابل، كان الجميع يشعر بتنمل بالساقين. سنصل زابل قريبا، قال أحد القرويين. كانوا متجهين لأقربائهم، بعضهم يحمل معه الفستق الأخضر، الأجاص الأصفر"الو" أو "القورت" كهدية. يُصنع القورت من اللبن الخاثر المجفف ليومين تحت الشمس ثم يُشكل على شكل كرات، له طعم حامض لذيذ. ناولني أحد

الجالسين من الصف الأمامي كرة قورت، كان قريبا لأمي، سألني عن وجهتي، قلت أي شيء إلا الحقيقة. قال بنبرة العارف: "أتمنى لك حياة أفضل، اذهب لم تعد هذه البلاد أرضا صالحة لاستنباتكم أنتم اليافعين، هاجروا، موتوا ألف مرة ولكن لا تعودوا". شكرته على القورت اللذيذ، ولعنته بهمس لتخمينه وجهتي من دون رغبة مني. يخور المحرك كثور مجاهدا الصعود لمرتفع مستدير على نفسه، طريق ضيق بين خد صخري حاد وهاوية مفتوحة للسقوط الحر، من نافذة الباص أنظر بعينيّ صقر محلق للمشهد المهيب حيث القرى والأشجار والحيوانات والجداول في الأسفل قد خضعت للتصغير zoom in مئات المرات، أشم رائحة الحنطة والفستق والخشخاش المزروع في أشكال هندسية متباعدة وبألوان متدرجة من البيج إلى الأخضر الغامق، ثمة سحابة هبطت قرب الباص واحتكت به كحيوان يطلب التزاوج من أنثاه، افترقت عنا إلى محيطها الأزرق بينما تمسّكت إطارات الباص بالطريق الصخري المنحدر بقدرة الطبيعة، نسمة جبلية تكفي لدفع الباص نزولا الآن في منحدر حاد تكاثر الشجر على

جانبيه.غير سلطة السكون الموحش والمسلحين الطالبانيين لا سلطة هنا.. يتخذ المسلحون عادة هذه العوالم المعزولة كجنة أرضية لممارسة تمارين دخول الجنّة المفترضة التي يسكنها المجاهدون. الجنّات نفسها، المفترضة الأخرى، يسكنها ضحاياهم من المدنيين والشرطة والعسكريين. لا تزال بقايا شركة طالبان القابضة الدولية لصناعة المجاهدين منتشرة بفروعها ومازالت تمنح تذاكر دخول الجنة مجانا ولعرض غير محدود، والإقامة دائمة. طلقات عشوائية نسمع أزيزها ونرى وميضها تأتي من الخلف متوازية مع جسد الباص الذي أفلت بسرعة من فك الموت، لولا حرفية السائق "شموخر الباشتو" كما يسمونه لتناثرت بعض الأدمغة من بعض الرؤوس المثقوبة، انكفأنا للداخل تحت المقاعد لدقيقتين، رددنا تمائمنا الدينية، سألنا الله والرسول أن يكف جنودهما المتدينين كما يدّعون، سمعت قلبي يدق كطبل مدرسي، أرتجف من شفتي إلى أصابع قدمي الصغيرتين، أطلق الخوف غازات البطن من بعض العجائز في علبة الصفيح هذه المسماة جزافا باصا، بل نعشا متحركا. مرَّ الأمر بسلام،

حمدنا الله وأكلنا حلوى وخبز(نان). استغرقت الرحلة إحدى عشرة ساعة، نزلنا من الباص مجعدين كقمصان غير مكويّة، بينما الخدر يسري في السيقان. كانت وجوهنا المتعبة وعيوننا المترقبة بعناد مستعدة للأصعب.
"الطريق من غزني إلى هلسنكي", ما رأيك سرمد بهذا العنوان؟
- فكرة جيدة، استمر بالسرد، ساجد عنوانا مناسبا لاحقا.
"مررنا بسفوح هلمند، كانت بلون كابٍ، تذكرت والديّ اللذان يرقدان في حفرتين متقاربتين، لا شك، في هذا الجسد المترامي الأطراف من حقول الخشخاش. نجحت البذور المهجنة الجديدة والتي تشبه حبات السمسم في اختصار الزمن، ثلاثة حصادات في العام الواحد بدل الحصاد الربيعي الوحيد في السابق في شهر السنبلة، قرأت الفاتحة على روح والديّ بينما كفاي مفتوحتان كصفحتي مصحف. وصلنا إلى موقف باصات مدينة فرح، توقفنا قليلا للاستراحة، اشترينا طعاما، صلى بعضنا، قضى آخرون حاجتهم في مرافق عمومية تستعملها أسراب الذباب أكثر من المسافرين، أعدت شحن هاتفي في مطعم محلي قريب،

ركبنا مجددا بعد أن أطلق السائق منبه الباص ثلاث مرات كإشارة أخيرة لمن تخلف عن الركوب، قال: "بسم اللّٰه" وأدار المحرك. استسلمنا لإغفاءات مخدرة أنستنا الماضي والمستقبل، بينما شخير الباص والغناء الريفي الأفغاني المتصاعد ما زال يذكرنا بشدة بالحاضر. إنها "نميروز"، همس مختار في أذني، أفقت بتثاقل، نعم وصلنا آخر مدننا الحدودية مع الغولين الإيراني والباكستاني. كان يمكننا دخول إيران مباشرة من مدينة نميروز الحدودية، لكن الإيرانيين في تأهب دائم على هذا الجانب من الحدود. من السهل العبور إلى باكستان بدون دخول مدنهم، فقط السير في البراري الحولية متجهين إلى الحدود الإيرانية، ستكون استدارة لمدة ثلاثة أيام من السير. تتواجد دوريات لشرطة الحدود، محاولة جهدها قطع طريق الخشخاش الممتد أسوة بطرق الحرير القديمة، حيث يجتاز الأفيون الأفغاني إيران نحو العالم، لذا يتم تمشيط المنطقة الحدودية بين إيران وأفغانستان على مدار الساعة، هذا يكفي لعدم مجازفة المهربين ببضاعتهم أيضا. تقتضي العملية التبادلية للتهريب الآتي: شخص في الدولة المصدرة

وشخص في الدولة المستوردة، يكون كلا الطرفين ضامنين للسلعة المهربة، أنا أو الآخرين. تنتقل السلعة البشرية المهرَّبة مجهزة بالطعام فقط، كوقود زائد هاتف بشريحة "إيران سيل"، يتم شراؤها مسبقا. لا نستعمل الخطوط الباكستانية لعدم الحاجة إليها ولكوننا خارج المدن، لا نحمل أية أموال، يتم التحويل عند وصولنا "زاهدان "الإيرانية، يتصل أحدهم بشخص ليعلمه بوصولنا ويستلم مبلغ النقليات. الثقة مطلوبة طبعا، يحصل الأسوء عندما يبطئ مسيرنا حدث ما....يرعبني تذكر ذلك الآن.

كنا ستا وعشرين شابا، تتفاوت قدراتنا البدنية، بعد مسير يوم مع مهرب اعتاد ذلك كأنما يتنقل في غرفة نومه، هبطت مؤشرات طاقتنا الجسدية، المهرّب يستعين بأفيون ممتاز غالي الثمن يجعل من ساقيه قطيع خيول. وقع "شمس" عند انزلاق قدمه في مرتفع جبلي، كان بوزن فيل حديث الولادة، تنبأ المهرّب مبكرا بذلك، لم يقبله في البداية، إلا أنه تلقى مكالمة من طرف آخر كوساطة غير قابلة للرد، ستدفع أكثر قال له المهرب، أنت رجل ونصف، لم تكن مزحة، وهكذا دفع أكثر

ليضمن مساعدة المهرب بسبب حجمه وصعوبة حركته. ما أن تدحرج على الحصى كوعل جريح، تحولت عينا المهرب إلى جحيم مصغر، لن يستطيع المسير، سنتأخر عن موعد تسليمنا للمهرب في الحدود الإيرانية،
ستحصل أشياء كثيرة لن أمسك نفسي عن البكاء إذا تذكرتها الآن..

في هـذه اللعبـة من يسـقط لا يُحمـل، لا يُنجـد، لا يُـترك ولا يُـرحم. أبـدينا أنـا وثلاثـة أشـخاص اسـتعدادنا لحملـه. كـان المهـرب احترافيـا، وبلا ردات فعـل عاطفيـة، كجـراح أعصـاب، رفض الفكـرة، هـاج بعضـنا وتبادلنـا الشتائم معه، ضرب اثـنين منـا بعصـا خـيزران كان يحملها معه، أدماهما، قلنا سيحصـل هـذا معنا لو سقطنا، تنبأنا كل بمصيره، من يسـقط يمُت، هذه قواعد اللعبـة والحيـاة. صـحنا فيـه: "لنتركـه لمصـيره". رد بحـدة: "سـتجده قـوات الحدود الباكستانية، سينتزعون منـه معلومـات تقود إلينا بسرعة، سيقتلوننا كلنـا أو يحبسـوننا في الأقل". صمتٌ تكسره ريح جبلية قاسية لها صـرير مفـزع، عيـون متعبـة وصـدور تتنفس بتصـاعد سـريع، شـفاه متخشـبة وأخـرى متشـققة، قلـوب بـدقات متسـارعة ممـا

سيحصــل. الحمَـل يعـرف جيــدا نظـرة الــذبّاح الخاطفة، يقـرأ موتــه قبـل ســاعات، تضــطرب معدته ويقيء عصارة صفراء من الخوف، انتظار المـوت هـو مـوت بطيء وثقيـل من نـوع آخـر. وكمن يشاهد شخصا يتغوط، أدرنا وجوهنا جهة الفـراغ الســماوي الهائـل الــذي يحيطنــا والــتي تخدشه أغصان أشجار مسنة متيبسة. حضـرت كائنات بملابس صوفية وبدأت تدور وتدور على مـدى الأفـق، بينمـا انغمـر لحن حـزين مرصـع بحـروف ذهبيــة من أشــعار مولانـا جلال الــدين الرومي، انتشى كل من سمعها وبدأوا بــالرقص والقفــز إلى أعلى كــأرواح وليس كأبــدان..كســر زجاج هذه النشـوة الروحيــة صـوت إطلاقــة في الرأس، أسقطنا كلنا أرضا، هوينا بسرعة كطيــور محلقة تلاشت أجنحتها فجأة، واختلط المخــاط بالدموع وبالتراب وبالحقيقـة البشـعة كصـمتنا. نظرت للأسفل حيث جثـة الحمَـل على المـذبح الصــخري ترقـد بهـدوء في خمـر الــدم الأحمـر المســكوب قليلا حــول الــراس ومن الفم، مــا زالت أصــابع يديــه تتقلص وتنبســط وســاقاه ترفســان الهــواء على مهــل كطفــل يلهــو، ثم تــوقفت الحركـة ببطء تنــازلي حــتى الســكون. أكملنا طريقنا بلا رغبة بالحديث أو بالحياة، ثلاثة

أيـام من المسـير، أمسـكنا على جمـر أوجاعنـا وجوعنـا، تقوّتنـا بالطعـام القليـل، شـربنا ميـاه الحفر والجداول المنتحرة بين الصخور، بلنا على جـذوع الأشـجار كحيوانـات بريـة تـترك أثرهـا لهاربين آخرين لما يلحقوا بهم. خبز الخوف كـان أكـثر من خـبز الـدقيق، نفـدت الجبنـة وحبـات الطماطم، نفدت أرواحنا قبلهـا. في ذيـل بدايـة اليوم الرابع وصـلنا مغـبرين، وصـلنا "زاهـدان" استقبلنا مهـرّب آخـر وخزننـا في فنـدق محلي ليـوم ونصـف، لا نغـادره بينمـا يأتينـا شـخص لشراء حاجياتنا، هكـذا كـان الاتفـاق مـع مالـك الفندق والمهرب حـتى لا نلفت أنظـار الشـرطة الإيرانيـة. حُشـرنا في بيـك أب مـع خمسـة من المـاعز، وأكـوام القش والتبن، غطـوا حـوض السيارة جيدا بأغطية سميكة، رائحة الحيوانات، قلـة الهـواء وتجلـط الـدم في سـاقي، وصـلت لدرجـة الإغمـاء، عشـر سـاعات من الجلـوس بوضع الجنين، تنتقل السيارة عـبر طـرق ريفيـة وعرة تجنبـا للتفـتيش من السـلطات الإيرانيـة، وصـلنا إلى طهـران، سـمعت ضـجيج المدينـة الكبيرة. كنا نأكل مع الماعز ونتبـول في قنـاني، دخلنا تبريز، جسـدي يئن من الجلـوس، ارتحنـا في منزل ريفي، نمت كجثة والـدي من التعب.

صــباحا انطلقنــا إلى الحــدود التركيــة، اتصــل المهرب بإدارته، أكـد وصـولنا كبضـاعة بنجـاح، ودّعنا وغـادر. جـاء مهـرب تـركي نقلنـا بسـيارة صالون إلى أزمير، الأمر أسـهل ممـا في إيـران، تركيا بازار مفتوح للتهريب، برضا حكومي.

يمـر الـوقت في مراكـز اللاجـئين مشـبعا بالضــجر، اقــترح عليّ سـرمد أن أتعلم اللغــة الفنلنديـة، بينمـا جـاء اقـتراح سـعد أن أجمـع قناني وعلبـا وأسـتبدلها بيـوروات في ماكنـات التجميــع: "مــا العيب؟ انظــر إلى الفنلنــديين بـرواتبهم المرتفعـة يفعلـون ذلـك"." طبعـا هم يعيــدون علبهم وقنــانيهم ولا يجمعونهــا من القمامة". أجبتهم معترضا: "المبـدأ نفسـه". رد سعد: "خذ" وألقى عليّ مازحا علبة بـيرة فارغـة كـــــــان يشـــــــــــــــربها.

- ستكسب خمسة يوروات يوميـا على الأقـل، ترسـل لعمتــك أو تشــتري شــقة في وســط هلنســكي يومــا مــا. أردف ســعد ســاخرا.

انطلقت صـباح اليـوم الثـاني بخجـل، أحمـل كيسا أسود وحقيبة ظهر، أخفيت نصف وجهي بقبعــة صــوفية. يــا الله.. فــوجئت، ربع عــدد اللاجئين هنا يفعلون ذلك أيضا، لم أكن أتخيــل هــذا، مقارنــة بحـديثهم المتعـالي عن ثـروات

عــــوائلهم والأكـــاذيب الـــتي اعتـــادوا عليهـــا. انضممت إليهم بفرح غامر، قلبنـا وفتشـنا كـل علب القمامات من شرق هلسنكي إلى غربهـا، وقفنـا قـرب العشـاق ننتظـر أن يلقـوا قنـاني المشروبات، ضايقنا حتى الصغار ونحن نلتقـط علب الكولا قبل أن ينهوا شـرب مـا تبقى، كنـا تيارا منتشـرا بين الشـوارع والأزقـة والسـاحات العامة، لم ينافسنا بهذا النشاط المزعج للآخرين إلا طـــائر النـــورس اللص، ينـــدر أن تســـتطيع الاستمتاع بآيس كـريم أو همـبركر صـيفا قـرب البحـر، تتكـاثر عليـك هـذه الطيـور المسـتفزة وتسرق ما في يدك، يبدأ الأمـر بطـائر واحـد ثم ينـادي مجموعتــه، وينتهي الأمـر بـك مغـادرا وأنت تشـتم وتلعن السـاعة الـتي قـررت فيهـا التسـكع قـرب السـاحل. في بعض الأحيـان يستمتع النورس بازعاجك وطـردك من المكـان حتى لو لم يكن لديك طعام.

يكتم صـديقي مـرادي ابتسـامة متعبـة, يهمس لي " النوارس كذلك لا ترحب بنا هنـا". طاردت الشرطة مرادي لتنفيذ أمـر بترحيلـه إلى أفغانستان، شنق نفسه مساء يوم بارد بواسطة حبل وغصن شجرة عجوز في ميدان عـام قـرب محطة هلسنكي المركزية قـرب خيمـة اعتصـام

اللاجئين، أنقذه شـاب عـراقي وهـو في الرمـق الأخير، اختفى بعـدها الشـاب، أو شـنق نفسـه بعد أن جاءه الدور بالترحيل.

أخبروني في اسـتعلامات مركـز اللاجـئين: "وصـــلك بريـــد من أفغانســـتان". انقطعت الاتصالات مع أخي ماشالله منـذ شـهر تقريبـا، هو الوحيد الذي يستخدم الموبايـل في الـبيت، عمتي وجدّتي لم يتعلما ذلك. قفـز تـوقعي إلى موت الجدة بهشت. أقرأ، أعرف هذا الخط، خط عمتي، يا رب احفظ عائلتي في غـزني، دعـوت الله بقلبي الصغير.

عزيزي أمير

ولدي الصغير، لا أسال الله إلا أن تكون بخير، هل أنت بخير؟ هل حصلت على إقامة؟ جدتك بهشت تبلغك السلام، كل مرة تصلي فجرا تدعو بهمس" أي رب، ساعد أمير",نور عين جدته التي لا ترى.

أمـــير, جـــانم, نحن بخـــير إلا أن أخـــاك ماشـاالله، لا أريـد أن تتـألم، هـو رجـل مثلـك وسيعود إن شاء الله، عند ما ذهبت خـرج أيـام العطلـــة المدرســـية ليعمـــل، في الحقـــول المجاورة، ليلْقني الله مرتين وأنا حية من سـفح هلمند، لماذا لم أمنعه، دخلت قوة من طالبـــان وأخذتـه ومن معـه مجنـدين أو أسـرى، يقـول" سلطان ولد" صديقه الذي فر بعد يـومين منهم أنهم بخـــير، وســـيطلقون ســـراحهم إذا أطلقت حكومة كابل بعض أسرى طالبان، ولـدي أخـذوا "حـــبيب الله " ابن جارتنـــا، الطفـــل ذا العشـــر سنين، كان ذاهبا معهم للاستمتاع لا غير، بـــني أنت تعرف ما يحصل عندها، سـيباع كــ " بجـه بازي" للرجال الأغنياء ليستمتعوا بجسده، قلبي يبكي لـه ولأمـه المسـكينة الـتي أصـيبت، لم تحتمل الصدمة فماتت بعـد يومـيين، يرحمهـا الله، أخبرهم هناك في أوروبا بما حصل لأخيـك

ليساعدوك ويعجلوا بمنحـك إقامـة، ابعث لهم برسالتي هذه، صغيري أمير..

خدا حافظ.

نيلوفر غزنوى

برج الحمل 1395

قررت أن لن أخـرج اليـوم للعمـل، بسـبب الرسـالة ومـا سـببته لي من قلـق على مصـير ماشـاالله أخي، إلا أن شـياو الكـردي أقنعـني بطريقته:

- لن ينفعك التوتر بشيء، سيهزمك سريعا، فكر بعائلتك، التي تنتظر منك الكثير, اليوم عيد العمال (الفابو بايفا) ستتحول هلسنكي مساء إلى بار كبير مفتوح، علب وقناني وسكارى وقبلات وقبعات وجنون ليلي مؤقت. وفعلا كان الجميع محتفلا بأجواء صيفية باردة نسبيا، أمطرت في الثانية عشرة كبصاق خفيف لم يترك أثرا على وجه أحد، كان نصفي الأسفل مغروسا في الرصيف بينما ينحني جذعي لداخل سلة القمامة، حصلت على علبتي فودكا بلاستكيتين، وخمس علب معدنية متنوعة بين الكولا والبيرة، عندما رفعت رأسي من القمامة صدمت بكتفي فتاة عشرينية كانت تحاول رمي قنينة نبيذ، كانت ثملة، اعتذرت لها...لا

يهم.. ردت، بعد خطوتين سقطت أرضا، كانت وردية ورقيقة كطائر الفلامنكو، نظرت اليّ بعينين مثل فستقتين رطبتين، حاولت مساعدتها،رفعتها من كتفيها اللدنتين،استقامت واقفة،شكرتني,سألت بخدر خفيف

ـــــ"ما اسمك؟"

ـــــ" أمير". ارد دون أن أسألها عن اسمها.

- هل تساعدني في الوصول إلى الباص، ليس بعيدا، باص 18N.

قالت بصوت بطيء ممطوط وفهاق.

- لما لا؟

وضعت كيس القناني جانبا، وراء أكمة من الشـــجيرات، أمســـكتها جيـــدا من وســـطها، أسندتها حتى البـاص، طلبت أن أفتح حقيبتهـا وأستخرج بطاقـة البـاص لتفعيلهـا في الجـاهز قرب السائق، ترددت أولا، ربما تتهمني بسرقة شــيء مــا، ليس على السـكران من حـرج قلت في نفســي، اســتخرجته متعمــدا أمــام ســائق الباص، سقطت في الممر بين كراسي الركاب, صاح بي السائق بالإنكليزية:

- أجلسها، أو أوصلها للمنزل إذا كنت صـديقها، حالتها غير طبيعية.

- لكنني لا أملك بطاقة باص. أخبرت السائق.
- لا توجد مشكلة. وأشار اليّ بالجلوس لإفساح المجال لبقية الركاب بالصعود، أوصلتها إلى شقتها، سقطت من بين يدي في الباب، ساعدتها، ألقيتها على السرير وهربت مني تشتعل حواسي، رغبة، ضعف، سرقة لذة جسدية ما والهروب. من سيعرف؟ حتى هي، لا لن أفعل، كأنثى أرنب ملمسها, لدن، أدثرها باللحاف، أنظر اليها، وأنظر إلى وجهي في مرآتها المثبتة على الجدار، كم أنا بعيد وكم أنا قريب.
-" من اينم ...من اونم"

لن أكون حقيرا, بلا وعي لن يكون الجنس متكافئًا, سيكون سرقة, اغتصاب, تبدو كملاك كاثوليكي, عيناها نصف مفتحه كالورد فجرا,لا لن أفعل,اصمت.. اصمت, أقول لصوت ما يضج في رأسي.

رجعت إلى مركز العاصمة مشيا... أربعون دقيقة تحت وفوق الثلج، حينما وصلت لم أجد ما جمعت من العلب الفارغة، لقد سرقوه، كان مملوءا، ربما كنت سأحصل منه على مئة يورو أو أكثر.

غفوت في القطار ,طرت إلى سفوح خضر مطـرزة بالخشـخاش الملـون تطـاير كفراشـات بطيئة الحركة بعد أن لعقت من جـراح الأفيـون قليلا، رأيت مدرســتي وحقيبــتي الكنفــاص، جـدّتي بهشـت تكنس عتبـة البـاب بمكنسـتها الطويلــة بينمــا تحكم الشــادر حــول جــذعها المطوي للأسفل، عمتي تمشـط شـعرها بعطـر "ياس سفيد"، أخي الصغير جائع كعادته يقلب أغطيـــة القـــدور بحثـــا عن شـــوربة ال (آش) أو(حليم) متبق من البارحـة، أنـا بينهم أمـرّ من دون أن يروني، أكلمهم بلا صـوت، أُذهـل، أهـزّ أكتافهم، عمتي، أخي، جدتي، أهـزّ أكـثر وأكـثر. هناك من يهزّ كتفي بالقوة نفسـها فأسـتيقظ، أرفـــع الهيـــدفون عن أذني، ياللـــه, مفتشـــوا الكونــترول الخــاص بالغرامــات، اعتــدت على الصعود بلا تذكرة، فُرضـت عليّ غرامـة ثمـانين يورو، اليوم الفاسد كـالبيض الفاسـد، يـأتي من المعمــل ليس لأحــد ذنب في ذلــك. أخــذت إيصـــال الغرامـــة ودسســـته في أقـــرب ســـلة مهملات، ليس لدي مال للـدفع ولا رقم وطـني ليسجل اسمي مع الممتنعين عن الدفع.

بالحقيقة كثير من الفنلنديين يركبوا دون تذاكر, تعلمنا من احدهم طريقة للتملص من

مفتشي الغرامات, ثمة صفحة وهمية في الفيس بوك اسمها   رادار السنافر" Smurffitutka", يشارك الجميع, فلنديون وأجانب بمنشورات عن حركة وتواجد المفتشون في وسائل النقل العامة,كل حسب مشاهدته,ليتجنب غراماتهم الآخرون,كنت نائم .

نزلت من القطار، بعد توقف بتمهل، خـرج الركاب من بطنه، بدا كثعبان أبيض مكبر مئتي مـرة، تخـرج من خاصـرتيه الزجـاجيتين ثعـابين صغيرة. فقدت عندها الحافز للعمـل في جمـع القناني، سأذهب مشيا إلى عنوانها، قد ألمحها ترمي القناني، أو خارجة للتسوق، لكن قبل هذا أحتاج سـيجار حشيشـة لأسـير كبغـلٍ في هـذا الجـو المثلج بـدون أن أشـعر، ولأحلِّق حـتى نافذتها، علّني أراها مازالت نائمـة كمـا تركتهـا. وصلت. دار رأسي، لم أجد المبنى، كأنما ديكور مسـرحي أزيـل حسـب تغيـير المشـاهد، درت حول المكان، موقـف البـاص نفسـه، والطريـق نفسه، لكن الـزمن الآن نهـار، هـل أخطـات في شيء؟ أين الباص؟ آه، البـاص N`80 يعمـل ليلا فقط، وليكن، هذا لا يعـني أنـه لم يمـر من هنـا الآن. بالحقيقـة كـان الثلج قـد تكـاثر عن الليلـة

التي أوصلتها فيها، وهذا يعني تلالا صغيرة من الأبيض المثلج تقفل المسارات الاعتياديــة في بعض الأحيــان، لــذ لن يكــون من المؤكــد أن منزلهـــا هنـــا، ولن يكـــون هـــذا محـــالا.

حكيت كل شيء لسرمد في الغرفة حين عدت متأخرا، في نحو الحادية عشرة مساء، حك ذقنه وأجاب: "ربما حسب ما تقول إن تسـاقط الثلج شوش ذاكرتك في بحثك عن المكان، أقترح أن تنتظــر حــتى يحين الربيــع وتعــاود البحث عن منزلهــا". واســتدرك قــائلا: "لكن لمــاذا تبحث عنها؟ هل ستقول لها أحبك؟ هـل ســتكون ردة فعلها: أوه واووو أمير يحبني، فلنتزوج الآن، عند عتبة المنزل، الباص أو في الشارع؟ هـل أنجب لك طفلا، صبيا يحمل اسـمك، أربعـة، عشـرة؟ مارأيـك لـو أرتـدي الحجـاب وتنـاديني الحاجـة لورا؟"

أمطرني بسخرية حـادة، لم أعـد أعـرف مـا أريد، إنها ليست نجلا أو سهيلا، فتيـات القريـة اللواتي أقنعتهن بالحب، والـزواج يـأتي لاحقـا، لمســت نهـودهن المكـورة كالقبـاب المغطـاة بالمرمر، لمست ملتقى أفخاذهن، فركتها جيـدا حد البلل، كنت أفرك عضـوي حينها حـد البلـل

كذلك، لا الأمر مختلف الآن، الفـرق كالمسـافة الجغرافية بين أحياء كابل وهلسنكي.
- طيب مـــاذا تريـــد من البنت لتـــذهب إلى عنوانها؟
- لا شيء، لا أعـرف مـاذا أريـد، أن أراهـا فقـط, هل هذا كثير سرمد؟

لا تتجنب رؤية أحد لأنك ستجده أمامك، أما من تتوقع رؤيته فلن يلقيه الحظ في طريقك. أقول هذا بعد أن قررت أن أبتعد عنها، لا أتحدث بشأنها، إنما عن سيربا سوتاينن، كنت جائعا، جائعا جدا، ومتجمدا كقطعة جمبري في سوبرماركت. كانت ليلة شتائية ألقت السماء كل ما تستطيع من ثلوجها مرة واحدة ثم صمتت إلا من أزيز الرياح بين زجاج المباني العالية، إنها هلسنكي في الساعة الثانية صباحا، كيس جمع العلب الفارغة فوق ظهري مملوء حتى المنتصف، نهاية الأسبوع عادة ما تجود علينا بكميات جيدة من علب البيرة وقناني الويسكي الفارغة المبتسمة بين بياض الثلج، ما أجملها.. نتسارع لالتقاطها، عشرون سنتا للزجاجة، خمسة عشر سنتا للعلبة المعدنية، وهكذا... كانت بعمر السبعين أوقفت سيارتها البيجو الحمراء، فتحت النافذة

ونادتني بإنكليزية لاكنة بفنلندية تتوجع في نطق الشين، ولا تنطقه في الغالب، قالت: "هل تحتاج لمساعدة، أنت ترتجف، هل أوصلك إلى مكان ما؟". كنت قد وضعت كيسي بقربي وتمددت على مصطبة انتظار الباص قرب الشارع، أبدو كثعلب ميت يفتح عينا واحدة في كل مرة مراقبا ما حوله. توجهت نحوها، هب الدفء من حديثها ومن سيارتها: "نعم سيدتي أنا متعب وليست لدي بطاقة باص لأعود للسكن، أنا جائع كذلك ولا يوجد مطعم في هذه الساعة". ردت بمكر: "الأمر طبيعي في هذه الساعة المتأخرة من الليل.. نعم أنا أعرف، لكن يوجد بعض أماكن الوجبات السريعة، هل تأتي لأوصلك لإحداها؟!". تركت كيس علبي المجموعة في الطريق وركبت السيارة. "ما اسمك. من أين أنت؟. نعم فهمت.... هل لديك صديق أو صديقة؟". بدأت تتحسس رقبتي بيد وتقود بالأخرى، كنت جائعا، لست أبرر ذلك.. كانت بعمر جدتي بهشت ملك، حصل كل شيء بسرعة هبوب عاصفة بيضاء، أتذكر أضواء السيارات التي كنا نجتازها، أسرعت، كأنها تعرف أن لا وقت ليضيع، مازلت مخمورا قليلا بما شربت من

بقايا قناني الويسكي والفودكا التي جمعت، سابقت الوقت وسكرتي، لو أنني أفقت قبلها، لو وفقط لو.. "هل تأتي معي؟

ـــ أسكن قريبا من هنا، آسفة لا أستطيع أن أركن السيارة في الطريق، المواقف كلها مقفلة بالثلج كما ترى، سآخذك لمكان دافئ، سرير وطعام وربما أكث.. قالت وهي تقهقه كإحدى ساحرات مسرحية مكبث الثلاث. تدفأت بمنزلها وبجسدها، كنت جائعا لجسد ما، حتى لو كانت مادته انتفاخ أكياس القمامة، شيء أحتك به، أحتضنه، أكلت وضاجعت ونمت. ألقتني صباحا في المكان الذي أخذتني منه.

ـــ كل نهاية أسبوع تستطيع أن تأتي وتفعل ما فعلت وسأساعدك لتجد عملا، أي عمل كان، هذا رقم هاتفي، اتصل بي، لا تنس، ألقت تحيتها وانطلقت بسيارتها.

نسيت ما حصـل أو تناسـيته متعمـدا، لم أكررها، لكن هلسنكي مدينـة صـغيرة، مـازحني سـعد العـراقي بـالقول: "ولكنـك اسـتمتعت معهـا، أليس كـذلك؟! اذا كنت تـرغب بهـا أعطني رقم هاتفها".لم افعل طبعا.

تسكعت في وسط هلسنكي، قرب مبنى كياسما، صفعني البرد وأنا أنتظر أحدهم،

أفريقي شاب، سلمني غراما من الحشيشة واختفى، يتم ذلك عن طريق تطبيق تواصل wickr me بحساب وهمي، اتفاق، يأتي البائع يتفحص المكان عن بعد، لنصف ساعة، يطمئن إلى أن الأمر ليس كمين شرطة، بيع سريع خاطف، سعر غرام الحشيشة عشرون يورو "النخب الأول" وخمسة عشر للمغشوش. من خلاله أشم رائحة أفغانستان,عظام أجدادي الرطبة، التي صارت سمادا للخشخاش.

اتــذكر مــرة, زار غــزني وفــد من القــوات الفرنســـية, تحـــدثوا عن مخـــاطر المخـــدرات وضرورة التبليغ عن مروجيها, وكيف أنها تشكل هاجسًا ومشكلة كبرى, قــاطعهم عجــوز مســن: "بالنسبة لمن؟ لكم أم لنا؟

تحرج المترجم الأفغـاني إلى الفرنسـية من أن يزعج هذا أعضاء الوفد, تشــاجر مــع العجــوز المســن وعم الضــجيج القاعــة المصــنوعة من الصفيح قرب مبنى الشرطة.

عنـــدما انســـحب الجيش الفرنســـي من أفغانستان, وجـد المـترجم مشـنوقا في صـباح بــارد على شـجرة جـوز ميتــة, تخلت فرنسـا عن حماية مترجميها, التقمتهم طالبان بشراهة.

سألتني المحققـة في دائـرة الهجـرة مـرارا, كانت إجابتي واحدة, أنا في خطر بسبب نشـاط والــدي بزراعــة الخشــخاش, قلت أن طالبــان صفتهما لهذا الغـرض.سـلمتها رسـالة عمـتي, ترجمت إلى الفنلندية, أتممت المقابلة وعــدت إلى الكامب.

العـالم كلـه يعـرف أفغانسـتان, حمـار حي تأكل خاصـرتيه أربعـة ضـباع، أضـلاعه وأمعـاءه وقلبه ورئتيه في الهـواء الطلـق.. بينمـا يشـخل الــدم متمهلا قطـرة قطـرة، لا الحمــار ميت ولا الضباع تتركه، الكـل يعلم، كابـل غـزني قنـدهار ليست مدنا، إنها خزانات ميـاه ثقيلـة، البـؤس هنـاك لا يسـتثني إلا المسـئولين السياسـيين وتجار المخـدر, الأفيـون الثمين، الرجـال هنـاك يبدون في الأربعين وهم لم يتجـاوزوا الخامسـة والعشرين، البشر ينقـرض في بلـدي، لا يهمكم كيف يأكلون أو يشربون أو يتناسلون، المهم أن يصــل الهــيروين إلى أوروبــا، عنــدما يجــوع الإنسان في أفغانستان، سيفكر بأشـياء كثـيرة، لكن آخرها هي منع تجـارة الأفيـون حرصـا على سلامة مواطني الكوكب.

عـــدت لعملي في جمـــع العلب من القمامة، أخبرت لطيفا بما حصل، ضحك قائلا:

"أعتقـد لـو أنـك طلبت مسـاعدتها لتجـد عملا لكان أفضـل من لا شـيء". قلت لـه: "سـأدفع ثمن ذلك اغتصابي ليلة أخرى!". "لكنك فعلتها مرة وسـهل الآن أن تفعلهـا مجـددا" قـال وهـو ينظر إلى وجهي ليقرأ ردة فعلي. "لا. لن أفعلها. أنا رجل حر، لست منحرفا يا لطيف، ما حصـــل سابقا حصل لأنني كنت مخمورا وبلا وعي افهم ذلك عزيزي".

اسـتدركت وسـألته: "هـل تفعلهـا أنت؟". دخل سعد قبـل أن يجيب، حـاملا كيلـوغرامين من السكر وعلبـة شـاي ليبتـون: "كـل شـخص منكم يـدفع يـورو ونصـف اليـورو أصـدقائي". قلت: "سعد لماذا لا تعتبره ثوابا لروح أجدادك، أليس هذا أفضل!؟". "ليس بيننـا من يسـتحق الثواب، يـا أمـير كلنـا إخـوة".. ضـحكنا وفهمنـا كيف استبدل كلمة بذيئة بكلمة ألطف منها.

مر شهر على ما حصل، استُدعيت لمقابلة دائرة الهجرة، كـان مجمـل أسـئلة التحقيـق في دوائر الهجرة يـدور حـول محـور "لمـاذا اخـترت فنلندا ولم تتوقف في الاثنتي عشرة دولة الــتي عبرتهـــا، من اليونـــان إلى هنـــا؟"، الجـــواب التقليدي:"لأن فنلنـدا تمنح حـق الإقامـة بمـدة زمنية أقل وسهولة أكـثر، ومسـاعداتها الماديـة

أفضل". سجلوا هـذه الملاحظـة، كـانت مهمـة بالنسبة لهم ليعيدوا النظر ويتشـددوا بسياسـة طلب اللجوء.

- إذن فاللاجئون ينتقون الدول حسب أمزجتهم ومصـالحهم، لا لأنهم خـائفون من المـوت في بلـــدانهم، وعلينـــا منحهم جنســـية وشـــقة ومساعدات وضمانا صحيا لهم ولعوائلهم، هــل تعتقــدون أننــا خمســة ملايين مغفــل لنفعــل هذا؟! لماذا تبتزوننا بـدواعي الإنسـانية؟! هكـذا صرح مواطن عنصري لصحيفة محلية، هذا مــا أخبرتني به محـاميتي، مشـيرة إلى الصـعوبات التي سوف نواجهها.

أبلغـوا سـعدا صـباحا أن لديـه موعـدا في مركز شرطة تيكوريلا، هذا يعني أن الرد سـلبي، حيث يستلم أصحاب الرد الإيجابي قـرارهم من دائرة الهجـرة في كالاسـتما كمـا جـرت العـادة. يصف أحـدهم سـاخرا كالاسـتما بالجنـة، بينمـا يصف تيكوريلا بالنار..

عاد بوجه معدني منبعج كعلبة كولا داستها شاحنة، لم يأكل شـيئا ليـومين، اكتفى بالشـاي والتدخين، والنوم. كنا نحاول مواساته، بينما كنا بحاجـة لمن يواسـينا أيضـا، كلنـا سنتسـاقط كأحجار الدومينو، بالتتـابع، ربمـا لن نجـد حينها

من يواسينا، خرج سـعد بعـدها من أزمتـه ومن الغرفة ولم يعد لمدة أسبوع، اتصلت به، أجابني بأنه مع أصدقاء في مالمي: "هل أنت بخـير؟!" سألته، قال: "نعم. لا تقلق". أغلـق الخـط قبـل أن أُنهي حديثي، تفهمت وضعه ولم أزعل.

خيم جو من الترقب المرير.. الجميع يتوقع الأسوء، رفض بالجملة والمفرد، أفغان، صوماليون، كرد، ومن كل القوميات، فقط السوريون وبسبب الحرب الدائرة حصلوا على إقامات مريحة وسريعة نسبيا.

هرب عقيل وياسر إلى المانيا، ثم فرنسا، كانا في الغرفة 153 المجاورة لنا، بدأت سلسلة هروب طالبي اللجوء من كامب هوربرنتيا1 في "فانتا" إلى الدول الأوروبية، ألمانيا فرنسا بلجيكا، وحتى دول هامشية كلوكسمبورغ أو لختنشتاين. إذا حصرت السيل بسدّ فسيجد له مسارات أخرى حتما، وهذا ما حصل، يودعنا أصدقاؤنا علنا أمام الموظفين الفنلنديين ويغادرون إلى حيث لا نعلم ولا يعلمون هم. المصادفة ستأخذ أحدهم كجذع شجرة يطفو فوق نهر بلا مستقر.

كـان الجميـع مصـدوما وحزينـا، صـادق الأفغاني أشعل النـار في جسـده بعـد أن أغلـق

باب غرفته عليه، حصل هذا ليلا، التقيتـه قبـل يـومين، بكى وهـو يحـدثني عن قـرب موعـد ترحيله لأفغانستان، حاول جاهدا مـع منظمـات إنســانية، ومحــامين متطــوعين وقساوســة لــوثريين زودوه بــأوراق تثبت خطــر عودتــه كمعتنق للديانة المسيحية حـديثا، فشـلت كـل الجهود، سيعيدون جثته الكاربونيـة إلى باميـان الشهيرة، حيث ترمم الأمم المتحـدة وجـه بـوذا الذي فجرته طالبان في عـام2001، بينما لا تتدخل لحماية وجه صادق من الحرق.

أين مروان؟ سألت عندما عدت صباحا بعد ليلة موفقـة قضـيتها في جمـع القنـاني."لازال في ســرير احــدهم منــذ البارحــة في مواعــدة جنســية مــع رجــل , انت تعــرف مــروان جيـدا..مشـرفنا السـافل, ههه" رد سـعد وهـو يحلق ذقنه أمام كسرة صغيرة من مـرآة لصـقها لطيف قبل أن ينتقـل للشـقة الـتي اسـتأجرها بال" أسـود" من شـخص كـوردي، وهـو يعمـل الآن بعقــد مــؤقت في إحــدى دور رعايــة المسنين.

في تلك اليلة ,بحميميـة جـاءت لفراشـي، أخرجتــني من البطانيــة إلى بحــيرة مباشــرة، تجــردت من ملابســها كمــوزة تتقشر ذاتيــا

ودخلت بحيرة بمياه ساكنة بلون أزرق مخضر داكن، ارتعشت لبرودة الماء حضنت نفسها، نادتني أن ألتصق بها كي نعوم معا كسمكة بثمانية زعانف ورأسين.. فعلت، يطفو قربي متماوجا ببطء جذع شجرة صغير يقف فوقه نورس: "أمير لماذا لم تنتظرني؟". خرجنا بعدها مغتسلين بالضوء الخافت القادم من الكوخ القريب، وقد ذاق أحدنا جسد الآخر لأول مرة: "تشبهين اللا شيء وكل شيء حبيبتي". قلت وأنا أحتضنها قرب الموقد وأعض شحمة أذنها برفق، "هممم، دوست دارام أمير". قالت بفارسية مقلدة: "حقا أنت تستحق أن تُحَب، لا يجيد الفتيان الفنلنديون هذا الأداء العاطفي المنتشى بالرغبة الحسية، آخر شخص أشعرني أني أضاجع باصا، دخان وحجم كبير هذا ما وصلني من شعور"، قالت ذلك بينما نار الموقد توشك على الانطفاء كأعيننا التي استسلمت للنوم، كنا جالسين يشرب أحدنا الآخر، صحوت، تلمست الهواء، هذا سريري، جدار غرفة الكامب، روائح جسد شركائي فيها. إذا كان حلما، أشاهد النهار يملأ فراغات الغرفة، تحت اللحاف أغير لباسي الداخلي المبتل،

أعود للنــوم محــاولا إعــادة تشـغيل ذلــك الحلم اللذيذ مجددا.

كالعادة, كل ليلة تقريبا ,أسير تحت أشـجار تيبســـت غصـــونها كأصـــابع مـــوتى، بينمـــا احتضنت أذرعها الخشبية بعضها بعض. أســير تحت مساء آخر، قرب قمامات أخرى تنتظر أن أنبش فيها، عملت لأربــع ســاعات، بــرودة لا تطــاق، تفحصــت كيس القنــاني الفارغــة، لم أجمع الكثير، أرتدي طاقية حمراء صوفية كبيرة، غطت نصـــف وجهي الأعلى، بينمـــا تهـــدل معطفي ذو الحجم الكبير حتى ركبــتي، شــعرت بنعاس، اتكأت على ساق عمــود نــور، إنهــا هي ثانيــة كيــف ميزتــني بين الآخــرين؟ في هــذه العتمـــة الإســكندنافية الثقيلـــة؟ التقطتـــني كخمسة سنتات رخيصة من تحت أكــوام الثلج، أومضت بمصابيح سيارتها مــرتين، وعنــدما لم أســتجب تــرجلت للحــديث معي: "مرحبــا، لم تتواصــل معي منــذ مــدة طويلــة!". حــاولت تجنبها: "هل تريد نقودا لتشتري لحبيبتك هدية في عيد ميلادها؟ قل لي هل نمت معهــا، هــل مهبلها أضيق وألذ مما لدي؟ أكثر لزوجة؟ كيــف هي رائحتـــه؟ كســـتناء رطب؟ أم هـــو لاذع كالفلفـــل، لا تخجل، صـــغيري، لـــدي جن

اسكتلندي في السيارة تعـال لأعطيك". "كيـف عرفت عني كـل شـيء؟". قهقهت عاليـا، أعلى من شجيرات الصنوبر حولنا: "صغيري، لا شيء يخفى على ماما هيا تعال، تعـالللللل".

قبلتني بينما وجهي جهـة الشـارع، دسـت في سـروالي عشـرين يـورو، ألقتـني بعـد ساعةفي باب مركز إيواء اللاجـئين. لا أتـذكر مـا قالت بخصوص ذلـك، إكراميـة، هديـة، لا أعلم كيف وصفت المبلغ، قرف وغزل جـدّة لحفيـد، زنا محارم، هذا إحساسي. لكنني أفعل هذا كـل مرة، لو فقط أعرف لماذا تتجه بوصـلتي نحوهـا كلما أشـعر بـأنني أقـذر من القـذارة، وأقـل من حقـير؟ كـان سـرمد يقـرأ، راقبـني من النافـذة، وعندما صرت في الغرفة ألقيت التحية لكنه لم يرد، كان مروان مستيقظا كذلك، مسـتلقيا في سريره يستمع لأغنية في هاتفه:

- سرمد هل أنت غاضب مـني؟ لمـاذا؟ أقصـد أنك لم ترد على تحيتي.

- أمـير، إذا كنت غاضـبا فلأجلـك وليس منـك، لماذا تهين نفسك هكذا؟ هذه المـرأة تشـفطك كل مرة، تدفعك أكـثر للإدمـان، هي من علّمـك هذا لتبقى لها، فقط؟

- أعد نفسي وأعدك بأنني سأتركها، لن أخون لورا مرة أخرى، قد يحدث مصادفة أن ترانا معا، لورا لن تغفر، ستتركني,أخشى تخيل هذا..
- لورا؟ هـل أنت متأكـد؟ أقصـد هـل ممكن أن تلتقي لـــورا يومـــا في ســـيربا، بتخطيـــط أو مصـــادفة؟ أي حمـــار أنت؟ أي حمـــار صـــغير مغفل..

قاطعني سرمد , ارد بهياج وصراخ:

- لماذا تهينني سرمد؟ أنت لم تفعلها من قبل.

انتبـه مـروان، تحفـز للتـدخل إذا اقتضـى الأمر. كان سرمد يحاول أن يقول لي شـيئا مـا، أثـق بـه وبأنـه غاضـب من أجلي وليس علي، بـدت الغرفـة والأحـاديث ضـبابية، سـمعت مسحوق جملـة أصـدرتها شـفتاه، تسـربت إلى رأســي بالتــدريج كمخــدر، استنشــقتها خلايــا دماغي، كانت كركلة بحذاء ثقيل في وجهي.

- ليس هنــاك في الواقــع أي لــورا، إنهــا كذبــة تقولها لنفسك ولنا، الحقيقة الوحيدة الحشيشة وســيربا الــتي تهــرب منهــا إليهــا، تضــاجعك بعشرين يورو كل مرة، هل فهمت؟

قال او تف سرمد ذلك كله مره واحـدة في وجهي، وصلني انفعاله حتى لعابه المتطاير، أنــا لا أصدق ذلك، دفعته من صدره، تدخل مروان،

ومنعه من أن يضربني، وقفت مهيئـا قبضــتي للعراك، صحت بغضب أسمعت طـابقين على الأقل:

- سـرمد أنت تكـذب، لمـا لا تحاسـب مـروان؟ هـه, إنـه يضـاجع الرجـال مقابـل بيـتزا أو حـتى كأس بيرة، أنت أعمى، تقـول هـذا لي الآن، أنـا أفضل واحد فيكم في الغرفة 155و في الكـامب، وفي فنلندا وفي العالم..

ألقيت كلمــاتي في وجهيهمــا كالحجــارة، دفعت مــروان، لا أدري لمــاذا، أتــذكر التماعــة قاعدة المكواة الستانلس ستيل، كانت ساخنة، حرقت كف سرمد وهو يتدخل، مانعا أن أضرب بمكواة ساخنةفي الرأس، سـرمد الـذي شـتمته الآن يحميــني، ويتلقى حروقـا بإصـابعه، يـذود عـــني، يـــترجى مــروان أن يهــدأ ويتفهم انـــني بنصف وعي.

- أرجوك اخرج قبل أن تحل كارثة أكبر في هــذه الليلة السوداء.

كنت أول من خــــرج، دخنت في الباحــــة المعتمـة، يتسـلل إليهـا من نوافـذ الإدارة نـور خافت متكسر بمساطر السـتائر الخشـبية، من بعيد شاهدت مروانا يغادر المركز.

لاحظت أنني لم أنزعج عندما قال أن لــورا خيال، هذا حقيقي، لم يخـدعني عقلي، أنـا من خدعته بذلك لكي أستطيع تحمل سيربا التي لا ترحم، كمن يضع عسـلا فـوق خـراء مجـبرا على تناوله. من دون سيربا لا يوجـد مـال، ومن دون المال لا توجـد حشيشـة، ومن دون الحشيشـة لن يوجد أمير. سـينتهي بي الأمـر كقطعـة خـبز منسية متفحمة في فرن، سأحرق نفســي كمــا فعل صادق، لست معدا للتحمل كجمل بلخي، ثباتي الانفعالي لا شيء، أنا طفل أراد أن يكــون رجلا.

دخنت في باحــة المركــز غرامــا آخــر من الحشيشة لأنسى مـا تكسـر بيـني وبين سـرمد ومــروان، لأنســى ســخافتي وصــراخي في وجهيهما، سأبحث لي عن غرفة أخـرى صـباحا، لا أستطيع مواجهتهما، لن يعود الأمر كما كـان، انتهى بالنسبة لي كل شيء. عدت إلى سريري، عينــاي تتلصصــان جهــة ســرير ســرمد، كــان يتقلب، منزعجا، زاد ذلك من ألمي، اندسســت في السرير كهِر مذنب وأغمضت عينيّ.

حلمت بها، كانت لورا بوجهها المضيء كمصابيح الطرق، قبلت شفتي، إذن لماذا يقول سرمد " لورا لا تحبك" أسالها: "أنت

تحبينني أليس كذلك؟" تجيب بصوت سيربا الخشن المحشرج بسبب السجائر: "ننعمم أحبببك". نظرت إلى جسدها، كانت تتحول إلى سيربا ببطء، حاصرتني في السرير، كفَأر مخمور مقابل هرّ معافى.

حلم مرّ، عطشت شفتاي، قلبي يلهث ككلب صيد أُرسِل وراء طريدة، كنت أقبل وأقبل وجه لورا، بينما أضاجع جسدا هرما يعود لسيربا، اختلطت الأمور، طعم حليب بالصابون، زجاج بالسكر، أحاسيس جنونية، لذة مع ألم، تقزز مع شهوة، هروب مع لجوء.

أفقت بعدها صارخا، لم ينتبه أحد، وجهي متعرق، شعرت برغبة في التبول في السرير، هل أفعلها، ترتجف أطرافي الأربعة، مشوشا قمت، بلت في المغسلة قبل أن أدخل التواليت، شتمني أحدهم، ركلني ربما، لم أهتم، أنا خارج الوعي الآن، كل حشيشة قندهار لن تكفيني في سيجارة لأتزن، تمايلت وسقطت فوق بركة البول التي تسربت من حوض المغسلة.

أفقت بعدها، كان سعد يغسل وجهي ويدي، بينما يسندني سرمد من جهة الظهر، قلت له بالفارسية: "آسف أخي سرمد". أجاب:

"لا عليك". أوصلاني إلى السرير، نـاولني سـعد كوب شاي ساخن، شربت وعدت للنـوم، كيـف سأواجههما صباحا؟ أنا خجل للغاية، كل أشـعار مولانـا وعـذوبتها لن تسـعفني لأقـول حـرف أعتذار واحد لهذين الصديقين الحقيقيين.

- ماذا تكتب أميري الصغير؟، تسالني
سيربا متصنعة التأنث الذي غادرها منذ أيام
جون كيندي، أجبتها: لا شيء بريد لعائلتي..
- هكذا إذن، ربما تراسل أفغانية مراهقة ما، لست غيورة، لكن إذا صح هذا سأرجعك لأقرب قمامة كنت تجمع منها علب الكولا، مفهوم يا حبيبي؟ تعال، تعال إلى ماما، أين الشيء الوردي المنتصب، ضعه فوق خدي، حسسني بخشونته، تعال تعال، رددت وهي تخلع آخر قطعة لباس على جسدها الذي بدا ككيس نفايات أبيض ممتلئ، رن الصوت في رأسي، تعال تعال حتى بت محشورا كليا بين فخذيها...
قلت في سري:على أحدنا أن يموت الليلة,على أحدنا فقط أن يعيش.

"خانم نيلوفر، عزيز من..
كيف أحوالكم؟، كيـف حـال أخي الأصـغر؟ هل أطلقت طالبان سراحه؟ هل بـاعوه كـ(بجـه بـازي *) لـزعيم قبلي، من الباشـتون، الهـزارا، طاجيـك أو الأوزبـك؟ لا تقلقـوا علي، أنـا بخـير، أعيش مع سيدة محترمة اسمها سـيربا، تبنـتي رسميا، منحتني اسم عائلتها، أناديها مامـا، نعم كولدها فقـط ولا شـيء آخـر، وجـدت لي عملا، صارت أُما ثالثـة لي، مـاذا أكتب أيضـا؟ الأيـام متشابهة، هل تحتـاجون لنقـود؟ سأرسـل لكم، وماذا تحتاجون أيضا؟ لا أعرف كيف أسـاعدكم، هل أنتم بخير...؟"

أمير ايت غزنوي.
برج
الميزان 1397

الفصل الرابع

" ألف ليلة وليلة في هلسنكي..".

عند الخامسة صباحا، انتهت السهرةفي ديسكوHercules، استبدلت الأضواء الملونة الصاخبة والبخار البارد بالأنوار الاعتيادية في المرقص، كان "الدي جي" قد أنهى الليلة بمكس سامبا برازيلي مجنون دفع التستيرون والدم والشهوة حتى الأظافر. ينطفئ مصباح الليل الأسود الهائل عبر النوافذ المطلة على الشارع ليحل نهار ما، يخمل المكان شيئا فشيئا كأنما تغادره الحياة، يفقد حرارته بانسحاب الأجساد المتعرقة بسبب الرقص والاحتكاكات المثيرة، طفق النادل المخنث أرتو يجمع الأقداح أو يكنس ما تكسر منها من جراء سقوطها من الأيدي غير الواعية. ينسحب بعض الراقصين إلى أرائك جانبية من الجلد، لارتشاف ما تبقى من مشروبات كحولية في كؤوسهم أو لالتقاط الأنفاس أو تبادل القبل الطويلة، شباب، أغلبهم ذكور، وقلة من الإناث، يلتصق بعضهم ببعض في همس مواعدة جنسية إكمالاً للسهرة، في البيت، في تواليت عمومي، متنزه عام، لا يهم المكان إذا توافقت كيمياء الرغبة، كل الأماكن تصبح" هيلتون،" أو تفي بالغرض على الأقل. يقود السلم النازل إلى الاستعلامات وبعض الحراس الأمنيين ذوي

العضلات المضخمة بالبروتينات يقف قربهم موظفو البار، تزاحم الخارجون هناك، لاسترجاع المعاطف من الأمانات، كنت متجها بلا تركيز إلى أحد الموظفين، أريد "جاكيتي" لو سمحت؟، طلب السوار البلاستيكي ذا الرقم الخاص بمكان تعليق المعطف، لم يكن في معصمي، فتشت جيوبي، فتشت جيوب شابين ثملين متحاضنين، لا أعرفهما: هيه.. أعطياني سوارالجاكيت..... طلبت ذلك متمايلا بكل الاتجاهات، كانا محلقين في عوالمهما الخاصة، فتشت جيوبهما، ثم فتشا جيوبي: وجدناها.... إنها في مؤخرتك يارجل..
استخرجها أحدهما من جيبي الخلفي، قبلت أحدهما من فمه المخمور، بينما فشلت في أن أتوازن لأقبل الآخر، فسقطت، ساعدني أحدهما لأقف، كان مهتما بي يراقبني عن بعد، طوال السهرة، اصطحبني مطوقا خصري بذراعه خارجا، كنت أترنح، صحت باللهجة العراقية، بصوت ممطوط ومقطع بالفهاق: "لك وين ماخذني؟!"
ـــmita؟-، رد بالفنلندية.

انقطع البث بعدها، بذاكرة قليلة السعة، أتذكر مشاهد بصورة مشوشة ومتقطعة

للشاب، يفتح سحابي يمص قضيبي بحماس في الشارع، لا أذكر شيئا بعدها، في ظهيرة اليوم اللاحق أفقت على هزة خفيفة، كنت أنت سرمد؟ أو سعد؟ أو..أتساءل بينما سرمد ينصت:

- مو مهم، واحد من الشباب شافك انتشلك من الطريق وأوصلك للكامب. وبعدين؟

- بعـد ذلـك وفي "ويـك إينـد" صـاخب آخـر التقيت به، الشـخص الـذي سـاعدني و... كـان اسـمه روبي، في العشـرينيات، ثـور مشـحم أبيض، بعيني أفعى خضـراوين وصـلعة نظيفـة كأنما غسلت بالمطر للتو:

:- Hei، what "s up dude?

:- Hei، nothing espical

هل تعرفني؟ سألت .نعم أنت الشـرقي ذو المني اللاذع؟ عفوا، ما تقصد؟ أستفهم منـه. لا علييييييييك... رد، داعب ظهـري قليلا. أردف: كـان منيـك بنكهـة الفلفـل الأحمـر تلـك الليلـة،اردوأنـا أبعـد يـده: أنت سـخيف ولكن مسلٍّ، هيه اسمي ميروا, قلت لي ما اسمك؟

رقصنا معا، دخنا في غرفة مخصصة، ونحن نهم بالخروج قال.

ــــ أعرف اثنية وأصل الشخص عادة من منيه، لدي خبرة بذلك!

ـــــ ما هذا القرف، هل أنت جهاز تحليل مني بشري؟ عنصرية حتى بالمني؟ أرد بتقزز وأنزعاج. صحح لي محرجا:" أقصد لكل عنصر بشري تذوقت سائله خصائص، وأخمن من خلاله بقية التفاصيل، أعطني شيئا من منيك أقل لك من أنت...

ضاعت كلماته وسط الضجيج، بالكاد أسمعه، صوت "الدي جي" مرتفع جدا, أصيح به "برا برا أوت أوت"، أسحبه للخارج.

انطلقنا للتسكع، كنا بربع وعي بسبب المشروب. عانقني قرب محطة القطار المركزية، تحسس سحاب بنطالي، أنزلت يده:

ـ هيه,لا يحصل الأمر مرتين هكذا. قبلت أذنه مودعا ومتمنيا له ليلة جنسية مع أحدهم، تضايق، لم تعجبه هذه النهاية غير الرومانسية.. من الصعب لمن في هيئته أن يجد من يضاجعه، ركل علبة بيرة فارغة بطريقه، وسار مرددا كلمات شتائم بالفنلدنية المحلية.

حدث ذلك في الهواء الطلق، بينما نسائم سبتمبر تحرك خصلات شعر الفتيان والفتيات العائدات وهن يترنحن فجرا إلى منازلهن بعد ليلة رقص ومتعة وكحول، وربما حشيشة.

تسقط هلسنكي كل "ويك إيند" بيد الملذات،

يحكم شوارع المدينة أسراب من الشباب الثملين, يتراقصون أو يغنون بلا وعي، بينما تكتفي سيارات الشرطة المخططة بالأبيض والأزرق كلعب أطفال مكبرة,بالمراقبة عن بعد، يشاركها في ذلك عشرات الحراس الأمنيين ببدلاتهم السود كجنادب ليلية.

كل نهاية أسبوع يتكرر هكذا سـيناريو وأكـثر من ذلك إثارة.

- "ها سرمد، أكمل؟"

- نعم مــروان، اليــوم للصــبح..اريــد اطلــع " الحلوين" من راسك.

- سرمد أنا مو..اللي ابالك, يعني تقريبــا .. بس حد ال...

نطلق ضحكة عفوية معا.

في نهايـــات 2015, مـــا أن وصـــلنا إلى مستقرنا، فنلندا، محطتنا الأخيرة كطالبي لجـوء ورحمــة، بحمولتنــا من حقــائب الظهــر، الــتي كــانت مملــوءة غالبــا بعلبــه شــامبو ومعجــون وفرشــــاة أســــنان وقطعــــتي ملابس بوثائقنــــا وقصصنا التي جئنا لنقولها عسى أن نجــد أذان أوربيــة تســتمع إلينــا بعــد أن صــارت بلــداننا ضــجيجا ونــارا ودمــا، لا أحــد يصــغي لأحــد هنــاك،كــذلك هنــا,الا لغــرض مــا,مثلا محقــق

مكتب الهجــرة سيمســك كلماتــك كأنشــوطة ليشنقك بها لاحقا برفض طلبـك للجـوء, هـذه بديهيات، منـذ أول إنسـان طلب لجـوءا خـارج "الغابة" إلى الان .

بعد مسارات الطرق الأوروبية التي عبرناها بحرا وبرا، بقطارات وباصات وسيرا على الأقدام بين حقـول الحنطـة والـذرة أو حقـول الألغـام، المزروعـة منـذ الحـرب العالميـة الثانيـة، كـان مرورنا تأكيدا أزليا أن الإنسان كائن خطر مميت ومقاتل بالفطرة لا يمر عقد بدون أن يبتكر حربـا للتسـلية أو للمنفعـة، وبكـل الأحـوال النتيجـة موتى وجرحى ولاجئون، وسياسـيون وجـنرالات وتاريخ.

في كامب "هوبرنتيا1"، في اليوم الأول من شهر أكتوبر 2015، ألقوا بي في الغرفة 155، كما ألقوا بآخرين في مراكز متنافرة ومتقاربة، بتهذيب مصطنع، وفوضى إدارية وقلة تجربة واضحة في استقبال عشرات الآلاف من طالبي اللجوء، بيئة من المتناقضات الثقافية بين الوافدين أنفسهم وبين الفنلنديين.. العراقيون تعرفوا على بعضهم بعضا لأول مرة، ابن الجنوب العراقي تعرف على ابن غربه وابن شماله،تعرفنا على العربي والأفغاني والإيراني

والأفريقي، المنفى رصيف محطة كبير يسمح لك بالاقتراب من الاخرين ولمس حكاياتهم الحساسة خلال فترة انتظارك التي قد تطول لسنوات، ستسمع الآخر بوضوح ويسمعك هو أيضا.

وجدت نفسي في أعلى السرير الحديدي ذي الطابقين، لطيف احتل الأسفل، أُطل بقدمي عليه كلما هبطت أو ارتقيت السلّم، يقرصها مازحا، ترافقنا معا مذ كنا في قطيع المهاجرين الذي اخترق حقل الزمن, وقفز بليلة واحدة من العالم الثالث إلى العالم الأول، عبر جزر اليونان. حدثت هذه الثغرة بسبب تعاطف العالم الغربي مع مشردي الحرب السورية، التصق بهم لاجئو العراق المتكدسون في تركيا وكردستان، التصق بهذه الكرة البشرية الهائلة أيضا، وهي تتدحرج باتجاه الغرب، أفغان وإيرانيون وأفارقة وو و... للحروب ضحاياها، ومنافعها، قتلاها والمتعاطفون معهم، سخام سماواتها المحترقة، وضوء نفق الفارين منها، للبدايات الخضر أو المتجمدة حد توقف الزمن. تعارفنا ليلا على ما أذكر، أنا ولطيف، مصادفة في كرواتيا، تزحزح قليلا تاركا لي بضعة سنتمترات لأنحشر في قطار قديم مكبوس

بالبشر حد التصاق الجلد بالجلد والنفس بالنفس، شكرته، تحدثنا عن المدن القادمة والخوف من الجنود الهنغاريين الذين يعتقلون اللاجئين ويضربونهم بالهراوات كل مرة حاولوا اختراق حدودها، لا تقلق، سنمر "ترانزيت" عبر حدود كرواتيا، هنغاريا، النمسا، لن يوقفونا، هناك اتفاق جديد بهذا الغرض، أكد لي مطمئنا. تنملت أطرافي من الوضعية التي كنت عليها لمدة ساعتين، سحبني النوم إلى حيث لا شعور بالم أو خوف، صحونا في الثامنة صباحا، أين وصل القطار؟ سألت، أجاب لطيف: لم يتحرك من مكانه، صديقي، ما العمل؟ نزلنا، تشنجت أجسادنا ككرات مطاطية متيبسة، الدم محتقن ومزرق في عروق الساقين، التفتنا للوراء، تحرك القطار بعد خمس عشرة دقيقة من نزولنا، هرب منا... ركضنا لكننا لم نلحق به، سرنا بمحاذاة سكة الحديد لثلاثة أيام حتى وصلنا إلى كراجات تعج بالباصات المجانية للنقل إلى الحدود النمساوية، تتقاذفنا دوقيات أوروبا الشرقية، كل بلد يدفعنا كفضلات لا يستطيع تصريفها إلى الدولة المجاورة، متخلصا من مسئولية إنسانية واقتصادية، لسلسلة بشرية مليونية.

وصلنا أخيرا إلى فيينا، أكلنا خبز المنظمات المجاني، في محطة القطار المركزية، افترشنا الأرضية الباردة وحاولنا النوم على الأرضية الباردة، قبل أن يطردنا بأدب الحراس الأمنيين. عبر فرانكفورت، كوبنهاكن، ستوكهولم، وصلنا إلى فنلندا، أحترم تقليديته ويحترم حريتي الجنسية الغير متطابقة مع المجتمع وقواعده ورقابته.

لطيف طالب طب في المرحلة الثانية قبل الحرب الأميركية على العراق عام 2003 والتي لم تحسم بعد، بينما كنت في المرحلة الرابعة الإعدادية قبل الهجرة العظمى إلى "الأم" العجوز أوروبا.

يحثني سرمد على سرد كل مـا أشـاهد في جولاتي المسائية، يقول لي أن لي دماغا طازجا كالمندرين الحلو، وأن عليّ أن "أرعف" كـل مـا لدي، كما يرعف المصاب بارتفـاع ضـغط الـدم من أنفـه، ويشـعر بتحسـن بعـدها، وأن رؤيـتي خاصـة للحيـاة، بنظـرة عين القـط هـذه المـرة، أستفهم:

- سرمد لماذا القط تحديدا؟

- لأنه كائن حر، بري بطبيعته، اضطره الجوع ليكون في المنازل، مزاجه متقلب ولا

يرتبط بشخص، وفاؤه للمكان الذي يحب فقط، عكس الكلب، الكائن المتملق والتابع لصاحبه، كعبد، لا أحب الكلاب لسلوكها هذا ، مروان حدثنا عن أفكارك؟

- أؤمن بأن اثنين لا يموتان، الله والإنسان، وبأنهما يجيدان التخادم، بلا اتفاق شفوي حتى، كل طرف يكمل الأخ، ويمجده ويشكره، كمجاملة أو رشوة معنوية. أؤمن كذلك بالحب، كما تؤمن الشجرة بالشمس، أو نهر بمنابعه، كنت قبله قمامة لا تنفع حتى للتدوير، انتشلني, صار جسدي ومشاعري ,صار بالنسبة لي كائنا من هواء، دخانا أبيض، نهرا سريا، ، محا خطاياي ثم محاني، جعل من روحي لهبا أزرق لكن، وقبل أن يغادر نفخ من دون قصد فانطفأت،سقطت مرة أخرى سقطت للأعلى، سقطت للأسفل، بلاوعي وبلا جسد.

تل من الصور المتكسرة في عيني تزاحم سيل من الدمع، آدم كنت، الشغوف بالمعرفة، المغاير، المتحرك، المتمرد، الجريء، المستكشف لجغرافيا الإثارة، والمبتكر لألذ خطيئة وأكثرها تداولا، والمبتكر للتوبة كمضادها الحيوي، "تراند " المحتوى الإلهي، منذ ثلاثة آلاف سنة.

أتســـاءل، وأنـــا لا أبحث عن جـــواب، ولا أرغب فيــه، مــاذا بعــد؟.. أين تأخــذني مجــاري المدينة الليلية، كصرصــار مقلــوب على ظهــره، نكــرة، لا أحــد. إذا كــانت كــل الــدروب بــأذرع متشــابكة تســلمني لحيث أبتــدئ، فلن أنتهي من هذه المتاهة. شدني مرة من حــيرتي، قــال متسائلا: "هل جربت الخلاص بـالحب؟". "هـل لمن مثلي أن يحِب أو يُحَب" أســـــــــــأله... "الآخرون يستعملونني كل مــرة، الاســتعمال لا يعـني الحب، حــتى لـو كـان ذلـك متصـلا بألـذ مجسات الجنس البشري". رد بصـوت أسـمعه أنا فقط: "عليـك بـالحبّ، أنت تحب، إذن أنت حي".

شاشة الهاتف تضيء عبارة:

2016HELSINKI
001:30 AM
-21 - C

نــزلت في رصــيف 9 للقطــارp القــادم من فانتا باتجاه هلسنكي، تبدو محطة قطار باســيلا علبــة ســجائر هائلــة فارغــة، بمحاذاتهــا تجــري أعمــال إنشــائيات عملاقــة لبنــاء مــول تربــولي سيفتتح لاحقا في خريف 2019 صعدت ســلالم ثابتة تقود إلى جسر مغلف بزجاج من الجــانبين وسقف رمادي، يرشدني الgps اقترحَ عليّ باصًا،

استبعدت الفكرة لعدم امتلاكي تـذكرة أو أجـرة، اخـترت المسـير، ثلاثـون دقيقـة إضـافية في نصف متر من الثلج الـدافئ، تـابعت الطريـق، عبر شاشـة الهـاتف، خطـوط ملونـة مسـتقيمة ومريحـة، لا يشـبه الطريـق على أرض الواقـع، حيث ندف الثلج تخدش وجهي ووجـوه المـارة، هـل أسـالهم؟ عشـرون ثانيـة من فضـلك..، مسـارات المشـاة المقترحـة بـالتطبيق مغلقـة بأكوام الثلج، هل؟ لو سـمحت؟ فقـط أي اتجـاه هـو؟ يتخـاطفون كأشـباح رماديـة مسـتعجلة، للحـاق بقطـارات بيض أو باصـات برتقاليـة وأخرى زرقاء، أو عجالى لتلبية رغبـة النـوم قبـل أن تتلاشى، انزلقت مرتين وأنا أسـير بخطـوات سريعة، اتكأت على عمود نور كان ينشـر ضـوءه الأصـفر بكسـل روتيـني، خافتـا ومحرضـا على النعاس، مبنى 18 E، وصلت، أرسلت إليه "لقد وصـلت". "جيـد أنـك وصـلت بنفسـك ولـو متـأخرا". رد، " كـود بـاب العمـارة الإلكـتروني A22616 "هـل فتحت؟". "نعم". "جيـد، ادخـل بدون أن تستعمل المصـعد، سـيزعج الصـوت الآخرين، الطابق الخامس، شقة 9".أرن الجرس الصغير في خاصرة الباب، تتفحصـني عين من ثقب في وسط الباب، يمر صمت بطيء، قلق،

هــواء بــارد يهــز أطــرافي ورئــتي وقلــبي، يُفتح البــاب على مهــل، هــذه الثــواني تشــبه تلاعب المذيعين بإعلان نتيجة ما، أو كما تعتلي خشبة مسرح أول مرة، خوفا من المجهول، حــتى بعــد ســنة تقريبــا من الاحــتراف ومئــات الأبــواب، والمواعدات والمؤخرات بحلوها ومرها، ما زلت أنقبض كــل مــرة، أخــاف ولا أخــاف، أتــوتر وأنــا واثق مني، أرتجف وأنا المفــروض من ســيؤدي دور البطل في السرير بعد دقائق، أشتمُ نفســي ليس لأني بائع لذة، بل لأنني لا أعرف مــا أريــد، المــال؟ المتعــة؟ الحب؟ أنــا القمامــة الــتي لا تصلح للتدوير، "الكوندوم" المســتعمل بشــهوة وملقى جانبا، بعدها، باحتقار.

ينتهي الأمر فجرا عادة، عندها أعود كل مرة، متثائبا بصمت لكي لا يصحى الآخرون، غير مكترث لفوضى الملابس التي أصبحت عليها، الشعر المنكوش والجوارب والأزرار غير المتطابقة، أتحسس متأخرا جيوبي، كل شيء معي، هاتفي المطفأ، المحفظة، شاحن المحمول الإضافي، أكياس الكوندوم الملونة، نقصت ثلاثة فقط، تلتصق علكة بين أصابعي، كنت نسيتها في جيبي. أشغل سخان الشاي الصغير، يصدر صوت بقبقة فأطفئه، لم يسخن

شايه بعد، أراقبهم نياما، سعد، سرمد، أمير أو لطيف ,قبل أن ينتقل إلى الشقة المؤجرة بلا عقد قانوني, أبلع الشاي نصف بارد، أندس داخل اللحاف، مرهقا من السهر، باحمرار في الرقبة، نتيجة مص أو عض من أحدهم عند هياجه الجنسي، تستمر ثلاثة أيام، كخنفساء كبيرة ملتصقة، يبتسم الجميع عندما يرونها، وتصلهم الفكرة.

يجتمع تاج الدين الصومالي وصالح وشياوالكوردي معنا في جلسة شاي في الغرفة، يتسيد الجلسة سرمد،بنظارته ذات الإطار الأسود السميك وعدستيه المدورتين، يشرق ويغرب بالأحاديث بينما ينصت الآخرون مندهشين لسعة معرفته و(خلفيته الثقافية).شددت على هذه العبارة الاخيرة , التقط سرمد المعنى الضمني, فركلني مازحا:

"مـــروان أبـــو الحلـــوين، صـــاير مهتم بخلفيتيي, لك ابو ال...".

أنزوي قرب النافذة، مثل علبة كولا منبعجة لا تصلح حتى

للاســتبدال، أقلب منصــات تطبيقــات المواعدة الخاصة بالمثليين، ربمـا أسـترزق بمـا يدفع أحدهم. سرد الجميـع ملحمـة عبـوره بحـر

إيجة، فعلوها مرات ومرات، من الضجر وانتهاء مواضيع الحديث، حـتى صـرنا نكمـل سـيناريو العبور إلى اليونان أحدنا للآخر:

- وأنت مروان كيف عبرت؟ سألوني مرة.

اعتدلت في جلستي:

ـــــ مثل أي واحد منكم,نفس القصة بفرق بسيط.ارد,أتذكر بصمت..

" نُفخ القارب أمام أعيننا، عند الساحل التركي، ثُبِّت في مؤخرته محرك ياماها، خمنت أنه يتسع لعشرين شخصا فقط، دُسّت الواح فلّينية خفيفة في أرضيته، ابتسمت وأنا أفكر: هل من الممكن لقبر أن يكون مطاطيا كقارب؟ تجمّع الرجال وبعض النساء بالقرب منه، صاح فيهم المهرّب: ارجعوا ارجعوا. استل شاب في العشرينيات من بيننا، سحبه من ذراعه، لم يمانع، يبدو أنهما يعرفان بعضهما بعضا، خمّنا ذلك من الابتسامة المشتركة. دفع مساعدو المهرّب القارب إلى البحر، عامَ بخفة تحت شمس سبتمبر عند الثامنة صباحا، ابتعد القارب والشاب والمهرّب قليلا عن الساحل.. إذن كانوا يدربون الشاب على القيادة، المهرّبون لا يعبرون البحر، كحفار القبور والدفَّان يرسلانك إلى العالم الآخر ولا يذهبان معك. عادوا بعد

نصف ساعة، ينص الاتفاق على أن من يقود القارب لا يدفع مبلغا للمهرّب، يبدو عمر الشاب دون الخامسة عشرة عن قرب، تدافع الرجال والأطفال والنساء إلى القارب، أربعون جسدا أنانيا، كلا يبحث عن خمسة سنتمترات مربعة ليضع مؤخرته عليها خلال هذه الرحلة، تحصل مرة واحدة في العمر، عادة، كالولادة أو الموت، حاملين أطواقا وسُتر نجاة برتقالية، يبدو المنظر تشكيليا، جسم بيضوي أزرق محاط بأطواق برتقالية. تكدس الجميع بعضهم فوق بعض، فشل السائق الشاب في القيادة، مرت نصف ساعة وهو لا يقوى على اختراق الأمواج، صار القارب يدور حول نفسه. أرسل المهرّب مساعدة إلينا في وسط البحر، يبدو كـ "ماوكلي" بلباس داخلي فقط، إلا أنه يبدو سمكة كارب وهو يعوم. عالج الأمر، استبدل الشاب بآخر كردي من سوريا بعضلات بارزة، انطلقنا نحو الضفة الأخرى، يعبث الموج بمصائرنا، ويراقب نبتون ذلك عن كثب، أطلقنا صرخات، يا الله، يا مسيح، يا زاردشت، سنغرق، وصل الماء إلى منتصفنا، كنت مرتاحا، مستمتعا بمنظر البحر والنوارس والشمس كسائح مستلق على الشاطئ،بفضل

الويسكي.وصلنا تبادلنا التهنئة بالسلامة،اتصل كل بأهله، مزقنا جوازاتنا,القيناها باتجاه الماضي،وانطلقنا إلى المستقبل .

كل مرة اتسكع فيها أتخيل نفسـي كطـائر أبو الحناء النحيـل، بمحفظـة فارغـة، وقضـيب للإيجار، أحط وأطير بين أشجار تغير أثوابهـا كـل موسـم، سـكك القطـارات فارغـة، شـرفات مرتفعـة، أحـط منتظـرا عنـد أبـواب المبـاني المغلقة الـتي أحلم أن أسـكنها يومـا، لازلت بلا أوراق إقامـة, مـازالت رقمـا لا أكـثر في مكتب الهجرة ببيروقراطيته التي تمط الثانية إلى سنة، واليوم إلى قرن. لتعـويض هـذا, صـرت طـائرًا، هكـذا أصـبحت منـذ فـترة ليسـت بالقصـيرة، تفتح لي الأبـواب، النوافـذ والأفخـاذ، آكـل وأشرب، وحين يشـعرون بالملـل، يفتحـون لي النافـذة أو البـاب لأحلـق خارجـا، هكـذا تعمـل الطيور في المنازل، تجلب لغـرض مـا، مؤكـد، للتسلية، أو التزاوج، لا أحد يطعمها ويعتني بهـا للاشيء.

حصل في شقة غريبة الأطوار، تحتل جدارا كاملا رسمة برتقالية "لكارنيشا ", إله هندي برأس فيل, بينما تنبعث موسيقى موترة،

وبخور غريب يعبق في المكان نصف المظلم, صفعني بالسؤال الوجودي المكرر نفسه: من أين أنت؟ أحدث نفسي "لم آتِ من زحل على الأقل, المتعة مجردة بلا هوية, متى يفهم الاخر ذلك ".

ـــ أنامن هلسنكي. مجيبا بمراوغة واعية، أقرأ أدمغتهم تفكر،" هيئتك لا توحي بأنك من هلسنكي، ولا أوروبي الأصل".

ــــ عفوا،أقصد منشأك قوميتك، من أين؟ يوضح لي.

ـــــ من العالم. أرد بعمومية ثم بسخرية مريرة.: لدي قماشة صغيرة تحت الخصية اليمنى، كما في الدمى القطنية، مكتوب فيها، made in china، كلنا لدينا هذا، كلنا سلعة بشرية إلى حد ما، بمنشأ مقلد. نجحت الصين في توحيد استهلاكيتنا بينما فشل ماركس في ذلك.

ـــ هل تشرب شيئا؟.يغير الحديث,مستسلما لفذلكتي، لاجل الجنس.

ـــ حسنا، إذا كانت قائمة الضيافة لا تحوي بيرة، أطلب قهوة، يمد رأسه متسائلا من المطبخ، "بالحليب أو بالسكر؟"

ـ كما تحب دودي. أجيب مستلقيا على

السرير، لا أشربها عادة، تبرد في مكانها بينما نسخن نحن الاثنان. يقترب مني، متحسسا عضلات بطني براحتيه، يهبط للأسفل حيث السحّاب، راسه يفكر هكذا:
"هل سيطابق حجم القضيب الذي أرسلته عبر الماسنجر مع الواقع؟" لا أخيب ظنه، ألعق رقبته حيث الصبغات البنية الصغيرة كحبات السمسم، ألعق وجهه وشفتيه، يبدأ العرض، يحضنني، نتبادل قبلة طويلة ولعابا فمويا.
أتفحص خامة جسده من الأعلى إلى الأسفل، تتعارف بشرتنا على بعض، تفعل ذلك ملابسنا الداخلية الملقاة على الأرضية المخلوعة. أعتلي جسده كفارس تدرب كثيرا، أذني في لسانه أو لسانه في أذني، أمص إحدى حلمتيه، داخل ثقب مؤخرته الرطبة والدافئة يجوس إبهامي باحترافية، يكمل قضيبي المهمة، ينتهي الأمر بالـ ببغ بانغ الحيوي. الجزء الثاني من العرض يكون بالعادة جنسا فمويا، أستلقي على ظهري مرهقا قليلا، يلتهم ذكري، الألم خفيف بعض الشيء، أحتاج لوقت للقذف، يبتلع الصمغ الذكري بسعادة.
سألت أحدهم مرة :"ما طعمه؟". رد: عليك أن تتذوق بنفسك.. كان متجها عاريا نحو الحمام

ينقط المني من شفتيه:

ـــ يعتمد ذلك على نوعية الطعام، بعض الرجال بمني زنخ كسمك ميت، لكن لمنيك طعم الكستناء، قال لي شاب في العشرين يشبه قطا أصفر. فكرة ممتعة أن يكون فمك جهاز تحليل منوي، أكملَ وهو يلحس ما تبقى على شاربيه وأطراف شفتيه".

-ارفض مجـرد التفكـير بـابتلاع مـني الآخـرين، أقولها بتقزز..

يجلس قبـالتي عاريـا، يتحـدث بحكمـة لا تطابق ما حصل من جنون جنسي قبل دقائق.

- اسمع، فكر بالأمر هكذا، هـل تتقبـل أن يتـف أحدهم في فمك؟ طبعا لا، تتقزز، تفكر بعقلانية بأمور البكتريا والصحة، لكنك تستسـلم لـذلك، في قبـل طويلـة ومص لسـان، حالـة الهيـاج، تتبـادل لعـاب عشـرات الأنـواع من البكتريـا الفموية، يحصل لك هذا كل مرة، بـدون قـرف، الرغبـة هي حقيقتنـا وحيوانيتنـا الـتي يجب أن نسـتعيدها، المناعـة الطبيعيـة الـتي أضـعناها بسبب الحضارة، كلمـا عـدنا إلى حيوانيتنـا كنـا بصحة أفضل، صدقني ، أنصحك بـأن تجـرب، ابدأ بمنيـك أولا سـتجد الأمـر مثـيرا، تحـرر من الإنسان الشرقي في رأسك، اتفقنا؟

- نعم نعم ربما لاحقا. أرد مبتسما بمكر.

إذا حصل والتقيت هذا الشـخص أو غـيره بعـدها مصـادفة. سـيتجاهلني، كمـا يفعـل الآخـــرون، بالحقيقـــة لن تمـــيز زبائنـــك من الفنلنـديين نهـارا، يسـيرون بقامـات منتصـبة وخطى مسـرعة، يسـرعون إلى مكـاتب وثـيرة ووظائف محترمـة صـباحا أو يتبضـعون مسـاء من علامات تجارية شهيرة، لو قابلتهم مصادفة لن يحيـوك أو يلتفتـوا إليـك حـتى. كنـا نعمـل كـورق مـراحيض، نمسـح المـؤخرات ثم نُلقى، نستعمل لمرة واحدة فقط.

في فنلندا تُجرّم حرفة القوادة على الأشخاص، لا ينطبق هذا على التطبيقات الجنسية، وما أكثرها، لأنها قوادات رقمية، لا يجرم القانون التكسب الجسدي بالاتفاق على أن لا يلحق ذلك ضررا أو عنفا بطرف ما، لا يعد ذلك رسميا أو تجاريا لذا لا ندفع الضرائب. لربما نخاطر بتلقي العدوى بالإيدز والسفلس وغيرهما من الأمراض، باللعاب، بالتماس في منطقة العانةاوتمزق الواقي الذكري أثناء الممارسة. يمر يوم وشهر وسنة، يحدث الكثير في العالم بينما تتوقف مصائرنا على قرارات دوائر الهجرة وبيروقراطيتها البطيئة عن قصد،

لندفع إلى بلدانا طوعا، أو إلى أحضان دولة أخرى في القارة البيضاء.

حل صيف آخر، يخرج القط الـذي بـداخلي مســـاء ليبحث عن كـــرة الصـــوف أو كـــرات مــؤخرات طلبــا للعبث والمــال والاحتكاكــات المثيرة. التاسعة مساء الشمس مشـرقة كأنهــا وقت ظهـــيرة، فـــوق جســـد المدينـــة وقمم أشـجارها ومبانيهـا يسـتمر هـذا حـتى السـاعة الحاديـــة عشـــرة مســـاء بتـــوقيت العاصـــمة هلسـنكي ومقترباتهـا. أمـا الليـل فلا يعـدو أن يكون ظلاما خفيفـا كـزغب مراهـق نبت للتـو، ضوء قمري ناعس، كمصابيح النوم، يعود النهار سريعا بعدها عند الرابعة فجرا.

يعمل بـالتوقيت الصـيفي، سـاعة وهميـة للوراء. في الحقيقة كـل السـاعات كـذب مقنن ومتفـق عليـه، منـذ بابـل الـتي ابتكـرت اليـوم والشهر والسنة. قد يكون هذا مفهوما لارتباطـه بحركة الشمس، لكن مـالم أفهمـه إلى الآن هـو اخـــتراع الأســبوع، لم لا يكـــون أثمـــون مثلا، أو أتسوع، علما أن بعض الشـعوب القديمـة كـان أسبوعها تسعة أيام.

وأنا مستغرق في التفكير هكذا، تجاوز الباص العنوان الذي كنت ذاهبا إليه، نزلت في

الموقف اللاحق, تحيط بي عمارات زجاجية حديثة، تشغلها شركات عالمية، لاحظت شعار مايكروسوفت بينها، تطل على ساحل ساحر تراصفت الزوارق الشراعية واليخوت في مرسى نصف دائري. تكتظ المنطقة بأعمال الإنشائيات، الطرق التي يفترضها gps مغلقة, انها منطقة Keilaniemi ,عشرات السيارات تتخاطف مسرعة، باتجاهين متعاكسين، كنت أسمعها أكثر مما أراها، ثمة جذوع أشجار قليلة متبقية، بينما سُويت نصف غابة بالأرض. غير بعيد كانت مكائن الحفر العملاقة تدق ركائز في الأرض، دممم, دممم، أسمع ذلك مختلطا مع صوت حادلات وشاحنات تنقل مواد رصف طرق وأنابيب كونكريتية بقطر هائل، يمكن أن تمر منه شاحنة. هناك لوحة تشير إلى أن المشروع يعمل على توسعة خط مترو هلسنكي باتجاه ماتنكولا حيث مول "التفاحة الكبيرة "الجديد.

وصل أخيرا بسيارته البي ام دبليو الرمادية، يبدو أنه يعمل موظفا هنا في إحدى شركات تقنية المعلومات التي حولنا، من الأغنياء كما يبدو، سيكون هناك ويسكي على الأقل. هكذا تحمست، أسكرتني الفكرة،

جلست في المقعد الأمامي، انطلق صفير، أشار لي أن أربط حزام الأمان، حسنا، انطلقنا، ، لم نتبادل الكثير من الحديث حينها، لا يبدو مهتما بي، نظراته مبعثرة في كل مكان ما باستثنائي أنا، ليس مثليا، أشم رائحة أنفاسهم، لماذا استأجرني إذن؟ في مشوار حياتنا القصير نسبيا والسخيف كنكتة بلغة لا نتكلمها، كل التوقعات مفتوحة وأكثر. وصلنا إلى منزله بعد عشرين دقيقة، فيلا على طريق ماتينكولا، محاطة بحديقة ظللت أشجارها الممشى الداخلي، جلست في قاعة واسعة، على أريكة من الساتان الأخضر، صنعت الستائر منه ، جاء لي بكأس نبيذ منعش ,كسر الجليد,تحدث:

- أراك قلقا، لم أخدعك عندما تواعـدت معـك، لكن دعني أشرح لك، أنت بعمر.. كاد أن يقــول "ابـني". قاطعنـا دخـول شـاب في العشـرين، بنفس سني تقريبا، بدا نحيلا جدا ببشـرة ذابلـة وشعر طويل أشقر، له عينان سماويتا اللون، إلا أنهما غائمتان بحزن ثقيل، صافحني مبتسـما.. مد يده مصافحا وهو يسعل:

- اسمي توبي.

صافحته: "مـيرو، اسـمي مـيرو، تشـرفت بلقائك". ثم تساءلت:

- ما الحكاية، لماذا طلبتني؟ لا أعتقد أنك مهتم بي، أليس كذلك؟

نظـــر أحـــدهما إلى الآخـــر: "اهـــدأ، اهـــدأ، سأشرح لك". قال "الزبون" بينمــا اكتفى تــوبي بملاحقتي بنظراته كمــا يتفحص صــبي دراجتــه الجديدة. أشار لي أن أجلس وأهدأ، جلس تــوبي بجانبي:

- سأجري معــك اتفاقــا، وفي كــل الأحــوال لك حرية القرار، سأعطيك ما اتفقنا عليه، حــتى إذا رفضت، سأعيدك بسيارتي إلى حيث أتينـــا بكل الأحوال، لكنني أرجوك وأتمنى أن توافـــق، أكمل عبارته بتسول وإصرار غريب.

- لا أفهم، بدأت أقلق اتفقنا على...

ونظـرت إلى ابنــه تــوبي، كأنمــا أقــول هــل يعرف ما طلبت مني؟ أكملت عبــارتي بعيــنين زاجـــرتين: "إذا كنت تنـــوي إيـــذائي كشـــخص عنصري ضد مهاجر فردة فعلي ستكون منفلتة. أنا أحذرك".

- لا لا ليس هذا.. اطمئن، سأشــرح لــك الأمــر.. اسمع..

خرجت من هناك، كنت أمسح تعرق وجهي بيدي، بينما قلبي يهرول هاربا من صدري كجندي جبان. حدثت نفسي:

" مذهل انت يا الله, تضعنا في دراما متجددة، كم أنت بارع في الحبكات التي تصنع،ربما كان يجب أن تنال جائزة نوبل للآداب.

عـدت للكـامب، كـان لطيـف وسـرمد في الغرفــة يشــربان شــايا بالهيــل، ســلمت على لطيف بحرارة، لم أره منذ مدة، بسبب انشـغاله بالعمل، لاحظا ارتباكي وحيرتي، "ايش بيــك".. قالا بصوت واحد. صمتُّ قليلا، عضضــت على شفتي السفلى المتشـققة، قلت مـا لـدي مـرة واحدة: "اليـوم.. تلقيت عرضـا مهمـا، يتضـمن سـكنا وربمـا أوراق إقامــة.. مقابـل..". وعـدت لصمتي المتقطع.

أثار ذلك فضولهم: "احك.. شصار؟".

أخــبرتهم عن العـرض، كــان تـوبي مثليــا، مصابا بالايدز، حـاول أبـوه إسـعاده، بـأي ثمن، قبل أن يفقده للأبد.. أراد مـني أن أكـون "بـوي فرنــد" مــؤجرا، عــرض مفتــوح، أراني أوراقــا مترجمة للعربيــة والإنكليزيــة، تؤكـد أن لا خطـر عليّ من الإصابة إذا استعملت الــواقي. عـرض علي توقيع إقـرار بـأني أعلم بـأن تـوبي مـريض بالإيدز، حمايته له ولي، تفهمت مشاعر الأبــوة، أشفقت عليهما، لكن... أنـا هـارب من المـوت

في شــــوارع بغـــداد وســـياراتها الملغمـــة ومليشياتها، يعني اموت بسبب طي...ز.

قهقــه ســرمد: "الرجــل أكــد لــك مــاكو خطورة,بس أنت جبان".

حل الشــتاء، كــان يغـير ملابسـنا كـل مـرة للأثقل، ومزاجنا كذلك، بينمـا لا يغـير مصـائرنا بشيء يذكر. استلمت الـرفض الأول، قـالوا لي أن بغـداد آمنـــة للعيش، وإذا لم أتمكن عليّ أن أعيش في أربيـــل أو الســـليمانية، قـــالوا هـــذا لكثيرين من قبل وسيقولونه لأكثرنا بعـد ذلـك، يحصل بعض طالبي اللجوء على إقامة، هم من بغداد أو مـدن عراقيـة "آمنـة" أخـرى، أسـالهم: "هـــل بغـــدادهم تفـــرق عن بغـــدادي؟" يـــأتي الجواب: "لا. الإقامة تمنح لمن يتعـرض لخطـر شخصـــي". "لكنكم بـــررتم رفضـــي بحجـــة أمن المدينة، لما لم تعتبروا الأمر خطر شخصي كمـا أخبرتكم؟". لا أحد يجيب لا أحد يهتم.

كــل شــهر تمطرنــا دوائــر الهجـرة بـأوراق الــرفض حــتى تكدســت في حقائبنــا، صــارت تكفي لصنع كتابًـا. قـال لي المحـامي: "اسـمع هذا رفضك الأول، سنحاول استئناف القرار، أو الطعن بـــه من المحكمـــة العليـــا، بالمناســـبة، تحتاج لقضية جديدة أقـوى". لم أفهم. سـألت:

"هل تقصد فبركة قصة ما!". رد علي متملصا: "حكايتك السابقة انخفضت نسبة قبولها إلى عشرين بالمئة، فكر بالأمر عزيزي، يمكن أن تطلب إقامة عمل أو زواج، أو أشياء أخرى".

- ماذا لو أخبرتهم أنني مثلي، وأنني لا أستطيع أن أعيش في العراق؟

- هذا أفضل طبعا، هلسنكي تطمح لأن تكون عاصمة عالمية للمثليين، برايد ستي. علينا أن نعمل معا على هذه القصة.

قال لي هذا واقفا، وصافحني مستعجلا في الخروج من مكتبه.

حل ربيع آخر، بلا مستجدات، الكامب جثة كبيرة متعفنة يموت كل يوم جزء منها أو يُبتر بالطرد والترحيل والهروب إلى مدن أوروبا الأخرى. سرمد مشغول دائما بالمناسبات الثقافية التي دأب على حضورها مؤخرا، مستعيدا شيئا من حياته السابقة ولو بنسخة باهتة، صار يجهز مسودة يقول إنه سينشرها كرواية لاحقا عن أفراد الكامب، أشار مرة وهو حريص على الكتمان إلى العنوان: "دولة طالبي اللجوء العائمة"، عنوان غير جذاب، ربما سيغيره لاحقا. كنت قد أكثرت من المواعدات، صارت بين يوم ويوم. لتعزيز حكايتي الجديدة،

انضــممت إلى منظمــة LGTBQ، كــانوا ودودين ورحبـــوا بي كمناضــــل في مســــيرة الحريـــة الجنسية، الحب يوحدنا كما الماء والهواء يوحـد احتجاجاتنا، يا مثليي العـالم اتحـدوا، كم كـانت أهـــدافنا عظيمـــة في المنظمـــة. على ســـبيل المثــال يقبّـل أحـدنا شـريكه المثلي في العلن، بحرية من دون نظـرات الفضـول من الآخـرين، كمــا يعامــل العــاديون، أن يخصــص تــواليت خاص بنــا، مســاواة بتــواليت النســاء والرجــال, تــواليت بلا علامــة جنس محــدد,كــانت لــدينا أهداف كثيرة، حلمنا بأن نحكم العالم، أو المجرة يوما ما. آه، كم كنا حــالمين، آه، كم هــو صـعب طريـــق البروليتاريـــا المثليـــة، كم هي عادلـــة قضيتنا!

بعد عشاء الكامب الجماعي الفقير، بطاطا مسلوقة ورز نصف ناضج ولبن، والذي ينتهي موعده في السابعة، تدور عقارب الساعة بجوع شتائي ثقيل، عند العاشرة تحديدا وبسبب ضعف وجبة العشاء يجوع الشباب، لو تركوا سيأكلون الأبواب والآخرين.. أهمس لصوفي الموظفة الطيبة ذات تسريحة الشعر السبعينية(دالاس ستايل)، تبدأ الحركة السرية في الغرف، تشعر وأنت في بداية الطابق أن

ثمة مؤامرة تطبخ بالدخل، يتسرب من شقوق الأبواب رائحة البيض المقلي والطماطم، تغطي حتى على رائحة الأحذية الأزلية وهي مرصوفة في رفوف معلقة قرب أبواب الغرف، يمنع الطبخ في الكامب، يستعين الجميع بجهاز تسخين كهرباء بعين واحدة، يشغل سرا لطهي البيض أو الرز، ثم يخفى جيدا، لا يملك الجميع هذا الترف، بعضهم يستهلك نقوده التسعين يورو بالتدخين، بعض الغرف ضبطت لعشرات المرات وهي تطبخ على الجهاز، كان يصادر كل مرة، حتى استسلموا وباتوا يأكلون معلبات التونة الجاهزة، التنسيق الجيد يعني عشاء إضافيا جيدا، الخطة كالآتي، يراقب أحدهم باب الطابق، يقف هناك ويدعي أنه يتصل، بينما تنشغل خلية الطبخ بعملها، إذا صادف وجود دورية تفتيش يرسل لهم رسالة عاجلة، سيكون عليهم إخفاء الجهاز والطعام، كأداة جريمة يستدل على أن هناك جهازا مخفيا، خلال نصف دقيقة فقط، تنجح الخطة، بالغالب، يستمتع المتمردون بوجبة دجاج بالرز "برياني"، وشوربة عدس عراقية ساخنة.

- "بسرعة اجت شمشوم". صاح أحدهم، اختفت القدور الصغيرة وقشور البصل

والبيض، ومصفاة الأرز. تمتلك "شمشوم" هذه, واسمها الحقيقي مايا ، حاسة شم خارقة، تميز نوع الطعام والغرفة ومن فيها عن بعد مئة متر وأكثر، كانت حارسة أمنية خمسينية بشعر أشقر طويل وجسد ممشوق تختال ببذلتها الرسمية,يسمونهااحيانا"الديك".

كل ما مرت، تصطفق أبواب الغرف برعب الجوع، يُخبأ الجهاز جيدا.مرة اقتحمت غرفة، جميع أبواب الغرف بلا أقفال، دس الشباب جهاز التسخين تحت السرير وبما أنهم مرتبكون لم يفصلوا الكهرباء عنه.. "لا يوجد شيء".. تفحصت بعينيها الحادتين، وأنفها الكلبي الغرفة، وعندما كانت تغلق الباب كان الدخان يتصاعد من أسفنج السرير. صرخ جهاز الإنذار، أُخلي الكامب في دقائق، في الشارع تثلج بغزارة وتنخفض الحرارة إلى ما دون العشرين مئوية، شتمنا جميعنا من تسبب بذلك. تبين لاحقا أن لشمشوم مخبرين سريين يزودونها بأرقام الغرف التي تطبخ ليلا، بينما تمثل أنها تشم رائحة الطعام، لتحمي مخبريها,بالمقابل كانوا يحصلوا على ملابس واحذية مستعملة كان يجب ان توزع علينا بالتساوي دون حاجة "لخيانات".

كتب سـرمد مقالـة مُـرة عن الشـلة، كـان جادا، نشرها في موقع الحوار المتمدن، الموقع العـربي الشـهير، عنـدما قرأناهـا ضـحكنا على أنفســنا في العلن وبكينــا في داخلنــا على مــا وصلنا إليـه، كنـا نُهـرس في مـؤخرة هلسـنكي الصلدة كل يوم.

الرابطة الدولية للمهن السريرية"

بقلم :سرمد الطاهر.

تشكلت هذه الرابطـة لسـد نقص المـوارد المالية من جهة اللاجئين ولسد نقص هلسنكي لمذاقات الفحولة الشـرقية, في مقابلـة خاصـة التقيت أحد أعضاء هذه الرابطة، من مؤسسيها وأيقوناتها، شاب في العشرينيات ساخن جـدا، بقضـيب 22 سـم، وبطن ومـؤخرة مشـدودتين نســبيا، سنســميه M، يلقبونــه "ميســي" الحلـوين، سـألته: "هـل تفكـر يومـا بـالاعتزال ميسي؟". أجاب: "حسنا في ذلك اليوم، عنـدما أفقــد احترافيــتي، عنــدما أقــع في الحب، سأفعل، وأعلن اعـتزالي. ولـو تشـمّت بي" أبـو حمرا" و"أبو عقرب" و"أبو حية" وجميع أعضــاء البورد الإداري في الرابطة السريرية .

سرمد: من هو مثلك الأعلى؟
- كوستا، ممثل البورنو الأشهر، بقضيب كـذراع طفل ذي عشر سنوات، يقال إنه يجعل المـني يخرج من أنف الزبون وأذنيه.
- ما أطرف موقف مر بك؟
- كانت مواعـدة مـع أحـدهم، في السـرير تـبين أنها فتاة متحولـة إلى ولـد، ترانسـفير. اعتـذرت منها، هذا غش، اتفاقنا كـان "المـؤخرة" وليس الفرج. قالت إنها مستعدة لكـل شـيء ومن أي ثقب أختار. أحسست بأنوثتها، تغـيرت النكهـة عليّ، فقدت الانتصاب، أرجعت لها الخمسـين يورو وانسحبت من السرير.
- سؤال محرج قليلا، هل جربت العكس, أقصد أن ينيكـك أحـدهم لتنضـج تجربتـك؟اقصـد حبيبك R
- stooop، سرمد، مـا أسـمح لك. لم اكلم سـرمد لمدةأسـبوع بعـدها.

حرصـت على اختصـار اسـم (ريكـو) بR، في سجل الأسماء في الهـاتف، اعتـدت ذلـك، صرت أناديه به بصورة عفويـة. "حسـنا، مـروان سأناديك M لنكون متعادلين , أتفقنا؟". قال لي بمحبة.

الساعة العاشرة مساء، ليس هنا عتمة في سماء هلسنكي حتى الآن، كان الأمـر سـينتهي كغـيره بمواعـدة جنسـية لسـاعة أو سـاعتين، وكذبــة (فلنبــق على اتصــال)، لكن... كــاتب السيناريو... أيا كان من يكتبه، المصـادفة، اللّه، أنا, الآخرون, حدثت الالتواءة هكذا..

جـاء لاصـطحابي من محطـة المـترو في هــيرتونيمي، من ضــواحي شــرق هلســنكي، كانت شمس منتصف الظهيرة "متسـيدة" في أفق أزرق بلا شوائب، ممسكا دراجته الرياضية، واقفا قرب موقـف الباصـات في بـاب محطـة المـترو، ميزتــه سـريعا. اتجهت إليــه، عرفـني، حيـاني بـود حقيقي، أربعيـني بجسـد رياضـي، ببشرة مشربة بحمـرة، حلـق جيـدا قبـل دقـائق على ما يبدو: عينـان زرقـاوان كلهب غـاز الطبخ وشـعر بـني خفيـف، بابتسـامة بيضـاء حقيقـة وساحرة، يرتدي شورتا أخضر كشف عن ساقين بعضــلات بــارزة مُـرّنت جيــدا، بينمــا كشــف قميصــه نصــف المفتــوح عن صــدر مصــقول كرخامة ملساء: "كيف حالك؟ أتمنى أن لا أكون قد تأخرت عليك. آه، عفوا اسمي ريكـو". عـرّف نفسه باسمه الحقيقي.

- هاي، اسمي ميرو.

- لستMM إذن؟ كما في تطبيق المواعدة؟
- على أية حال...، هل تسكن قريبا؟ تساءلت.
استقلَّ دراجته وطبطب على مقودها:
- نعم قريبا جدا, بضع دقائق, اصعد خلفي, تمسك بي جيدا.
ارتدى خوذة دراجته التي كانت معلقة على المقود, أردف:
- كم أنا غبي, كان يجب أن أجلب خوذة لك, اعتذر لك.
بدا الأمر كأننا صديقين في نزهة أو تسكع صيفي، بدأت رائحة رطوبة بحرية تعبق في الجو ونحن نقترب: "هل يوجد ساحل قريب؟" سألت. "بالطبع يوجد مرسى بحري، ويخوت شخصية، سيكون المنظر أجمل من خلال شرفة منزلي، انتظر قليلا".
أنزل الدراجة إلى المخزن في الطابق الأرضي، صعدنا بواسطة السلم، إلى الطابق الثاني، لمبنى من ثلاث طبقات، يشبه مجموعة أخرى من المباني حوله، شقة فخمة بإطلالة بحرية، مصممة كـ"سويت" فندقي, بدت من الداخل أروع منها من الخارج، غرفة جلوس فارهة أخفت مطبخا حديثا ورائعا مفتوحا في خاصرتها، النوافذ بإطلالة بانورامية

على الشرفة الممتدة بعرض الشقة، كان مغلفـا بزجـاج قابـل للحركـة جانبـا. "واووو" قلت مـع صفير.

فتحت الباب وجلسنا في الشـرفة، أرائـك من الخيزران ومنضدة عليهـا علب بـيرة فارغـة ومنفضــة سـكائر ممتلئــة حــد تســاقط بعض الأعقاب من فمها المستدير، استنشقت رائحة البحــر فتحــركت الســمكة في داخلي. أشــعل سيكارة لـه: "هـل تـدخن؟" قلت "نعم". "هـل تشرب شيئا؟"سألني مجددا."ربما لاحقا", ارد.

وقفت عنــد الحــواف الزجاجيــة للشــرفة أستمتع بمشهد اليخوت البيض المزدحمة على المرسى، بينمـا النـوارس تحـط وتهبـط حولهـا. سألني: "هل تحب أن نتكلم أم أتركك تسـتمتع باللحظة".

كنت قد نسيت لماذا أنا هنا أساسا،"ليس الآن.." قلت لـه واسـتغرقت باسـترخاء وراحـة افتقدتهما منذ سنوات. تحدثنا عن كـل شــيء، بـدا لي أقـرب كمـا لـو أنـني أعرفـه منـذ عـدة سـنوات، ضـحكنا لنكـات فنلنديـة وعراقيـة، قلناها لبعضنا بعضا، إحداها: "مـا وجـه الشـبه بين قضيبي والكلاشنكوف؟. سـألني."هممم لا أعرف,كلاهما يقذف".

هههههه.. قهقه ضـاحكا، كـانت هـذه نكتـة الموسـم في هلسـنكي. "طيب مـا الشـبه بين قضـيبي ووجهـك ريكـو؟". قـال: "لا أعـرف". قلت"كلاهما يحتـاج لفـازلين دائمـا". هههـه. استلقى على بطنه من الضحك، بالحقيقـة، أنـا من فبرك هذه النكتة حينها, كـانت سـخيفة الا انها أعجبته.سـألني وهـو ينفث نفس سـيكارته الثالثة قرب الشرفة .

- هل تواعد أخرين , اقصد عرب أو اي جنسيات اخرى ؟

استدرت,جلسـنا متقـاربين على مقعـد من الخيزران ماركة jysk:

- لا, ماذا عنك؟هل واعدت عراقيين أو شرقيين من قبل؟

- همم...بالحقيقة نعم. لم أستمتع، ينتهي الأمر سريعا، بأنانية، أنتم، آسف لـ "أنتم"، أنا لسـت عنصـريا جنسـيا، لكنكم متعجلـون جـدا. يبـدأ أحـدكم من نهايـة القصـة، كعـرض معكـوس، يقـذف سـريعا، ثم يطلب مداعبـة، تعلم هنـاك الكثـير والكثـير من الجنس لا ينتهي بقـذف، الطريق إلى اللذة هو اللذة نفسـها، مـاذا عنـك؟ سألني مباغتا.

- أنـا عـراقي، شـرق أوسـطي بـالتعميم، مـاذا تتوقع؟

أجبته بعصبية ممسرحة.

- لا ليس هكذا، أنا لاأقصد التمميز العرقي طبعا, الثقافات متفاوتة جنسيا، بالنسبة لي فان العاطفة هي الأهم،التوافق، أبحث عن الرغبة المشتركة، الالتماعة الموحدة في العين، الراحة الكسولة للطرفين..

ـ وأنا كذلك .أجبتـه ونحن متعانقـان، كنت مهتاج بانتصاب وأنا أتحدث, انعكس ذلك في عينيه، يمسح بكفه الأيمن ظهري مداعبا، كنت أفرك صدره، برغبة حقيقية,تنهد ببطء.همست بفمه.

- أنت سـاخن و رومانسـي ريكـو، أنـا محظـوظ بك.رد متأوها.

ــ أوه، شـكرا، أتمـنى أن يكـون هـذا حقيقيـا، الرومانسـية جيـدة، أنت تـؤدي بشـكل جيـد، كممثـل بورنـو متـدرب، هـل هـذه مهمنتـك، المواعـدات أقصـد، منـذ مـدة طويلـة؟ أواه.. آسف،استدرك معتذرا.

- أنت تهينني.. هكـذا ,ماذاقصـدت ب"اتمـنى ان يكون حقيقيا"؟

ابتعـدت قليلا عنـه، نظـرت حـولي بوجـوم كمن يبحث عن مهرب في الجدار.

- أريد ماء، أشعر بعطش، وانزعـاج، هـل لـديك ماء؟ استعدل في جلسته, قام بعدها.

- نعم انتظر.

أسرع إلى الثلاجة وجاء بقنينة مـاء معـدني وقـدح، شـربت، عـدلت ملابسـي ووقفت، فوجئ. اعتذر مرة أخـرى، جمـدت ملامحي على الانزعاج , أفسد بكلماته مزاجي , ربمـا تحججت بـذلك , كـان لـدي احسـاس مختلـف هـذه المرة ,أعجبت به كانسان وليس كزبون.

- من فضـلك اجلس، ولنغـير الموضـوع، لم أقصد إهانتك، نحن الفنلنديون صريحون أحيانا حد الوقاحة.قال معتذرا ومرتبكا لتصرفي.

- لست للإيجار.. اليوم على الأقل.

أجبت بضيق، أردفت:

- أتمنى لك يوما سعيدا، قد نلتقي مـرة أخـرى، في أي مقهى كأصدقاء أو في مناسبة ما، أعتذر إن أفسدت عليـك يومـك، أو بـددت توقعاتـك بلحظـات سـرير حميميـة، على الأقـل، لا أعلم ربما هذه المرة الأولى، أنـا صـادق مـع نفسـي، وداعا..رميت كلماتي وغادرت.

أشعر براحة، وبأنني قادر على أن أكون طائرا بريا وليس منزليا، متى ما أريد ذلك. تواصلنا بعدها نصيا , ألتقيته في مقهى أكثر من مرة , يبدو مهتما بي , لو اني ضاجعته يومها لخسرته للابد.

يصــر ســـرمد على أن يكتب تجربـــتي المثلية ، فعل ذلك من قبل مع أمير غزنـوي، لا أعرف كيف سيكملها بعد أن اختفى غزنوي من مركــز اللجــوء ومن حياتنــا، حلب شـفتيه لآخــر قطـــرة من الحكايـــات عن هلمنـــد وقنـــدهار والأفيون والتهريب وطالبان والقورت والفستق والحلوى والسروال والشادور.

أفـترض أنـني شـهريار مـا، وأنـني أسـرد الحكايات لشهريار ما، آخر، نسخة مثلية حديثـة لحكايات الألف ليلة وليلة الأصلية، حيث تنقــذ الحكايـات الألـف وواحـدة شـهرزاد من ضـجر الملك شهريار والذي يعني قتلها صباحا، تقص وتقص مذيلة كل حكايـة بوقفـة مثـيرة محفـزة للمتابعة في اليوم اللاحق، وهكذا نجت شهرزاد من سيف مسرور الجلاد.

فلنبدأ مروان.. أغمض عينيك، تخيـل أنـك في قصر شرقي عباسي في بغداد، وســائد من القطيفة، ستائر حمر تتطـاير بخفـة، سـيمفونية

شهرزاد لكورساكوف، تخيل كل هذا وامزجه مع الأجساد والأرواح القلقة في هلسنكي. فلنبدأ..

ألف ليلة وليلة في هلسنكي..

الليلة الأولى

"بلغني أيها الـ "سرمد " السعيد ذو الــرأي الرشيد، أن هناك تطبيقا للمواعـدة، يعـود على صاحبه بالخير والفائدة، خُصص للرجـال الـذين يرغبون في الرجال، وبال ....

مسرَحَ سرمد صوته، مغمضا عينيه، موحيا أنه يتخيل عالما موازيا للواقع. سردت له عشرات القصص، حولها لسينوغرافيا مضيئة، شاهدها حتى المارة أسفل نافذتنا، إحداهن كانت مسنة، تقوم بنزهة ليلية مع كلبها المدلل الأبيض .

الليلة ال ..

بعـد اتفـاق، التقينـا في ضـاحية ايســبو، طلب أن تتم المضــاجعة في الغابــة، ذهبنــا بسيارته السبورتج الحمراء ذات البـاب الواحـد،

كانت سماء ايسبو ملبدة بغيوم عملاقة،أمطرت عند الثانية صباحا.

ـــ هل تسمع الجندب, هذا يثيرني، يذكرني بأول قضيب اخترقني في عمر الرابعة عشرة، كان لشاب مغربي، عشيق ماما، كنا نقضي العطلة في المنزل الريفي، تعريت ونزلت للبحيرة عند الثالثة صباحا، تركها نائمة ولحق بي، كان مهووسا بالمراهقين، كان يتحين الفرص ليتحرش بي، لا أستبعد أن يكون وضع منوما لماما قبل أن يلحق بي عند البحيرة، هددني بوضع سنارة الصيد في عيني إذا لم ألعق قضيبه، داعب ثقب مؤخرتي بإصبعه كنت مثارا، مستمتعا وخائفا، صوت الجندب، رائحة المطر الممزوجة برطوبة جذوع الأشجار، أترى إنني أعود لتجربة المرة الأولى، أسترجع البدايات، أهرب منها إليها، سحبني المغربي من ذراعي النحيلة، سرت معه على حافة البحيرة، حملني ووضعني في قارب فقدت عذريتي، في الصباح أخبرت أمي بذلك، اكتفت بتوبيخي، كانت تحبني وتحبه أيضا، إرادتنا معا، وخسرتنا معا.. لماذا أقول لك هذا؟ لا أعرف.. أستفرغ لأريح رأسي من قيئه.كنت استمع اليه ونحن نسير بين جذوع الاشجار .

بعد أن فرغ من سرد دراما اغتصابه المبكر.
ازداد المطر هطولا ، لم أكن مستعدا لهذا، في فانتا حيث أسكن الجو أفضل وغير ماطر، تبللت,غرست قدمي بالطين, اوصلني الى قارب عند البحيرة ,قال: انه يشبه ذلك القارب.. لنقل انه سرير الان , هيا.

- هل أعيد تمثيل اغتصابك في القارب؟
- نعم أنت ذكي، نعم أفعل..
- لا لست مغتصب أطفال، ولست أنت طفلا,هل أنت مختل عقليا؟

صحت بحدة ليصحو من هذيانه.

- لكن، اسمع أنت تشبهه، ربما أنت مغربي ايضا، كلكم تتشابهون، بشرة واحدة وشعر أسود واحد, كلكم تتكلمون العربية, هيا افعلها.

كانت السماء تزداد ظلمة بفعل تكدس الغيوم الرمادية التي أخفت وجه القمر، أردف بتوسل أرجوك، سأدفع لك أكثر، لتكون عنيفا معي. تعرى تمامًا من ملابسه، بدى جسده فضيا لامعا كصدف سمكة بشرية، الآن، قال متنهدا..، كان يمثل أنه يتمنع أو يتألم، لا تفعل أرجوك أنا صغير، أوه سأخبر أمي، ردد وأنا أحشر قضيبي في مؤخرته، بصوت طفولي تمثيلي بدا معيبا لرجل في الخمسين من العمر، كان المطر

وحجم القارب الضيق كافيين لأن أفقد التركيز أضف إلى ذلك سخافة أدائه المقزز، فقدت الانتصاب، عالجت الأمر بخضخضة قضيبي بيدي ليصحو مجددا اضطررت لاستنشاق مادة POPPERS من العلبة الزجاجية الصغير لأكمل هذه السخافة مدفوعة الثمن، سأل:" هل قذفت؟، مد يده لمفرق مؤخرته متحسسا ليتأكد، كنت قد وضعت الكثير من البصاق هناك، بالحقيقة لم اقذف.

ـــــ لقد غسل المطر المني آسف لهذا، أريد أن أعود الآن، أشعر بالبرد.

رجعنــا إلى الســيارة، لبس حــزام الأمــان: "أرجوك نسيت علبة سكائري في الخارج قــرب السيارة هل تجلبها لي؟". مــا أن خــرجت حــتى أنطلـــق، فجـــأة بســـيارته، صـــاح من بعيـــد: "سأمنحك إثارة أن تكون في غابة فنلندية، هل جــربت هــذا من قبــل؟ أنــا لا أعاقبــك، إنمــا أكافئـــك، بـــاي". لم يكن مســـرعا، الأشـــجار المتكسرة والمســارات الموحلــة، إلا أنــني كنت مبتلا ومتعبا لألحق به، غابت مصابيح الســيارة كجمرتين في يوم ممطر. تخيلتالتماعات، عيون ذئــاب أو بومـــة تنتقــل بين شــجرتين، التفت مرعوبا، كـدت أتبـول على نفسـي من الخـوف،

أصوات حيوانيـة وهسهسـة. لتشـرق الشـمس صـباحا علي أن أنتظـر هنـا أربـع سـاعات على الأقـل. كيـف سـأخرج من هنـا، هـاتفي مطفـأ ومبتـــل مثلي أنـــا تمامـــا. مـــازلت ممســـكا بالخمسين يورو المبتلة بين يـدي: "تفـو عليـك وعلى فلوسك"، ألقيتها أرضا، سرت بلا اتجـــاه، ربما كي أصل إلى طريق معبد تمر به سيارة ما.

وصلت إلى منزل خشبي في أول الطريـــق الزراعي، طرقت الباب، فتحت سيدة عجوز في الثمانين "ماذا تريد؟" سألت. "لا شيء أنا تائه. هل تساعدينني من فضـلك". قـالت: " انتظـر خارجـا". بعـد نصـف سـاعة وصـلت الشـرطة، اتصلت بهم، ادعت أنها خائفـة، كمـا أبلغـوني، من أن أغتصبها كما يفعل اللاجئون. ابتسـمت, سـألوني مـا بـك, قلت لا شـيء، المسـكينة أشـفقت على خيالهـا الجنسـي, ركبت مـع الشرطة سيارتهم، ثم أنطلقنا...

وأدرك شهريار الصـباح فسـكت عن الكلام المباح...

كانت سيمفونية شهرزاد لكورساكوف مازالت تنبعث في الغرفة عندما أكملت مستلقيا على مرفقي.

مرت ثمانية أشهر تقريبا على مقـابلتي في دائرة الهجرة،بقصتي الجديدة هذه المرة بعد أن اســتأنفت، طعنت بقــرار الهجــرة وأعيــدت الأوراق للمداولـة بـأمر محكمـة النقض العليـا، بتطــور جديــد: مثليــتي المهــددة بــالخطر في العــراق. أتوقــع جوابــا في أي لحظــة، بــددت الانتظـار والقلـق بمواعـدات عشـوائية، بـإفراط وشــراهة، بــدون تميــيز بين شــاب أو عجــوز مصاب بعـدوى أو مشـافى, أبيض أو أصـفر أو أسـود، كنت أصـور بعضـها سـرا وأحفظـه في شريحة ذاكرة المحمول، لأثبت لهم أنني مثلي، للنخاع، انظروا!! لما لا تصدقون؟

سألوني في المقابلة التي أجريتها، لماذا لم تشر لذلك من قبـل؟ ولمـاذا الآن بعـد الـرفض الأول؟ أجبت: الحقيقـــة لم أتصــــور أن شـــيئا شخصيا كهـذا يمكن الحـديث عنـه في مقابلـة مســجلة بالصــورة والصــوت. فلنقــل بســبب الخصوصية وأنني مضطر لكسرها الآن. ســألوا: هل يمثـل هـذا خطـرا على حياتـك في بغـداد؟ أشرت لمقتـل كـرار حنـوش، كـان شـابا بشـعر أشقر وعيـون خضـر، يرتـدي ملابس بصـرعات غربية، كفاشنست أو حتى كشاب يعجبه ذلـك، وجدوا جثته مرمية في القمامة، بعد أن خطـف

وعذب طبعـا، اتهمـوه بـالترويج للمثليـة بينمـا المقتول لم يفعل ذلـك. زودتهم بتقريـر نشـرته الاندبنـدنت عن هـذه القصـة. قلت لهم: هـذا مثال بسيط. سألوا: حسنا، ما شعورك الجنسي كمثلي؟ ارتسـمت ابتسـامة مبطنـة على وجـه المترجم، كان مصريا يتحدث الفنلندية بطلاقة، تسـاءلت: "يعـني شـنو؟".. تمصـرن المـترجم بالحديث: "من الآخر إيه شعورك لما بتتنــاك!؟ أنا آسف، دي الترجمة الفعلية للسؤال، إوصف عشــان أقلهم". لم يكن المــترجم بريئــا، كنت دُربت من بعض المثلـيين الـذين التقيتهم في الديسكو الخـاص بهم على الإجابـات، حـذروني من قول إنني موجب فقط، المثلي الموجب لا يقتــل بــالعراق، وإلا قتــل نصــف العراقــيين بعضهم بعضـا، السـالب هـو المهـدد بـالخطر، يمكن أن تكـون سـالبا وموجبـا لا مشـكلة في ذلك.

- طيب، أني ما أقبل أحد ينيكني..

- إذن استعد للرفض حـبي، مـا تـرهم إلا تكـون ثنائي، ياكلوك وتاكل، أنت براحتك".

كـان هـذا رأي سـونه، ميـدو، دالي، توتـه، كيكو، والكثير من المثليين الـذين حصـلوا على إقامـات سـريعة ومريحـة لجـودة إجابـاتهم في

دوائر الهجـرة، بعضـهم كـان مثليـا فعلا وحـتى متحــولا جنســيا شــكلوا مجتمعــا خاصــا بهم بمساعدة منظمة GLBTQ ` .

في صباح يوم المقابلة في دائـرة الهجـرة، وللتذكير، وبلمحــة إنســانية، للتــذكير أرســل لي دولي " صـباحا على "الماسـنجر"، صـورة علبـة فــازلين، علم قــوس قــزح ومــوزة، أرفــق ذلــك بعبـــارة فلســـفية عظيمـــة "أنـــا مثلي إذن أنـــا موجود"..

أختفى امـير من حياتنـا المصـغرة , حـدث ذلك في يوم شتائي قارس الـبرد، في العاشـرة مســاء، وبينمــا أوبـرا الـريح تصـرخ في الخـارج مهددة بمساء سيء، كنت أسـتعد لجولـتي في شوارع الحياة الليلية، أقوم بكي بنطالي الكتــان، أرشه ماء بفمي كفيل بشري، دخـل علينـا أمـير الأفغـاني، عينــاه مطفأتــان كمتــاجر هلســنكي ساعتها، تجاوز تدخين الغرامين حشيشة ربمــا، يقول أحتاج ذلك، كما تضع "المربى فوق خراء" لتأكله.... سـيربا العجـوز المتصـابية تسـتهلكه، تفرك بيضتي خصـيتيه جيـدا لآخـر قطـرة منـه لتستعمله كمضادات تجاعيد البشرة، "سرمد... هذا أمير ايش يحسّ من ينيك خالته سيربا كـل مرة". أمزح هكذا أحيانا مع سرمد، عندما يكـون

موضـوعنا أمـير وسـيربا، ربمـا انتبـه لنـا مـرة، وأضمرها لي. كان كتوما، إلا أنـه كجمـل بلخي، حقود ولا ينسى، أمير وسرمد في شـجار لفظي أغلبـه بالفارسـية، لم أكن مهتمـا ولسـت جـزءا منه.. لكن أمير ألقى ثعابينه بوجهي مرة واحـدة شتمني بالعربية متعمدا:

ـــ مروان قحبة " جنده" سرمد لما لا تقول لـه هذا بوجهه؟.

لم أفهم البقيـة. كـدت أجن من الغضـب، تـوقفت عن الكي ونظـرت اليـه شـزرا "ليش تغلط؟". وقفت بينه وبين سرمد الذي انسحب لفراشه. دفعني بقوة عشرة رجـال في صـدري، آلمني قليلا، ارتطمت بالنافذة، زاد هياجي أكثر، تناولت المكواة وهو متصـل بالكهربـاء لأضـربه في رأسه، قفز سرمد من سـريره ليحـول بيننـا، وأمسك يدي، أطلـق آهـة ألم، لامس سـتانلس سـتيل المكـوى السـاخن راحـة يـده، انشـغلت بتبريد حروقه الخفيفـة، بينمـا قفـز أمـير هاربـا خارج الغرفة. كان سعد في شقة بايفي ليلتهـا، أمـا لطيـف فكـان في شـقة تـابيولا. ارتـديت معطفي، سأسـحل أمـير في الشـارع الآن، هددت، أمسكني سرمد من كتفي: "بروح أمك لا تضرب أمـير إذا تحترمـني.. تركـه, هـو اصـلا

محشش وطافي".. كان يعطـف عليـه كأخيـه.. "ماشـي، أنـا طـالع، لخـاطرك مـا أكسـر رأسـه الليلة". أكـدت لـه. قـابلت ليلى زوجـة أكثم في الطرقة المؤدية إلى المدخل.. حيتني، لا أذكر إذا كنت أجبتها أم لا، لفحني هواء بارد في الخارج، كانت العتمة ممزوجة بـالثلج بـالأبيض الناصـع على مـد الطريـق الجـانبي، قـادني الطريـق وغضبي إلى محطة القطار ومن هناك إلى شقة لطيف. وصلت في نحـو العاشـرة، كـان نائمـا، استقبلني وعاد لسريره:

- مروان بكرة الصبح عندي عمل. البيت بيتـك، أكو جن واكو جبن واكو...

تثـاءب، غطى فمـه بيـده، أردف بنعـاس "زيتون وصـودا أيضـا... تصـبح على خـير... هـا بالمناسبة إذا شفت خيول تمشـي بـالمطبخ لا تركـز وياهـا، ولا تخـاف، همـا أصـدقائي، تيـو وروها، أوكي".

- شكرا، وأنت من أهلـه. أنعـل أبـو الحشيشـة، وصلت للخيول بالمطبخ، نسـوان، ولـد حلـوين بالمطبخ ممكن، لكن..خيول؟صحت به.

حشر لطيف رأسـه بين وسـادتين متلحفـا بلحـاف بـني غـامق، نـام سـريعا، سـهرت في المطبخ، غـدا مسـاء لـدي موعـد مـع أحـدهم،

أتواصل معه الآن، سيدفع مئة يورو، "خالصــة" بلا ضرائب، وسأدفع شيئا بين آليتيه بالمقابل.

عدت صباحا للكامب، دخلت الغرفة، كـان سرمد لايـزال نائمـا، بينمـا سـرير أمـير مبعـثر، اختفت ملابسه المعلقة بمسـامير في الحائـط، اختفت أحذيته وبقية أشيائه الشخصية كـذلك، خمنت أنــه انتقــل لغرفــة أخــرى في المبــنى. سأشتاق إليه، ربما ما قاله عن الرجل "القحبة" ليســت شــتيمة إذا نظــرت للكــأس نصــف الممتلئ ونصف الفارغ بنظرة ميكافيلية أعمق. نبتكر الشتائم للإزعاج، سـمعت لاحقـا أن أمـير انتقل للعيش مع سيربا في منزلها، ربمـا يقـدم طلب إقامة مسـاكنة، "زواج مـدني"، ربمـا، إلا أن فارق العمـر، خمس وثلاثين سـنة، سـيكون العقبة.

- صباح الخير مـروان. وين بتت البارحــه بس لا عند جماعتك ال...

سألني سرمد وهو يتمغط في سريره:

- بشقة لطيف، يسلم عليـك، خـايف عليــه من الهلاوس البصرية، الظاهر كلش تعبانة نفسيته.

رد وهو يتثاءب:

- الله يسلمك، عزيـزي. سـويلنا شـاي بالغلايـة، رأسي مصدع، شوف أكـو شـكر، لـو نطلب من تاج الدين الصومالي.

يــوم عــادي يمــر، شــجارات تنــدلع هنــا وهناك، تصادف وجودي مع ليلى في المصعد، عاتبتني لأنني لم أرد على تحيتها ليلـة البارحـة: "آســف، كنت معصــب بخصــوص امــير"، اعتـذرت لهـا. غـيرت نـبرة صـوتها إلى خـافت كهمس محتضر، لـديها شـيء لتقولـه: "مـروان أنت وسرمد فقط، أنت وسرمد أقرب اثنين إلنا أنــا وزوجي بالكــامب، إذا مــا تكــدر تســاعدني بنصيحة، فلا تسويلي فضيحة، أوكيه"!؟

أكدت لها أنـني لا أتـدخل وأن هـذا قرارهـا الشخصــي. عنــدما خرجنــا من المصــعد عــاد صـــوتها طبيعيـــا وغـــيرت الموضـــوع إلى التخفيضـــات الـــتي في متجـــر ال "ليـــدل" القريب. كم أفعى تموضعت والتصقت لتشكل هذه المرأة، أحدث نفسي، كـانت مضـطرة لأن تشرح لي، لأنني شاهدتها مرة تخـرج من شـقة مقابلـة لشـقة "زبـون" مـا. تلعثمت حينهـا وارتبكت، على كل حال، أنا لست أحسن منها، إذا كانت تفعل ما تفعل باسم الحب، فأنا أقــل شـرفا من أن أدعي هـذا. بعـد سـاعة التمـارين

الرياضية والاستحمام، أتأنق مساء، من الداخل بلبـــاس "كليفن كلين" ومن الخـــارج بمعطــف ماركة ZARA"، أتفحص جيوبي جيـدا، هـاتفي محفظتي، الكندوم، اللوب، ثم ال "اير هيـدفون ". يالله توكلنا عليك، قلتها بصوتٍ عالٍ لأسـمع سرمد، يشتمني مازحا:

- إن شاء الله واحد منهم تصـعد برأسـه ويقفـل عليك، ينيكك، لو يصور لك فيلم. لك أنت غــير بايع ومخلص، شنو أنت, خرب ربك؟.

مبتسما أجيبه: "الله ما يستجيب لملحـد.. هم زين".

انطلقت، التقيت سعدا في المدخل، قـال إنه جاء ليستلم أوراق موعد مـع دائـرة الهجـرة، مكان وزمان المقابلة، بدا متــوترا: "طـالع درب مـروان؟". أرد "على بـاب الله". يبتسـم مازحـا: "الله يأخذك".

وصـلت إلى محطـة قطـار افيـا بـولس، هنـاك الكثـير من الشـباب يتفحصـني بعنايـة، فنلنـديون وروس وأسـتون، لا أمـيز جنسـيتهم بسهولة من أشكالهم، ربما أميز ميولهم بسهولة أكـثر، كـانت الشـهوة باسـورد أي "واي فـاي" مغلق يصل شبكة الغريزة، لا يتردد أحـدهم في تحيتي، هاي، اسمي..، مـا اسـمك، هـل تحب

أن..؟. أعتذر، لست متاحا للمتعـة، لـدي الـتزام مقابل المال: "هل تدفع؟"أسـالهم.. ينسـحبون كقطط لم تجد في كيس النفايات غايتها.

- حبيبيR،جلّ، ورشة عطر، وأكون جاهزا. غمزني مازحا. أنت جاهز دائما. " أموت على ربك". تعلم مني هذه اللازمة، أردف: اعمل لي معك كوب نسكافيه من فضلك. فك، أجبته مع إشارة جنسية بالإصبع الوسط، تقبلها فرحا,رد بمثلها.

سهرنا ليلتها في ديسكو DTM ، العراقيون بعيون كاميرات تسجيلية، حتى وهم سكارى، ضايقونا كثيرا، أسمع تعليقاتهم، أرد: "مناويك.. ليش انتو وين هسه، بالكعبة؟ بس أنا كي، بس أنا عندي بوي فرند؟". سألني R ما الذي أزعجني، أجبته: "بعض من الذين أعرفهم بالكامب هنا، يقولون إنهم مضطرون لمعاشرة الرجال، نساء هلسنكي صعبات ولا يعاشرن أو يثقن حتى بربع لاجئ، يعني هؤلاء نصف مثليين" semi gays ". غادرنا الديسكو في الساعة الرابعة صباحا،ثملان , نسير كزوج أحذية، كلتا الفردتين جهة اليمين، نقطع الشوارع والسلالم باتجاه مائل غير مستقيم. ساعدني لأضع ال.. الباب في المفتاح، قال لي بفقهاق متصل، وأتبعها

بشتيمة: VIITU,VIITU، هل تعلم ال غوغو لغة الأستراليين الأصليين متجهة مثلنا الآن، يقول: الباب جنوبي الغربي بالنسبة إلينا الذي لا يحب أن يُفتح كمؤخرة متعجرفة، المثلي الشرق أوسطي الذي إلى شمال الشرق بالنسبة للباب ولا يعرف أن يفتحه، الرجل الفنلندي الذي إلى الشمال الشرقي بالنسبة لثقب ميرو وثقب الباب، ضربني برفق على مؤخرتي، مط صوته بالغناء بما يشبه النهيق.

أفقنا في اليوم التالي في الثانية عصرا، اشتهيت أن أدخن يومها، ميرهوانا، نزلت تسكعت حتى شقة لطيف. لطيف، في تابيولا، أحتاج للمشي والثرثرة قليلا. استقبلني بحرارة كعادته، جلسنا "سويلنا شاي عراقي مهيّل". حدثني عن حقيبة هانو السحرية وعن تيو وروها، الخيول التي تخرج وتتجول في الشقة ثم يبدأ بسرد الماضي. بذل جهدا ليجد الحقيبة، استغرق الأمر نصف ساعة نبش خلالها نصف شقته. لم يجد شيئا، فرحت بداخلي، أي تاريخ ونحن محشورون في مؤخرة الحاضر، لا هو تغوطنا ولا نحن خلصنا منه.

ــ الحقيبة,ما أعرف وين صارت، خل ابحث بعد مرة".ردد لطيف.

أمسكته من ساعده، "لطيف مو وقتها، أني ما جاي لمتجر جنط مستعملة، أترك السالفة أخويه أني مصدقك، خرا بالحشيشة"، تمتمت اخر الجملة دون أن يسمعني. كان يستهلك نصف كمية حشيشة مزارع إسبانيا وربما أكثر، إلا أنه حافظ على عمله في دور رعاية المسنين حيث يلبس وجها جديا يختلف عما في سكنه. نجح بفضل دماثة خلقه وحب العجزة له، شعرت بالضجر بسرعة. تمنيت له ليلة هانئة وأن يخفف من استهلاك الماريوانا، غمز لي بنصف عين، قال: "فقط إذا تخلصت أنت من حبك للحلوين". "لا مستحيل حبهم يدق بالرأس". ضحكنا ثم غادرت.

الساعة الخامسة مساء شتاء فنلندي، يتساقط الظلام مبكرا، مع نتف الثلج، في هذا الوقت من السنة، الثلج في الخارج يكفي لدفن نصف سيارة صغيرة في ليلة واحدة. هل أبدأ السرد سرمد؟ محتضنا لابتوب نوع "لينوفا"، عدل نظارته المتهدلة، ركز عينيه على صوتي. أعاد رأسه إلى حضن اللابتوب، طقطقت أصابعه على الكيبورد.

اسمي مروان, لم أكن مثليا في العراق، ستندهش من ذلك، هذه هي الحقيقة، لا يخلو

الأمر من تجارب طفولية مع صـبيان لاكتشـاف جسـد الآخـر، لمس، مداعبـة، لكن.. لم تكن جنسا بالمطلق. قبل أن أغادر العراق تواصـلت بالمصادفة عن طريـق الفيس بـوك، بشـخص، قال إنـه سـوري كـردي يعيش في السـليمانية، هرب من الحرب السورية الداخليـة، مـرة خلال المحادثة أرسل لي صورة مـؤخرة بلا مقـدمات، فهمت الرسـالة، صـار الحـديث عن قضـيبي ومؤخرته بالإجمال. ادّعى أن لديه عشيقا كرديا، أراني صورة له وأحدهم يحتضنه من الخلف في بـارك أزادي، وسـألني: "هـل تحب السـفر إلى أوروبا؟ هل تتزوجـني؟ سنحصـل على إقامـات سريعة إذا أخبرناهم بأننا متزوجان، سـأهاجر أنـا أيضـا قريبـا لأسـباب خاصـة". أجبتـه: "حسـنا بـالتوفيق". رد باقتضـاب: "حـاول أن تظهـر مثليتك الخجولة، أو أن تبتكرها، ستكون الأمور أسهل هكذا، ربما أسهل مما لوكنت مهددا في بلدك فعليا، الله يسهلو". اختفى بعدها، لم آخذ الأمر بجدية، ولم أتجاهله.

تجـدد الأمـر في تركيـا، كـان (شـيميل اقصراي) المشهور، جسد أنثى مثيرة بقضيب، واعدته مـرتين فقـط، مجانـا، اشـتهى فحولـتي كما قال، يطلب مبلغـا مرتفعـا بالعـادة، يطلبـه

السياح الخليجيون بالاسم، يتركون زوجاتهم في مـولات التسـوق منـذ الصـباح حـتى المسـاء ويـذهبون إليـه. بإمكـانهم اسـتئجار عـاهرة، يبحثـون عن المغـاير ويصـورونه بهـواتفهم، ثم يتـداولونها سـرا في الـديوانيات أو الجلسـات الخاصة. تصل المواعدة أحيانا إلى الألف دولار، بالنسـبة لي دفعت ذلـك إمتاعـا فقـط. هكـذا وصف الأمر، طلبني مرة ثالثة، كنت قد شعرت بالملـل فلم أذهب. عـبرت بحـر ايجـة بسـلام، وصـلت إلى اليونـان، في المخيم كيـوس رأيت مراهق عراقي، تركماني ربمـا، كـان حلـوا جـدا، بشعر منسدل حتى الكتف وبشرة ناعمة وعيون نسائية غير بريئـة، تجنبت إشـاراته وتلميحاتـه، لم يكن يملك مالا، كان لديه ثقب وردي ضـيق للتأجير، نمت في الشـارع على قطعـة كـارتون، تشاجر أربعة كلاب فوق رأسي، بال أحدهم على وجهي، بينما كان الحلـو التركمـاني يتنقـل بين أسرة الفنادق وأفخاذ شباب مثبتة على خلفيته بوضع محكم.

قـال لي أحـدهم صـباحا "البارحـة شـرب الحلو التركماني بحيرة من المني، خرج من أنفه وأذنيه، وطلب المزيد". بعد أسبوع وصـلت إلى السويد، مع سيل اللاجـئين المنحـدر من شـرق

أوروبـا إلى شـماله، بـدا بعض الشـباب بارتـداء الأقـراط، واحـدة في الأذن اليمـنى فقـط. بـدأ العمـــل مبكـــرا لتمثيـــل دور المثلي المتقن والحصول على إقامة مريحة سريعا.

رفع سرمد رأسه: "هل تعتقد هـذا؟ أقصـد حصول البعض على حماية اللجوء كمثليين غير حقيقيين؟"

أجبته: "سرمد أنا وأنت لسنا الجهة المانحة للإقامات، ولا راح يهتمون لكلامي، راح يتهموني أني بالهومو فوبيا، تصور؟ تعمدوا في دائرة الهجرة على خلط الاوراق, ليبرروا تشددهم في منح الإقامة، لذا عندما تُخدع تخدع من حيث لا تشعر، العقل العراقي خلاق قادر على كسر طوق الرفض بقصص مبتكرة تُبكي الله نفسه لو يسمعها لاول مرة".

في إحدى ليـالي مـايو 2017، وبينمـا تضـئ لوحـــات الإعلانـــات، مروّجـــة لحفلـــة إنـــريكي إكلســياس في أرينـــا هـــارت وول في ضـــاحية باسـيلا، نجم الـروك المفضـل لـدي، بملامحـه المتوسطية التي تشبهني إلى حد مـا، في هـذا اليـــوم البهيج جـــدا طُـ ردت من الكـــامب إلى الشارع. كنت قد رفضت قبـل شـهر، أمهلـوني شـهرا واحـدا لأجـد سـكنا، مـر سـريعا كمركبـة

فضــائية انتهيت، معنويــا ونفســيا، انتهت كــل قصصي كطالب لجوء مع الهجــرة، لم يصــدقوا مثليــتي المتــأخرة، قُطعت المعونــة الطبيــة والمســاعدة الماليــة وخدمــة الطعـام والســكن. لجأت للمنظمات الإنسانية وطلبت مســاعدات المكتب الاجتمـــاعي العـــالم في هلســـنكي للمشــردين، الأهم أين أســكن؟ مشــردا ذرعت الشوارع المثلجة كفريــزات مفتوحــة بلا أبــواب. بعد ثلاثة طلبات لجوء مرفوضة، أنذرتني دائــرة الهجرة الفنلندية بطردي من مركــز الإيــواء خلال ثلاثين يوما، مــرت بســرعة مركبــة فضــائية من دون أن أجد حلا. جلست في المحطــة الرئيســة اتصلت به، لم يــرد، أكــثر من عشــر محــاولات. أخـــرجت ســـيجارة وبحثت عن أي مـــدخن ليناولني ولاعــة، وجــوه مســرعة، لا أحــد يجيب طلبك، أو ينتبه حــتى، الأوقــات الرديئــة تنســخ بعضــها البعض، الشــعور الســيء بــأن نهايــة عــالمي الصــغير قــد حلت، تقرقــر بطــني من الجوع. ســأتخلى ربمــا عن المجــردات، الكرامــة الإنسانية، إذا هرست معــدتي أحمــاض الجــوع أكثر، خذ ولاعتك، شكرا قلت لأحدهم.

أدخن أمام البوابة الرئيسية الخشبية والتي مازالت تفتح يــدويا رغم آلاف البوابــات الذاتيــة

الفتح في هلسنكي، أفكر به الآن. كان قد وعدني بالمساعدة إذا طُردت في الشارع وساءت الأمور جدا. أعود لداخل المحطة، أشتري كوراسون الرخيص نسبيا من متجر ليدل، مع علبة كولا، أجلس على حقيبتين صغيرتين كدجاجة رقدت على بيضاتها، يمر الناس من دون اكتراث أحدهما بالآخر، كأنما كل واحد من كوكب مختلف في المجرة. سحابات خفيفة من العطور، الأحذية تطقطق على السلالم، المؤخرات تتارجح خلف البناطيل، الأعناق المصقولة اللامعة بقلائد رخيصة، عمال النظافة البنغال التابعون لـ" سول" ببزاتهم البرتقالية الفاقعة، امراة رومانية تستجدي بكوب ورقي استقر في أسفله بعض السنتات، شرطي يتثاءب من بعيد، مراهقون بحقائب ظهر ووجوه أفريقية يبحثون عن زبائن للميرهوانا، شابة بفخذين لم أتبين وجهها، مسافرون، صينيون، وعشرات الأشباح التي تسبح في ألوان النهار الخفيفة بشكل ممزوج وتتطاير هناك أو هنا.

- آه، MYGOSH، إذن أنت مجددا، روبي؟ انت تذكرني اليس كذلك؟ هل مازلت تبحث عن أي مخلوق ليشاركك جسدك الفضفاض؟ أواه، أنا

سخيف، وزبالة، ومشرد اليـوم، لي الحـق روبي أن أقول كل شيء لأي كان, لا تزعل . احضـــنه . يدفعني بعيدا, يغادر.

يختفي روبي منزعجا بين الآخرين، يشتمني ، VIITU,..... أوافقك، نعم أنا كل هذا، حتى لو أني لا أعرف معناه.

R يـــرد على اتصـــالي الآن: أهلا R، آســـف لإزعاجك، لدي مشكلة، اتصلت بك لتساعدني، أو حــتى تنصــحني مــا أفعــل على الأقــل.. نعم نعم.. أعرف شكرا. أراك لاحقا إذن.

وصل بعد نصف ساعة أخـذني إلى منزلـه، شـعر بتــوتري وأنــني محــرج هـذه المـرة، لأنهـا ستكون زيارة غير عابرة ومطولة حتى أجد سـكنا أو يسمحون بعـودتي للكـامب، كـان قـد طلب مني أن أسكن معــه من قبــل، رفضــت، كي لا أخسره بســبب الاعتيــاد عليّ والرتابــة والملــل، لكنه أبقى أبوابه مشرعة لي، متى أحببت ذلك.

أنا ضائع جدا، وخاسر جدا جدا، خسرت مروان البريء، أركض كحصان مجنون بدون توقف، أصطدم برجال وجدران وأسيجة، تتكسر ساقي كل مرة إلا أنني أقفزها، يوما بعد يوم أفقد زخم الاستمرار بالحياة، أفكر بالانتحار لكنني لست شجاعا لأفعلها، الآن على الأقل.

أكد لي أنه لن يتركني، ولو تخلى الجميع عني، شكرته وحضنته متأثرا. حاول أن يغير الأجواء، سألني ونحن على مائدة المطبخ نتناول عشاء خفيفا، هل سمعت به من قبل، ولفظ اسمه بلثغة فرنسية، اغثوغ غامبو، الشاعر الفرنسي رامبو؟ قلت لم أدرسه في المتوسطة ولا الإعدادية، في العراق ندرس شعراء الدولة الرسميين فقط، وأغلبهم شعراء حرب وشجارات أدبية وتفاخر بما لم يفعلوا. "ماذا عن موضوعة الحب؟" استفسر. "ندرس الشعر العاطفي المهذب، يعني حد نظر الشاعر إلى حبيبته، غير مسموح أن يلمسها أو يحصرها في زاوية أو يضاجعها في قصيدته أمام أعيننا". أجبت. "حسنا ماذا عن "الهومو" في شعر العرب؟". سالني بنبرة من يعرف الإجابة. "لا نتطرق لهذا، عيب، حرام، أنت ما تفهم.. هههههه". ابتسمنا معا. "اسمع M، أشهر علاقة حب بين شاعر وشاعر كانت بين رامبو وفيرلين، تشبه قصتي بك تقريبا، نفس أعمارنا، وعلاقتنا، هل شاهدت فيلم ديكابريو بدور رامبو؟، الفيلم انتاج التسعينيات، انتظر لدي نسخة سنشاهدها الليلة، كان اسمه كسوف كلي، على ما أذكر، هل تحب ذلك؟"

ارد, “ لا“.سأقراء لك من شعره.انشد:

"بغير مأوى ولا ملبس ولا قوت، كنت أسمع صوتا يأخذ بقلبي المجمد، أهذا ضعف أم قوة: هاك إنه لقوة: إنك لا تعلم إلى أين ولا لماذا تسير، فاقتحم كل الابواب واستجب لكل نداء،"

حدثني ليلتها عن حياته السابقة، فتح مخازنه كلها مرة واحدة لي، كان لديه ابن في عمر الثانية عشرة، مع أمه الآن، أخبرني أن مثليته ابتدأت كفضول، كمن يجرب الكوكايين أو الهروين ويعتاد ذلك، لديه تجارب نوعية وقليلة، كان انتقائيا في شراكاته التي اعتمدت الفهم المشترك وتطابق الأفكار أكثر من تطابق المفتاح وثقب القفل الجسديين، هكذا يسمي الأمر، القضيب مفتاحًا والمؤخرة قفلًا، صندوقا أسود لغرائزنا السرية وذاكرة اللذة الأولى، تركته زوجته لأنها كانت غير متفهمة، تعتقد أن الجسد لديه وظائف معينة وأن أية وظيفة مضافة تعني خللا ما. "كان عليها أن تسميه تنوعا وغنى، لو أنها منفتحة الأفق". يقول وهو يرتشف قهوته ووجهه مصوبًا لصورتهما في حفل الزفاف. سألنا اعتراضيا: "وأنت؟ ما تقول

في توطين الجسد على الاكتشافات الغريزية الأخرى؟ هل أنت متعدد الميول, Bi؟". لم أجب، فهمها لوحده.

تشاركنا السرير بحميمية، صرت ملكه الآن وصار ملكي، لم يعد عليَّ أن أصحو مبكرا ككل مرة وأرجع لسريري الدائمي في الكامب، في الغرفة 155.

في اليوم التالي صحوت في الرابعة عصرا، كنا عاريين، هو ملقى على بطنه، بدت قبتا مؤخرته بيضاوين ومتوردتين، كزهرة الساكورا، قبلّتهما بقدسية لا أعرف من أين أتت، كنت ملتصقا بجانبه الأيمن بحثا عن دفء ما. حسست شرشف السرير بحثا عن لباسي الداخلي، لم أجده، ككلب صغير حشرت نصف جسدي تحت السرير، كانت أغلب ملابسي هناك، سحبتها بفمي بينما ثبَّت كفي على الأرضية، أبدو كشجرة بساقين منفرجين عاريين من أعلى السرير، بينما نصفي مدفون تحت. لمحت شاشة النقّال، مئات التنبيهات من اتصالات ورسائل، الجميع يسأل عني..قلقون يريدون معرفة مكاني وما حصل معي، أتفهم حبهم لي، بأنانية وهروب من

ذكـــرى "الكـــامب" التقطت الهـــاتف، أغلقتـــه وأكملت نومي.

ليلــة هلســنكية أخــرى، من الألــف ليلــة وليلة..

أُشــعلَ بعض الشــموع القصــيرة المعطَّرة في زجاجات خضر وحمـر وبرتقاليـة، انعكسـت أضواؤها خافتة متوهجة بخفة على وجهـه وعلى جـدران غرفـة المعيشـة. فتح قنينـة شـمبانيا، تطـايرت أغنيــة لفريـدي مـيركوري في أجــواء الغرفـة، كـانت السـاعة تـدق معلنـة التاسـعة مسـاء يـوم السـبت. جلسـنا معـا على الأريكـة الحمـراء، كأســان أو ثلاث لا أكــثر، قبَّل بــاطن كفــيي، جلس أســفل مــني ووضــع رأســه في حجـري، عبثت بشـعره البـني الكـثيف كـدغل رطب، صدر عنه صوت: "أشعر بأنني في الجنة عندما أضع رأسي بين فخذيك، هـل تعتقـد أن آدم كان مثليا قبل اكتشـاف جسـد حـواء، ربمـا عاقبـــه الـــرب لأنـــه أصـــبح مغـــايرا جنســـيا، "سـتريت"عنـدما اكتشـف السـيدة حـواء.هـل تعتقـد هـذا؟ أعتقـد كـذلك أن أصـل الكائنـات البدائيـــة هـــو الـــتزاوج الـــذاتي، المثليـــة هي الأساس، المغايرة اكتشاف حـديث سـبق النـار ببضعة أشهر". ابتسمت: "هذه سخافات، أنت

تفـترض بشـاعرية وتلاعب لفظي غـير مطـابق لواقع. مع هذا ولأجل هذه الليلـة كـل مـا تقـول هو الحقيقـة ومـا خـارج هـذه الليلـة من مدينـة وليل وأناس ويكينديين وهلسنكيين ومهاجرين وعنصريين، طيبين وأشرار، سكِّيرين ومـدمنين وجبناء لم يعيشوا كما يجب. كـل هـذا ملغي إلا أنت وهذه الأريكة وأنا".

سـمعت ضـحكة مكتومـة فـوق سـحاب بنطـالي الجـنز وهـو يسـحبه بأسـنانه ليفتحـه، سمعتها كذلك وأنـا عـارِ مسـتلق على ظهـري، سمعتها وهو يلتهم خصيتي، سمعتها وأنا أؤخر القذف ليستمتع قدر المستطاع. خرجت بعدها أتسكع في أحضـان ، المدينـة الـتي تهـرب من جنسانيتها.

ـــــــ "ســـرمد ,هــــذا ليس للنشـــر، اتفقنا؟".يوافقني بهزة راس.

بعدها بليلة، طلب مني سرمد أن أخبره عن أكثر الأوضاع غرابة في هلسنكي مما صادفته. طلب مني أن "أفعلها" معه كسرا للملل، فكرت، لا أتذكر وضعا مميزا قلت له، كل الأوضاع مستهلكة ونمطية ومُثلت في البورنو آلاف المرات. قلت له: " اسمع، الأهم من الوضعية الجنسية هي ردة الفعل التي

تراها في الآخر كمرآة لاشتهائك وجنونك ربما". قال: "ما الذي تقصده؟". أضفت: "عندما ترى نشوة الشريك وتفاعله معك سيكون أي وضع عادي هو الوضع المميز بالنسبة لكما، حتى لو كنت تلعب بأصابعك بشعر صدره ربما، لكن بالنسبة لي عندما أشعر بأنفاس الآخر ساخنة كشمس صغيرة خلف أذني، أصل إلى قمة جبل الرغبة وأنحدر من هناك أو أقفز في الأخير ولا يهمني ما سيحصل بعدها.تذكرت :

___ تواعدنا مرة، كان في الثلاثين من العمر، بزلوف بسطالية كبيرة وشعر مشتبك رمادي، طلب مني فقط، مزجه بالويسكي وشربه، ثم فتح الباب بهدوء، هذا يكفي، أشار إليّ أن أخرج. كان قاتما وساكنا: " هيه، أقترح عليك أن تذهب إلى الصين، ستكسب من منيك الكثير، إنه طازج ولاذع، مقابل 17 ملم منه فقط سيدفعون لك أيفون S6، اذهب غدا إلى السفارة الصينية واطلب لجوءًا، عزيزي، هنا لا يقدرون ثمن هذه الأشياء". دون سرمد ذلك مبتسما.

- هل نخرج للتسكع عزيزيR؟ رد:

- نعم لم لا؟ سنأخذ مظلة معنا قد تمطر حسب تنبؤات الطقس.

سرنا في شارع مانرهيم ابتداء من المسرح السويدي باتجاه الفوريوم، مرورا بسلسلة متاجر التجزئة ستوكمان، المباني المتباينة على الجانبين بين الحداثة والفيكتورية، تقدم هلسنكي سكجات مطابقة لبطرسبرغ الروسية، تتخلل ذلك مبان ستينية التصميم لا تحمل بصمة معمارية واضحة. رفع R مظلة حمراء، بينما سرنا معا تحتها، تلقينا عشرات النظرات الفضولية من الاخرين .قلت له:

ــــــ يفترض الجميع أننا في علاقة جنسية ويرتفع سقف التوقعات إلى أن العلاقة منفعة، جنس مقابل المال. تعرف ,حدث مبتكرو تطبيقات منصات المثليين للتواعد خاصية " No money boy"، وخاصية "No Arab boy"، انتقلت العنصرية لهذه المنصات كونها تمثل حياة موازية للواقع ربما سرية لكنها وفقت بين قضيبين أو مؤخرتين بالحلال,ههه.

ـــ لا عليك M سيتغير كل هذا فقط ثق بنصفك الاخر R.

سماء هلسنكي ماطرة, تكتسي ضوءًا أحمر عقيقيًـا بسـب غـروب ممـيز هـذا اليـوم, ربمـا

صنعه اللّه خصيصا لنا كعاشقين انــا و R, ومن مثل اللّه رحيم ومحب ليقدِّر ذلك, كنت مؤمنًــا بأني لست مذنبًا, بالعقل الذي منحني إيـاه, لن أخضع لنصوص تراثية ميتة الكون, أنـا, الحيـاة, الحب, اللّه كلنــــا حي,لــــذا فيجب يكفن بنص أوجهات نظر متكلسة, لاذنب لمحب ايًا كان ما يحب.

كــان عــازف كمــان يقــف قريبــا، " انهــا لشـوبان, اقصـد المقطوعـة " قـال R ، ألقيت خمسين سنت في علبة الكمـان الـتي وضـعها أمامه وألقى الآخرون بعض النقود فيها كــذلك. رقصت مـع R، حضـنته، قبلت شـفتيه، وهمـا بطعم الرووم الذي ارتشفه للتو. فقدنا الجاذبيــة الأرضية لدقيقـة، طرنـا فـوق منحنيـات قبـاب هلسـنكي، أزعجنـا طـائر النـورس الـذي تـوارى أبيض اللــون خلــف قرميــد المبــاني الأحمــر. تحبــني قــال بعينيــه، نعم، أجبت بلا صــوت، وشمنا على جسدينا، تاتو ..

لأنك R الذي أحب.. لأنك M الذي أحب..على ساعدينا الأيمنين,

اضفت لاحقا +15, على رقبتي يمينا ,كنت اعني بها سنة وصولي لفنلندا.أعجبت الفكرة R, :" ربما تعني انك توقفت عند سن الخامسة

عشر, اوه طفلي الصغير , هههه ".مازحني بحب.

صادف مـرة ان كـان أحـدهم، من طـالبي اللجـــوء المهووســـين بنشـــر الفضـــائح على صفحات الفيس بـوك، صـورنا، نشـر ذلـك في صفحة وهمية في موقع التواصـل الاجتمـاعي, عنون الفيديو، مروان العراقي وحبيبـه (فضـائح جـراوي بغـداد في هلسـنكي). يسـموننا جـراء، كلمة عاهرة الإنكليزية جـاءت من BITCH أيضـا، وتعـني الكلبـة. العـالم كلـه بعقـل قـذر واحـد متشعب وممتد كشبكة النت. شـارك المئـات من العراقيين الفيديو، علمت لاحقا أن جهة مـا تعرفت عليّ أوصلوا الأمـر لعـائلتي، طـالبوهم، قـالوا إنـني ولـد عـار، وعلى عشـيرتي وعـائلتي إعلان الـبراءة مـني وإلا فعليهم بـترك مـنزلهم والذهاب ليلا بملابسهم إلى مدينة أخرى. الخيار الآخـر حـرق المـنزل بمـا فيـه إذا لم يسـتجيبوا خلال أربع وعشرين ساعة. لم يكن الذي أثـارهم كوني مثليا فقط، بل الشـتائم الـتي قلتهـا وأنـا سـكران،طـالت الله و أنبيـاءه,الأخطر من ذلـك أنها طالت زعيم ميليشا عراقي متنفذ, ولا يغفر ان يكفر او ان يشتم.

أبلغت الشــرطة الفنلندية، اعتــبروا الأمــر شأنًا عراقيــا، مــا دام التهديـد لأهلي في بغـداد وأنــا هنــا بعيــد عنهم، ربمــا لم يصــدقوني من الأساس واعتبروا المسـألة سـيناريو لأنـال حـق اللجوء الإنساني بسرعة.

بغداد - هلسنكي، هلسنكي - بغداد، الملح والســكر، الشــمس والثلج، النخلــة والبتيولا. التلاعب بالمصـائر بشـكل مفضـوح وفج وغـير عــادل، تسـييس الشـأن الإنسـاني، المعضـلة نفسها تتكرر، الفرق هنا، بجودة أوروبية فقط.

"اليولو"، أعياد الميلاد وسنة جديـدة تطـل برأســها من رحم ديســمبر، غــدا 2018 وجــدت حرفيR ،M مكـونين من أكاليـل الـورد والغـار يتــدليان على صــدر بــاب الشــقة، أعجبتــني الفكرة، شـكرا M لهـذه المفاجـأة.أعيش بشـكل متقطــع بين مركــز إيــواء اللاجــئين وشــقة R. أنساني ذلك أياما سـودا مـرت بعجلاتهـا فـوق جمجمتي الصـغيرة. أشـعر بحـزن للآخـرين، أنـا أفضــل حــالا منهم الآن، لن يتخلى الله عــني، حتى لو كنت بعيدا عنه، مازال يساعدني كأحــد عياله..كأبن عاق.

تـتراكم الأيـام، ناعمـة وممتلئـة بالأوقـات الأحلى، راحة جسدية وذهنية، ابتكـار المـدهش والألذ وتوقعات مرتفعة تستقر في أفـق مجـرة ما، كانت جنة بتفاصيل أرضـية معاصـرة، ومـا الجنة إلا سعادات متتالية، حد الملل, الشيطان الــذي أخــرج رأســه يومــا مــا، ليخرجنــا نحن الآدمــيين من الفــردوس، بــدا يتســلل، شــيئا فشيئا، صرنا نفكر هــل يمكن للحيــاة أن تكــون ذات معنى إذا كانت مسكرة للغاية هكذا، *"سـو سويت"*, لن نصاب بالسكري طبعا إلا أن هناك نكهات أخرى، ومن خلال تباينها تشـعر بـالتنوع وتحاصر الضـجر، الشـيطان الـذي يطـل برأسـه قـرب السـرير أو عنـد مائـدة الطعـام، كـل مـرة يتـدفق فيهـا الصـمت بـدل الفعـل اللذيـذ أو الكلام.

سـألني باسـتغراب: مـا بـك تبـدو شـاحبا, عينـاك غـير مسـتقرة ككـرات اللوتـو؟ قلت: لا شيء، أشعر بدوار خفيـف. ابتسـم بمكـر: ربمـا أنت حامــل M أو الــدورة الشــهرية مــرة أخــرى عزيزي, أوه آسف لهـذا, هههـه, ضـربته برفـق بإحدى الوسائد الدائرية:"لا تكن سخيفا"

منــذ فــترة يعــاودني صــداع يــأتي فجــأة ويذهب فجأة كذلك، ربما سأذهب إلى ممرضة

مبــنى "الكمب" غــدا. لســت على مــا يــرام، أكملت بحزن، ربما هو القلـق والتـوتر. سـيكون كل شـئ على مـا يـرام، أعـدك لن تسـتطيع أي جهة في فنلندا طردك يومـا مـا، إذا اضـطررت سنتزوج لتمنح أوراق إقامة، ثق بي سأحميك.

قالهــا وهــو يعصــر كفّي بكفيــه، وعينــاه تشــعان صــدقا ودفئــا، كانتــا تحتويــاني كلي، شكرته بقبلة، وذهبت للنـوم بينمـا اسـتمر هـو بالكتابة، كان يراسل إحدى الجامعات منذ فـترة كمـا أخـبرني، طلبـا لزمالـة دراسـية، أو بحـوث باختصاصــه كــبيولوجي. شــرح لي الأمــر، المايكروبـــات كالبكتريـــا والفيروســـات والطفيليات تطور نفسها كل مـرة بشـكل أفقي درامــاتيكي بتــدوير البلازميــد كحمض نــووي، وتهزم المضادات الحيوية بسـهولة وتعتـاد على تواجـدها، عنــدما يتنــاول المــريض مضــادات حيوية بإفراط. عقبت: هذا يشبه اللاجئين الذين يطورون قصصهم كـل مـرة ليهزمـوا مضـادات دوائر الهجرة حول العالم. مر حينها الموضوع بلا اهتمام مني أو كمزحـة، على مائـدة الطعـام في المطبخ، كنت منهمكــا بعمــل "الدولمــة"، المحشي العراقي، بالرز والصـنوبر وضـلوع لحم الغنم.

في صباح اليوم التالي، شرحت لممرضة "الكامب" كيف أن موجات الصداع تنتابني تدور بي الأرض، لوهلة، ثم تختفي بعد مدة، قالت لي: لا أعرف، اشرب ماء فاترا وتمشَّ قليلا. قلت بتهكم: هل أمارس اليوغا، أو أنضم لفريق الباليه المائي؟ لاحظت استهزائي، أكدت بجدية: التعليمات هكذا، أنا أتفهم ما تقصد لكن أنا محددة بأوامر لا أستطيع إرسالك للطبيب، آسفة. صفقت الباب بقوة وأنا أخرج ارتج لها جدار الساندويج بانال الفاصل بين الغرف. أرسلت إس إم إس لـ R "سأبقى بضعة أيام مع أصدقائي في الغرفة، ربما أشعر بتحسن، سأتواصل معك لاحقا، قبلاتي وعناقي الساخن".

- التقى وزير الخارجية العراقي والفنلندي لعقـد صـفقة ترحيـل قسـري لجميـع اللاجـئين العراقيين، أفاد سعد بهذه المعلومة وهـو يقلي بيضتين على جهاز تسخين صغير سـرا. تحـرك سرمد في سـريره، كـان ملتفـا ببطانيـة زرقـاء، بـدت أقدامـه من أطرافهـا: "سـعد لا تخلي الدخان يوصـل لجهـاز الإنـذار بالغرفـة، ويجـون الموظفين ونتعارك مثل كل مرة". قـال سـرمد بصـوت عميـق. جلسـت على حافـة سـريره،

طبطبت على كتفه: "سـرمد صـباح الـورد". رد مازحا "صباح الزفت، ايش جابك، هيـه ناقصـة من الصبح أذيتك". ضـحكت، قلت: "بشـرفك اكعد مشتاقلك". دخل أمير وألقى التحية، كـان وجهه متعبا، سـألني: هـل أزور لطيـف!؟ طلب أن أبلغه تحياته. قلت: سأفعل. انتهى سعد من إعـداد الـبيض المقلي، سـحب كيسـا ورقيـا وأخرج قطع خبز توست، قال لنـا ولنفسـه "قـز القرت تفضلوا", لم أكن جائعا, أمـير قـد يـترك الغرفة بعد مـا حصـل مـع سـرمد، قلت مازحـا "كلاب. اجيت ارتــاح يمكم، لكيت الله مجننكم كلكم، واحـد تافـل بحلـك الثـاني، ايس شصـار بيكم". رد سرمد: "مـو شـغلك، بـدل ملابسـك وتمدد بسريرك يلا".

حدث الامر هكذا , بينمـا انامنشـغل بيـوم عادي، أطبخ أو أشاهد فيلما على النت فلكس، ينقضي النهار، يصـل R عنـد الرابعـة والنصـف تقريبا، يستحم، نأكل معا، أو أترك له شـيئا من الطعام في الثلاجة، قرب علب البيرة المثلجــة، وأخرج للقاء لطيف أو سرمد أو سعد أو فيصل، على حســب تواجـدهم في وســط هلســنكي، نـثرثر، نتـابع الآخـرين بعيوننـا المتعبـة، قـرب نافورة أماندا أو في مول الفـورم، على مصـطبة

بـاردة من الرخـام، يمـر الآخـرون للتسـوق من العلامات التجارية دون أن يشعروا بوجودنا.
- لطيف، متى تنتهي هذه القصة المملة، طلب اللجـوء، الحصـول على إقامـة، العيش مثـل الناس بأوراق وجواز وسكن شخصي، هـل هـذا كثير على الله مثلا؟..
يـرد لطيـف: "إني أشـتغل ومـدخولي قياسي، لكني أشعر مثلك بأن شـيئًا ينقصـني، ايش وقت يعـترفون بينـا بشـر، مـو أرقـام وفـايلات وورق بـدوائر الهجـرة. ايش وقت ؟ تعبنـا , الحـل ان ننهي الامربأيـدنا".

في يوم ثقيل في الذاكرة, على غير عادتـه، عادR مبكرا نوعا ما يحمـل مغلّفـا بريـديا، راجـع محتوياته عدة مرات، لم يصدف أن تدخلت في عمله يومـا، أو سـألته حـتى. كنت قـد اعـددت طبخة "برياني دجاج بالكاري والبطاطا والهيل". جلس على مائـدة الطعـام، وضـعت الأطبـاق السـاخنة مـع سـلطة الأفوكـادو والـبروكلي والليمـون، كـانت أغنيةسـتروماي (رانـدفوا) تنبعث مـع الأبخـرة والرائحـة الشـهية للطعـام. ينظـر إليّ كمـا لـو أنـه يجـري لي مسـحا ثلاثي الأبعاد في ذاكرته، كان مترددا ولديه أمرًا جديدًا

على مـــا يبـــدو. عض شـــفته الســـفلى بتـــوتر طفولي، وفرك عينيه كما لو كان يقاوم رغبة في النوم، كانت الساعة الخامسة والنصف. "خيرا.. لماذا لا تأكل؟" سألته. هز راسه بالرفض، عيناه مســـــلطتان ككشــــافات ملعب على وجهي، شعرت بتوتر، توقفت عن الأكل. "أرجـوك هـل هناك خطا؟ بهـذا الصـمت أنت تزيـدني قلقـا. قام وحضنني بينما أنا جالس، فرك ظهري بكفه والقى راســه على كتفي. باســتغراب: R" هـــل أنت بخير?". لا يرد، ينشـج بصـمت. اسـتدرت إليه وحضنته محاولا تهدئته، مداعبا شعره الذي بدا كعرف حصان أشقر قصير. قلت: "مـا بـك، أخـــبرني أرجـــوك". صـــار التـــوتر يتســـرب في جســـدي كغـــاز البوتـــان من فوهـــة طبـــاخ. "من الصــعب أن أقــول هــذا، لكن". صــمت قليلا: "سنفترق، للاسف". "لمــاذا؟". نطقت الكلمــة من عروق رقبــتي وفمي. "حســنا حصــلت على منحة للدراسات البيولوجية في هارفارد". ســاد موســم من الصــمت، تخللــه صــوت احتكــاك الســتائر بالنافــذة، كـــانت مفتوحـــة، نهضـــت وأقفلتها، عدت إلى المائدة، لكنني توقفت عن الأكل، فقدت شهيتي للطعام والحديث، يشـــبه

هـذا إصـدار قـرار طـرد الـرب لآدم من جنتـه، ومقدار الألم الذي أحس به.
- إذن تعتبرني أنانيا حينما سـأتركك، أرى ذلـك في عينيـــك، وصـــمتك، أرجـــوك، ليس من السـهل أن اتركـك، وليس لـديك أوراق لتـأتي معي. صدقني لست سـعيدا لهـذا بـرغم أنـني أحلم به منذ سـنوات، من قبـل أن أعرفـك، أنـا أحبك وهذا يعِّقد الامر أكثر. هل تتفهم ما أعاني منه الآن؟".
- تعرف الآن شعوري، كمن انهار بـرج "خليفـة" مرة واحدة على رأسه، سـأحتاج لـوقت للخـروج من هذا الركـام، سـيطول أو يقصـر إلا أنـني لن أخرج سالما بالتاكيد.
بعينين دامعتين، أردفت: " لست سعيدا بهـذا، لن أكـذب عليـك، لسـت أنانيـا كـذلك، لأطلب منك أن تترك حلمك لأجلي، أشعر أنني لا شيء بدونك، كسمكة ما زالت حية في زيت ساخن في مقلاة، تخيـل، لكن "الله يسـهلك"، لأنـــــني أحبـــــك كمــــا أحب نفســــي. حضنني بقوة وأجهشـنا في بكـاء صـامت. "لم أتخيـل أنـك تحبـني لهـذا الحـد". همس في رقبتي. "لك أموت على ربـك"، أجبتـه باللهجـة العراقيـة، رد عليَّ: "إني أمـوت على ربـك". رد

باللهجـــــــــــــــة نفســـــــــــــها.

حصل هذا مجـددا بعـد عشـرة أيـام في مطـار هلسنكي، عندما ودعته: "ربما سألحق بك يوما ما، ربما". قلت بحسرة.

عادت حيـاتي بعـد رحيـل R إلى مسـاراتها البطيئة والمشبعة بخيبة الأمل، نملة حافية في جليـد، أوزة تـاهت من سـرب، حيـاة سـريرية، عــدت للحــافي الأبيض ومنشــفتي الصــفراء، الوجــوه المتعبــة نفســها، النظــرات المــاطرة بنظـارات سـرمد، الأسـئلة العبثيـة، لمـاذا كـل هذا؟ نجـد بالكـاد من نحب، يتلاشـون سـريعا، يســقط الحب ويعيش الانتظــار ثلــوج الشــتاء المتأمرة علينا، تفعـل أفضـل مـا لـديها لتضـخ كابـات متواصـلة مثلهـا مثـل قـرارات الـرفض الصادرة من دائرة الهجرة. أفكر لا منطقيـا: هـل هم على اتفاق؟ أقصد الكابات والشتاء والثلــوج ودوائــر الهجــرة، أم أننــا في الزمــان والمكــان الخطا؟ تفـاءل، يحثـني سـرمد على الاسـتمرار، في عــام 2050 ستصـير الأجـواء اسـتوائية في فنلنــدا بحســب احــدث الدراســات، لم يبــق الكثير،فقط ثلاث وثلاثون سنة لا غير.

أشعر بثقل جبل هلتي يسير فوق رأسي. كنت بحاجة لأن أخرج بغريزتي الفطرية، إعدام

القط حبسه، يجب أن امارس الحياة الليلية كما السابق للمتعة، لأجل المال، لشراء البيرة والسجائر. تستدير الحكاية على نفسها، أعود للوبي مول الكامبي، المركز التجاري الأكبر في وسط هلسنكي. من هنا أذكر البدايات، ما زال مخلصا لهوايته، طوال المدة السابقة، "أري"، الفنلندي المسن الذي اتفق معي قبل أربعة أعوام على جنس فموي في الحمامات الملحقة بمطاعم المول، قابلته اليوم. "هل من جديد "وتس اب مان"؟". "لا شيء". "أري هل ترغب؟". أجاب "نعم. لكن هذه المرة بخمسة يورو هات فقط". ساوم باحتراف. تساءلت "لماذا؟". "يوجد الكثير منكم الآن، العرض والطلب عزيزي ميرو".

ـــــــ سرمد,المضاجعة بلا حب كالبيرة بلا كحول..

عدت لممارساتي القديمة، المواعدة، مقابل عشرين يورو أو مجانا، أفرطت في الهروب من نفسي إلى الآخر، فليكن مايكون، كل حضن مؤقت، كل سرير زنخ بالوساخة والمني، أو كل شفة مستهلكة تشعرني بأنني ما زلت مطلوبا وأن الأبواب تفتح لي. ربما أعثر على R آخر، صرت أبحث عنه بشراهة بين

جميع الرجال،

لم أجده، ولم أجدني بعدها. كنت فقدت الكثير من حيويتي ورشاقتي، أشرب البيرة أكثر من الماء، أدخنِّ بشراهة ولا أعتني بجسدي، لم أعد مرغوبا مثل السابق من فئة الشباب المثليين، صار العجائز فقط من يواعدونني، في الغرفة 155 التي كانت مفعمة بالحياة والضحكات والجلسات الجميلة تبخرت كلها. بقينا أنا والبومة الحكيمة سرمد لوحدنا، لطيف في شقته وسعد مع بايفي، أمير الأفغاني مع سيربا، لم يعد لدينا ما نقول، صرنا أمواتا ,فقط تأكل وتنام، وتستعمل التواليت .

بينمـــا يحتفـــل الآخـــرون بأعيـــاد الميلاد، يشـربون ال كلـوكي الحلـو، ويتبـادلون التهـاني النصـية واللفظيـة، الهـدايا والزهـور والـدفء العائلي الشـحيح في بلـدان الشـمال الأوروبي، أجراس وأشجار مزينـة بكـرات ملونـة ككـواكب ونجوم فضية وذهبيـة، مواقـد مجمَّرة تصـطف أمامهـا الأحـاديث والأكـف ونزهـات وتسـوق وسعادة بـالكحول أو خاليـة من الكحـول. بينمـا كل هذا في الخارج، أعض على مخدتي وأحاول النوم تحت لحاف الضجر، وقت ثقيل كمجوقلة جنود، مساء شتائي ممل يبدأ منـذ الظهـيرة، لا

شغل لا عمل لا أمل، نأكل وننام وأحيانا نضاجع. يوجد إشعار في تطبيق روميو للمواعدة، أرسل hi، تصفحت بروفايله، في الرابعة والأربعين، عينان صفراوان، شعر بني داكن قصير، جسد رياضي، غير مشعر، سالب، يرغب في المواعدة، جنس آمن، بواقٍ ذكري، لديه شريك، العمر المطلوب، بلا تحديد.

استغرق الأمر يومين، اتفقنا بعد مساومة، طلبت مئة يورو، خفضها إلى ثمانين، زائدا ساعة في ساونا بوقود الخشب. في الشتاء يسافر معظم الأثرياء كما تفعل الحيوانات في هجراتها العظمى، إلى الشرق بحثا عن الدفء، والطعام والتزاوج، لذا يقل الطلب على المواعدات، وبالتالي أقبل بالمتاح. هذه المرة في آخر محطة للقطار ضمن إقليم (أو سيما)الذي يشمل هلسنكي وفانتا وايسبو، يقع المنزل في منطقة بعيدة نسبيا، كيرافا.الغالبية هناك من العمالة من دول آسيا وأفريقيا وشرق أوروبا، وأستونيا، تناسب بدلات الإيجار، هناك أيضا الفلنديون ذوو الدخول المنخفضة.

-أنا قادم بالقطار انتظرني. أتواصل معه.

-ـ نعم أسرع، لا أتحمل أكثر، أوهـه، أنـا مهتـاج، بلسانك ,بقضيبك افعلهاحينما تصـل أرجـوك.
وأرسل لي صورتين لمؤخرته العارية.
صـادقا مـع نفسـي أحـدثها، مـا أفعلـه انتحـار مجزءا، كالبازل، متى يكتمـل، تتجمـع الصـورة، وينتهي الأمـر. الـوقت هـذا الابتكـار الهلامي السحري يجب أن نجد له مضـادا، سـمعت عن ذلك فيزيائيا، المادة السوداء، الطاقة السـوداء، التواجد في مكانين أو ثلاثة في الـوقت نفسـه، لو حصل واستطعت لهـربت إلى خـارج الكـون إلى المطلق حـتى لـو خسـرت جسـدي مقابـل ذلك.

كان ينتظرني، ليس صعبا أن تميزه، كان رصيف المحطة فارغا تماما في تلك الساعة الشتوية، التاسعة مساء. لوهلة قررت ألا أنزل من القطار والانتظار نصف ساعة حتى يعود بي إلى محطة "تيكوريلا" التي انطلقت منها، لكنني نزلت، بفعل الاستمرارية والاعتياد على السقوط بكل الاتجاهات، لن يحصل أسوا مما أنا فيه الآن، هكذا فكرت، تابعت الطريق في اتجاهه. تعارفنا، يبدو من قرب كدب قطبي، بدا أكبر سنا من صورته في البروفايل، زاد شعوري بالنفور، لكنه تصرف معي بشكل

مهذب، قادني إلى مقهى صغير، طلب لي شيكولاته ساخنة، تحدث عن إعجابه بي، قفزت كلماته كفقرة اعلانية مضجرة. "كم عمرك؟" سألته. أجاب بسؤال: "شكلي مختلف قليلا عن الصورة؟ لم أحدِّث صورة البروفايل منذ ثلاث سنوات، ربما". قاطعته بتململ ظاهر "لا يهم". "علينا أن نذهب إلى منزلي الآن"، قال وهو ينهض "لا تنس قفازاتك هنا" أردف مربتا على كتفي. ركبنا سيارته السكودا الرمادية، في الطريق كنت أشعر بألم خفيف بالمعدة وبرودة مقلقلة في داخل رأسي. غددنا البيولوجية، التي أهملناها مستعينين بالتكنلولوجيا، مازالت تعمل، كانذار، خافت على الأقل، لا نستجيب لها بسبب ثقتنا بالمحيط الخارجي أكثر من ثقتنا بمحيطنا الداخلي، مستشعراتنا اقصد. "هل هناك خطأ ما؟" نظرت مستفسرا. فأوضح "تبدو قلقا". "لا، لا شيء، ربما أحتاج لمشروب لأنسجم أكثر". "نعم، هذا لدي مشروب وكوكايين". أجاب.

اتجه بسيارته نحو طرقة زراعية فرعية، خارج الشارع الرئيسي، تزودني نافذة السيارة بمشاهد روتينية لشتاء فوق منازل خشبية

داكنــة، تكــدس الثلج على الســقف القرميــدي وعتبة الباب. توقفت سيارته أمام أحد المنازل، شعرت بتحسن في المزاج، ربما كنت متشككا ومتوترا بلا داع، النوافذ مضــاءة، يتســرب النــور الأصفر إلى الياردات الجانبية للمنزل، يتســاقط الضـــوء على رجـــل الثلج وزينـــة عيـــد الميلاد المعلقة في الخارج، أضواء ملونة تومض بفرح، طـوق غـار على البـاب وأجـراس فضـية تلتمـع كانها تغمز.

سألني: "ما رأيك بال فتش سكس "، هل تعرف ما اعني"؟. أجبت بهزة رأس بالنفي. "حسنا سأريك ذلك عمليا". كنا أتممنا جولة مضاجعة ثقيلة أولى، لم أشعر سوى بالقرف، فقدت تركيزي مرتين إلا أنه أعاده لي ب"البيبيري"، أو بخضخضة عضوي بعنف. موسيقى اغنية عيد الميلاد تنسكب في غرفة الجلوس وتصلنا

"Oh، jingle bells، jingle bells
Jingle all the way، Oh، what fun it is to ride
In a one horse open sleigh، ingle bells، jingle bells

خرجت لأستريح قليلا، استمر على وضعه، عاريا مستلقيا على بطنه، نصـف مهتـاج، أنظـر إلى شجرة عيد ميلاد الكبيرة مضاءة بالمصابيح

الملونة والزينة بشرائط تلتمـع متموجـة، بينمـا رائحة كعك شهية تنبعث من المطبخ..

- هل تحب أن نكون في الساونا؟!

- ليس الآن، ربما أريد أن أغادر سريعا...

- أوه صغيري. قال مداعبا خدي بكفيه الباردتين، أزحتهما، أشعر بقلق لا يتناسب مع ما حولي من أضواء وفرحة واحتفالية مبهجة.

- عليـك أن تكمـل اتفاقـك، السـاونا، لأعطيـك المبلغ،يلا يلا ..سـحبني من ذراعي برفـق, نزلنـا سلما في عتمة باتجاه الساونا

"See the town tonight

Christmas lights are everywhere، the whole place is shine and bright ,Santa Claus is on his way، got load of goodies in his sleigh

تستمر الأغنية بايقاعها الاحتفالي في أذني حتى وأنا في الساونا، كانت فكرة جيدة فعلا شعرت بأن التوتر خف قليلا، أفرك جلدي تحت البخار فتنسلخ طبقة عجينية خفيفة من الجلد الميت والأوساخ، خرج وعاد بعد ربع ساعة، بدا أنه تناول شيئا ما، انقلبت عيونه للداخل، واهتاج كثيرا، تصرف كقطار خارج سكته ربما مخدرات ال "ويد" أو الكحول بجرعة عالية هي السبب:

ـــ "اسمع". قال وهو يفرك ابطيه تحت البخار, أريد أن أخبرك بحكاية شاب في عمرك استأجرته للمتعة، كان عراقيا أو أفغانيا أو أي شيء، ليس مهما، كان غراء ورفض الكثير من الأشياء المجنونة التي أحبها". بدأ بسرد قصته دون أن أكون مهتما لذلك، سمعتها وأنا أسحب علبة البيرة العاشرة من الكارتونة, اكمل:

ـــ طلبت منه أن يضاجعني مرة رابعة في الليلة نفسها، أعطيته كل ما تتخيل من منشطات، تخيل في الثامنة عشرة ولا يجيد الجنس كحصان، دودي متى سيتمرس هذا الشاب في رأيك على الجنس؟. "ها، لا أدري.. ليس هذا من شأني". "نعم ليس من شأنك، سأكمل لك، أقفلت الأبواب وابتلعت المفتاح، قلت له الآن أو سأطلب الشرطة، توسل بي أن أمنحه وقتا، لم يكن قضيبه الذابل ذو العين الواحدة المغمضة قادرا على أن يرفع رأسه، سألني ما سأقول للشرطة، قلت له السكين الذي قطعت به الحلوى والتفاح في الخارج، عليه بصماتك سأطعن به صدري وأتهمك، خاف أن يُمسك رضخ خائفا، ربما كان مهاجرا غير شرعي مثلك، ربما مطلوب للترحيل، هل

أنت كذلك، أقصد مطلوب للترحيل؟". بدأت أقلق، إنه يهددني بشكل ملتو، تذكرت، أنا أيضا استعملت السكين لقطع التفاح، ربما صنع هذه الحكاية من خياله لأرضخ لطلباته الغريبة والشاذة، صمت بينما أكمل هو حكايته.

- أمسكت عضوه ومصصت ومصصت بلا جدوى، كان طريا كحلوى الجلاتين خدشته بين أسناني صرخ من الألم، بكى كطفل، طفل ما أضاع أبويه، لم أكترث له، لم أجرب الأبوة من قبل، أمرته بأن ينحني، فعل فادخلت أصبعي في ثقب مؤخرته لعله يثار، أدميته بدون جدوى، كسرت المرايا في هياج، صرخت أعلى وأعلى بينما المسكين منكفئ في زاوية يتحسس مخرجه المدمى ويئن من الألم، طردته بلباسه الداخلي. ونمت.

سألته: "هل أتممت؟ أريد أن أغادر الآن".

- إلى أين يا صغيري، لم يبدأ العرض بعد.

رد مع ابتسامة ماكرة.

عندما عدت في صباح اليوم التالي الى الكامب، اختبأت كلي في السرير كنعامة دفنت نفسها، سمع سرمد بكاء حادا ينطلق مني، لم يكن بكاء، كانت روحا خفيفة كفقاعة صابون توخز بآلاف الإبر، تُفقا متشظية هنا

وهناك. تركني سرمد أبكي دون إزعاج، خرج لساعة وأكثر، ثم عاد، سحب عني اللحاف، وجلس قربي. كانت كمية المخاط والدمع على الوسادة تشكل خطوطا صفرا كصدوع، كانت عصارة لزجة لألم وحزن وانكسار، أدرت وجهي جهة الجدار، تجنبت أن يراني سرمد بهذه الحال، أن يرى ما حصل في عيني، كان المشهد مازال مخزنا طريا، العين تعمل ككاميرا، أقسى المشاهد تحفر هناك على شبكية ما، تلتصق للأبد.

- خير مروان؟ مر وقت الريوك، الغدا، العشا.. وأنت بفراشك، ما جعت؟ أوكي، بس ماتحركت من مكانك، لا أنت نايم ولا صاحي، إحنا أخوان.. أو هذا إحساسي على الأقل اتجاهك، اتجاه البقية، سولف شصار؟

بدا صوته محرِّضا على البكاء أكثر، يشعر بي كأخ وكشريك سكن، حتى لو لم أخبره، الحرقة التي بداخلي تظهر عليَّ.

- ما كو شي، ماكوشي..

أنشج، أعصر عيني لتذرف أي ندى لتغوش الصورة ولا أرى خيبتي وفضيحتي في وجه سرمد، لكنه أصر، سحب عني اللحاف، أخفيت

وجهي بذراعي. سحبهما برفق كأب يطمئن على ابنه .

-ـ مـروان، من هـو اللي سـوا بيـك هـذا، ليش ساكت، خل نروح نشتكي، للشـرطة للكمب ل اللّه، مـروان شـنو صـار، مـا تحكي خبلتـني، لا تبك، سولف لي.

دفع ساعدي جانبا كلما أحاول تأطير وجهي بهمـا أو إخفـاءه. أعتـدل في جلسـتي، سـرمد يستمع لي باهتمام برأس مطرق يميل للأسفل وبعينين تقرآن كل شيء قبـل أن أتكلم. يلاحـظ ارتجافـة بسـيطة في أصـابعي وشـفتيَّ، أبتلـع لعـابي، فمي جـاف: "سـرمد، عطشـان". يهـرع إليَّ بقدح ماء، بينما ما زلت متكورا على نفسي فوق السرير، أتالم كحلـزون مصـاب بثقب في صدفته:

- آه.. يا سرمد إيش أحكي إيش أكـول، البارحـة شفت الموت. من دخلت لبيته، قـدم لي قطـع حلوى ينبيرغ وزبد وخبز، وتفاح، كالعادة اقـترب مـني واقـتربت منـه، جنس حسـب الاتفـاق، تعرف، لحد هنا كل شي طـبيعي، غـاب شـوية ورجع مو طبيعي، جاموس مجنون أو أكثر، قال السـاونا جـاهزة، حـاولت أتملص اتصـرف بعصبية، ودفعـني، كنـا بعـدنا عـراة، بالسـاونا،

شرب هواي هواي جن فودكا، استعمل نوسكا سويدية تحت الشفة، تعاطى كوكايين,صار يشخرِّ، يصرخ، يرقص، يغني، جن، حاولت أهرب، دفعني وحبسني بالساونا، وصل اثنين من أصدقائه، استونيين روس ألبان ما أعرف لهجتهم مو فنلندية، كان متفق وياهم، بقى يشاهد اللي صار..

صمت واصطكت أسناني ببعض، كيف أشرح لسرمد، كم سيكرهني، ويتقزز مني بعدها، حتى لو تعاطف معي، فلن أتعاطف أنا مع نفسي، التطهير يأتي عن طريق جلد الذات بسوط ذي شفرات حادة تصل حد العظم, حد الموت، الموت أنواع ودرجات، أسهله موت الجسد، وأندره وأصعبه في الوصول لموت الذاكرة، لأنها مادة لاتفنى مهما حاولنا، أو استبدلنا ملفاتها بأخرى، الحل هو تهشيم "الهارد"، الدماغ كما نفعل لذاكرتنا المادية الإلكترونية. ما لم أسرده لسرمد، أو سعد أو لطيف، ولن أسرده هو:

- دخل الساونا رجلان عاريان، الأول ذو عضلات في أواسط الأربعين، والثاني أكبر منه، في الخمسينيات، توقعا أنني سكران، طيع، سهل أتقبل أشياءهما الجنونية والمقززة، ربما

حدث هذا لعديد من المهاجرين قبلي، يستقدمونهم بمكر لتبدأ حفلة الاغتصاب في الساونا، هددني الأول، بموضوع السكين، أخرجها وغرسها في جلد الرجل المسن الأصفر المتهدل، لم تند عنه أية أنَّة, نم عن الإفراط في تعاطي المخدرات، "سنتصل بالشرطة ونخبرهم أنك من قتله"..

ــ لكنني.. "اشش بصماتك على السكين ياصغير". فاتني أن البخار يمحو أي شيء في الساونا في 110 مئوية، لست متأكدا هل هي السكينة نفسها التي لمستها عند تقطيع التفاح؟ باستسلام وخوف.. إذن فماذا تريد؟ ضاجعتك ثلاث مرات ولا أقدر أن.. "اش اش" رد الأول، سنقلب الأدوار، نم على بطنك الآن وافتح مؤخرتك بيديك، انقضّ عليّ الرجل المعضل، بدا قضيبه كهلال غليظ متدليًا بين خصيته، كان الأول يشاهد وهو يستمني بيده بينما اختفى المسن من الساونا، قلت" ساتصل بالبوليس، أنا لم أفعل شيئا سأخبرهم كل الحكاية"، "اش اش هذا متاخر الآن ". رد المعضل، دفعني بقوة، بسبب الرطوبة انزلقت على أخشاب مصطبة الساونا، ارتطم رأسي، سال خيط دم كشريط زينة ملون أفلت من

شجرة عيد الميلاد في الخارج، بدأ بركلي بخصيتي، بوجهي، ببطني انتقلت حرارة موقد الساونا إلى معدتي، بدأ جسدي تخور قواه بسبب التعرق وفقدان السوائل، بال على وجهي أولا، أجبرني أن اشرب، مالحا كان، زادني عطشا، اختنقت كل مسامات جسدي، تلاشى الأوكسجين من الكون كله دفعة واحدة، فقدت الوعي، عندما أفقت كان الفجر يحل ببطء كانت الساونا فارغة إلا مني ومن ألمي الشديد، ورضوض في كل جسدي، أشدها في.. مؤخرتي، ، مني ودم متجلط على فخذي، وبول وبيرة تغطيان وجهي، سحبت جسدي منحنيا على خاصرتي إلى غرفة الجلوس، لم أجد أحدا، لم أجد ملابسي، محفظتي هاتفي قلادتي الفضية، التفعت بطانية وخرجت للشارع أجري وأجري حتى اصطدمت بسيارة متوقفة، جلب جهاز الإنذار الذي انطلق صاحبها، حكيت له ما حدث، نقلني إلى الشرطة، مستوصف، ثم الكامب.. سرمد أتمنى ألا تكون تسمعني وأنا أفكر بصوت عال، أستحي منك، انكسرت، للأبد, ياالله، يا سرمد، يا لطيف, ياسعد.

أفتح ايميلًا وصلني للتو من R, جملة واحدة فقط, أقراءها .

"أموت على ربك...M".

الفصل الخامس

(عندما طار الفراش)

"حصل هذا عرضـا، قـرب نافـذة المطبخ المطلـة على حـوض غسـيل الصـحون، لمحت شـيئا يطـير في الخـارج، اقـتربت، كـان يرسـم بحركـة جناحيه موجـات لونيـة متداخلـة، أشـار إليّ، عـبر الزجـاج المضـبب بقطـرات المـاء المتناثرة، أن ألحق به، أن أطير... أنـا صرصـار.. رددت.. لم يسمعني، أشار إليّ أن أحـاول، ولـو لمـرة واحـدة فـزعت، ركضـت إلى الجحـر واختبـأت، هـل كنت أحلم..أم هـذا حقيقي، لم أعد أميز بين الإثنين؟

في عائلة صراصير محترمة، نشأت، أم وأب يكافحان لأجل لقمة العيش، يقضيان جل وقتهما في المطبخ أو خزانة الطعام، نسكن خلف دولاب عجوز مصاب بالزهايمر، يسألنا كل مرة نعبر من تحت قوس ساقيه بصوت أجش: من أنتم؟.

أشاهد الآدميين بأحجامهم الهائلة ، يتحكمون بالزمن، النهار والليل, من خلال مصباح معلق في السقف، حركتهم بطيئة كالطاولة، بينما نتنقل مسرعين بين أدوات الطهو بحثا عن فضلات الطعام كالخبز أو فتات السكر، نخشى المبيدات وحملات التطهير العرقي المفاجئة.

مرة في الصباح، وبينما كانت ملعقة الطعام ملقاة على الأرضية، رأيت نفسي في تحدبها الفضي، لست بلون قهوائي، ليس لديَّ ارجل مشعرة أو شوارب طويلة، كيف لم أنتبه من قبل لذلك، أحدِّث نفسي، أدقق النظر "آه" لديَّ جناحان رائعان، شراعان هوائيان مطويان منذ ولدت، كان يمكن لهما أن يحملاني أعلى حتى من سيدة المطبخ، عليهما شيء منقوش كما الحديقة التي أراها من النافذة كل صباح.. ثمة ربيع لا ينتهي ملتصق بجناحي المتناظرين، ينسكب البرتقالي باتجاه الأصفر حتى الحواف المقرَّنصة، كنت ما أرادوا أن أكون عليه،صرصار، أرى وأسمع وأتهجى الحياة من خلالهم.

-ـــ لكنــك فراشــة، أنت لســت صرصــارا، هــل فهمت؟!

-ـ ما معنى فراشة؟ لم يخبرني أحد بذلك

-ــــ ليس مهما أن يخــبروك من أنت، الأهم أن تكون أنت , وداعا.

حرَّضني، حرَّك جناحي بكلماته، وطــار إلى ما لانهاية.

وقفت أمام النافذة المفتوحة جزئيا، كان الهواء ينفخ نفسه منعشا وسريعا، فردت

جناحي، كان متقلصا بما يحتوي عليه من ألوان وتشكيلات مذهلة، حركت جناحي الأخر, في كل لاتجاهات، أغمضت عيني، سمحت للريح أن تأخذني إلى فضاءات الضوء وعطر الحشائش والزهور البرية، صاحت السيدة صرصار خلفي: من أخبرك السر عودي للجحر حيث الأمان، سيصطادك الصبية بشباكهم ويجففونك ويصلبونك بالدبابيس، لاتتهوري يا غبية كما فعلت أمك من قبل وأكلناها...عو ع...دي.

ابتلع الهواء صـوتها رويـدا رويـدا وأنـا أعلـو وأعلو منذ ذلك الحين إلى الآن.

ليلى هاني
هلسنكي. فنلندا
نيسان 2016

أرسلت هذه الأقصوصة لبرنامج "نصـوص " الأسـوعي في الـبي بي سي المختص بـالأدب، كـان قـد أعلن عن مسـابقة للقصـص القصـيرة للهـواة، مثـل حـالتي، تشـرف عليه شخصيا الكاتبة البريطانية من أصل فلسطيني، سلمى الجـراح، المقيمـة في لنـدن. ربمـا أحلِّق يوما كهذه الفراشة، أو تحلِّق كلماتي هناك على الأقل، أحدَّث نفسـي بـالحلم واليقظة، كنـا قـد وصلنا مـع الآلاف من طـالبي اللجـوء عـبر بحـر إيجة واستقر بنا الحال في "كامب هوبرنتيا 1"، حيث المنفى الأول الأخير.

ارتفعت حـرارة زهـراء ابنـتي، خمس "سليزية"، دفعة واحـدة، فـزعت، أكثم، زوجي، في الخـارج. هـرعت إلى الممرضـة كيرسـي، هَّدُات من روعي،" سـيدة ليلى لاتقلقي، يحصل هذا بسـبب التسـنين". أعطتـني بعض اللبوس الشرجية لتخفيـف الحـرارة، أكـدت لي أن هذا حل مـؤقت حـتى يـأتي دورنـا لطـبيب الأطفال، يسـتغرق هـذا ثلاثـة أيـام على الأقـل بسـبب الـروتين، أرد عليهـا بعصـبية، سـتكون ابنـتي شـفيت خلال هـذه المـدة واسـتعادت حرارتهـا الطبيعـة، سـتكون زيـارة الطـبيب للدردشة فقط. تتفهم مشاعري كأم وتتمنى لهـا

الشفاء العاجل. عدنا للغرفـة في الطـابق الأول، اتصـــلت بـــزوجي "أكثم وين أنت؟ محتاجـــة شــغلات من المــاركت.. أي عيــني شــغلات نسوان على قولتك، لا تنسَ...، باي، الله وياك".

عندما عاد "جبت لي حفاضـات نسـائية؟" سألته. تشاغل بهاتفه "ها.. كانو أصدقائي وياي شلون أكدر أشتري يعني من كل عقلك". أصيح في وجهه "ليش شـــنو عيب، همـــا ماعـــدهم نسـوان أو خـوات أو بنـات؟ يعـني شـلون أجـو للدنيا، مو من رحم أمهاتهم؟ شلون أروح لحمام اوللمطعم وأنا أقطـر دمـا". قلت بغضب ونـبرة عالية "هسة تروح. ما أعرف، يعني تريـدني إني أروح بها لليــل؟". صـحت بعنـاد طفلـة، كـانت السـاعة تجـاوزت الحاديـة عشـرة "ليلى، مـول "يانبو" قفل مـنين أجيبلـك يعـني؟ لا تسـويلنا مشـكلة، اسـتعملي ايـة قطعـة قمـاش دبـري نفسك مثلهن لجـداتنا قبـل، يعـني منـو منهن استعملت سـانتي؟". بلعت كلمـاتي وحـاولت النوم، في السرير حضـنني من الخلـف، ضـغط مؤخرتي بقضيب منتصب، شفاهه تلعق أذني اليمنى بينما تعصر أصابعه حلمتي بتمهـل من خلف السوتيان "استغفر الله". نهضـت بحركـة سـريعة، جفـل قليلا "انتـو شـنو، أنت متحس

بالدورة؟ جاي تحكك بيه، يعني وين اروح انام برة بالصالة الخارجية يم الشباب؟". انسحب متضايقا، عدت للنوم، كنت أفكر كيف سيتخلص من حصالة المني المدخر في خصيتيه الليلة. ذهب للحمام، عاد بعدها بسعادة جزئية ونام... الرجل دمية جنسية شرهة تباع في علبة ملونة اسمها الحب، ترمى العلبة بعد ذلك ويبقى الرجل، كحقيقة علينا تقبلها أو استبدالها بدمية أخرى بعلبة جديدة أخرى ملونة في الغالب اسمها الحب. أغبى امرأة تفهم الرجال، بينما أذكى الرجال لا يفهم أغبى امرأة، كتبتها في رأسي وفي جداري الفيسبوكي. انهالت التعليقات والإعجابات، شعرت برضا بسيط، نمت محتضنة زهراء ابنتنا ذات السنوات الخمس ونصف السنة.

في الصباح أصحو على صوت شجار، أتافف، أكثم تشاجر مع الموظفين مجددا، "خير ياستار شكو هذه المرة من الصبح؟". سألته عندما رجع "ما خلوني الفارتيا، الحراس الأمنيين، اطلع اكل من القاعة، ردت أجيب لك الريوك، أولاد ال.. رزلتهم للحراس، وبعدين اعتذرت منهم". ابتسمت خلسة "تستاهل"، تمتمت، منعوه من إخراج طعام من المطعم،

القـوانين تقضـي بـأن يأكـل اللاجئ وجبتـه في قاعة الطعام، أخبرهم أنني مريضة ولا أســتطيع المجيء، كانت لغته الإنكليزيـة ضـعيفة، تطـوع أحـد الشـباب للترجمـة، طبعـا كـان يخجـل أن يقـول "مـرتي عليهـا الـدورة الشـهرية"، قـال مريضـة، طـالبوه بورقـة من الممرضـة ترسـل للمديرة وتتخذ قرارا بالسـماح لإخـراج بيضـتين مسلوقتين وخبز أسمر وكوب شـاي، يســتغرق الأمـر ثلاثـة أيـام أو أكـثر. فنلنـدا بيروقراطيـة البيروقراطية. كفر مـرتين وألقى مـا يحمـل من بيض وشاي في الهواء وخرج، سمعت صياحه، تشـفيت بـه "كـل هـذا لأنـك لم تسـتطع تـرك أصـدقائك دقيقـة لتلـبي طلـبي". اسـتدعاه الموظفون للتحدث، قالوا لـه: "يجب أن تعتـذر من الحراس لأنك أهنتهم". أجبروه في الحقيقة على ذلـك، كبريـاؤه كعـراقي لا تسـمح لـه بـاي اعتذار طوعي عن أي خطأ، بعد يومين..

استعادت زهراء عافيتها، وانتهت مأساة الحيض بدون أن يشتري لي زوجي حفاضات نسائية، دون أن يعتذر عن ذلك. في المساء تفحصت البريد الإلكتروني، اختيرت أقصوصتي (عندما طار الفراش) للمنافسة على المراكز الثلاثة الأولى. حتى لو لم أفز هذا

يكفيني تقديرا لموهبتي التي دفنت في أدراج الزواج منذ آخر قصة قصيرة كتبتها في أيام الكلية، في جامعة بغداد، قسم اللغات. كنت أعيش الحلم كشابة ببشرة برونزية وكتل متفجرة أنوثة عند الصدر والأوراك، كانوا يسمونني (بيرين سات) الكلية، تشبيها بممثلة المسلسلات التركية المثيرة، بعينين نمرتين، بشعر أسود مجعَّد إلى ما لانهاية كطريق بري ينتهى إلى مجاهيل امرأة، تزوجنا، سقطت كنيزك من سقف مجرة وأنطفأت. يكبرني بخمس سنوات، خريج متوسطة، توقف عندها ليساعد عائلتين في الرزق كسائق تاكسي، استأجرناه أنا وبعض الطالبات كخط نقل، أربع سنوات الكلية، يوميا تقريبا، ذهابا وإيابا، مرآة أمامية وتبريد منعش في سيارة معطَّرة ب "ايف سان لوران "مقلد، يُسمعنا كل يوم المطربة أليسا، تغني تجاربها لجنسية بشكل مرهف يصل إلينا ويوقظ الزهرة النائمة بين الفخذين. أحبني أو اشتهاني.. التوصيف ينتهي إلى السرير في النهاية كزوجة، ولو افترضنا أنه أحبني، اعتادني، اعتاد نكهة السرير معي. حتى لو كان طعامك الكافيار الغالي كل يوم، ستمل وتحن للفلافل، لست متاكدة، ربما ذاق لحم

امرأة ما خارج المنزل مرات عديدة، كنت أستشعر ذلك من جسده، رغبته، انُفاسه الملوثة بعطر نسائي، ومن مناسيب المني المنخفضة التي يقذفها معي في السرير، وهي تدل على وجود قناة أخرى للتفريغ، لكن الكذبة الزوجية أنجبت ابنتنا زهراء.... في الشرق كثيرا ما تعيش النساء ويمتن وهن يبحثن عن جواب واحد. متى تصدق كذبة الزواج هذه وتصبح حبا حقيقيا؟ تقول لي أمي وهي تضفر جدائلي مرة:" ماماتي عيني، الحب بعد الزواج مو قبله, هيك تعلمنا من جداتنا و أمهاتنا".ارد عليها ساخرة:

ـــ هذه اسمه تبلع حبة منوم وانت نايم أصلا, شغله ما الها ضرورة .

أخبرتـنـي الموظفـة صـوفي، الـتي تبـدو كملاك أشـقر مسـتيقظًا للتـو، أن بـاحثين اجتماعيين من دائرة صحة الأسرة وفدوا لإلقـاء محاضرة خاصة للعوائـل في الكـامب، دفعـني الفضـول وإلحـاح زهـراء: "مامـا، راح يوزعـون لعب وحلوى للأطفال، مامـا خلينـا نـروح..يلا ". تسـحبني بتوسـل من يـدي باتجـاه المحاضـرة: "لج ماما ، هياتنا رايحين"..

وصــلت إلى غرفــة الاجتماعــات، كــانت هناك عشر نساء جئن مصطحبات ستة أطفـال آخـــرين وتحت إلحـــاحهن. جلس الصـــغار متململين في انتظـار وقت الحلـوى والألعـاب في نهايــة المحاضـرة، طريقــة ذكيــة لســحب الأمهات الكسولات للمحاضرة بواسطة أبنائهم، جلست قرب سيدتين إحداهما صومالية بزيهــا الأفـريقي التقليـدي، والأخـرى عراقيــة كرديـة، حضرت الاجتماع الموظفـة مـاري من الكـامب ومترجم عربي فنلندي من أصول جزائرية... قدم المحاضر نفسه، اسمي دكتور فيليبي هاربالين، بـاحث مختص بموضـوعة المجتمـع والأسـرة، خارجيا، يبدو نسخة مكررة من الفنلنديين، فهـو طويل ونحيف، أشقر شمالي بأسنان بيض جدا وعينين خضـراوين كملعـبي غولـف صـيفا، مـا يميزه هي التلقائية، وعينان وشـفتان تبسـمان بصـدق. صـرنا نعـرف المتصـنعين سـريعا مـذ وصلنا إلى أوروبا، يجيد الحـديث بجسـده، لبـق شـد الانتبـاه إليـه منـذ البدايـة، حـتى لـو كـان يتحـدث الفنلنديـة. شـعرت بـأنني أعرفـه من قبـــل، روح المزحـــة حاضـــرة كـــذلك الدماثـــة والقبول، بدا لي أنه جسد غـربي بـروح شـرقية، صــادف أن تصــادمت نظراتنــا عرضــا لثلاث أو

أربـع مـرات ككـرات بليـاردو، انتبهت لـذلك، وتجاهلته. تحـدث عن رعايـة الطفولـة والعنـف الأسـري، تحـدث عن تفكـك الأسـر بسـبب التنصـل من المسـئوليات الزوجيـة أو إدمـان المخـدرات والكحـول، وانعكـاس ذلـك على الأطفال، بـرغم أن الدولـة تهـيئ لهم سـكنا في ملجأ ويتم توفير وسائل الرعايـة لهم على أيـدي مختصين يـؤدون دور والـديهم المنفصـلين، إلا أن ذلـك يبقى اصـطناعيا ولا يعـوض المشـاعر المجانية التي نحصل عليهـا من أبوينـا. سـألت عرضا: "هل الخيانات الزوجيـة سـبب مهم في كثرة حالات الطلاق في فنلندا؟".

-ـ عرفينا باسمك أولا لو سمحتِ؟

اتجه فيليبي نحوي، صرت بؤرة اهتمام الجميع، استدارت عيونهم نحوي كانت فرصته ليحاورني متفحصا وجهي وكلماتي .

- إسـمي ليلى من بغـداد، هـذه إبنـتي زهـراء، عمرها خمس سـنوات ونصـف السـنة، عـذرا ساتحدث بالإنكليزية فقط.

- مرحبا، فيليبي هنا, سعدت بمعرفتك . اكمـل ملوَّحا بيده متصنعا فرحا طفوليا. اكمل: "حسنا زهــراء، عفــوا، ليلى، عليَّ أن أوضــح لــك أن الفروقات الثقافيـة حـادة بين الشـرق والغـرب

في هـذه النقطـة، ليســت بســبب أن أحـدهما خطأ والآخر صح، إنما، ربما لـدينا..مـاذا يسـمى بالإنكليزيـــــة؟" يبحث في رأسه عن مفـــــردة مناســبة: "آه، نحن عمليــون أكــثر، الشــرقيون عــاطفيون في الغــالب، هــذا يشــعر الشــريك بالحرج إذا قــرر الانفصــال، أحيانا الانتقـام، هنـا يكفي أن تقــول بــاي ســأغادر حياتــك. يتفهم الجميع ذلك، لسنا سكة قطار في اتجـاه واحـد، لكل منــا التواءاته الدراميــة في الحيــاة شــاء أو أبى، اعتـدنا ذلـك، ربمـا كالـدواء، نتناوله ونحن نعلم أعراضه الجانبية".

-ـ ولكن العائلة طريق مشترك لإنضاج تجربة إنسانية، أعتقد أنها أنانية قصوى أن نترك اطفالنا في محطة ما دون تجربة فقط لأننا شعرنا بالملل من الاستمرار، أو وجدنا التواءة لتغيير المسار، لذة ما، إعجابا، حبا، أمرا طارئا ومتغيرا إذا ما قورن بغريزة الأبوة أوالأمومة".

عنـــدما أتممت عبـــارتي، رأيت الآخـــرين منصتين بتركيز إلى كلماتي، شعرت بــأهميتي. همست الصومالية بـأذني: "انتبهي، لا يحبــون أن يعلمهم أحد أو يؤلبهم، قد يغضبون. ابعــدي عن الهم وغــــنيلو". شــــزرتها بنظـــرة حــــادة فصمتت. أراد فيليبي أن يرد، لكن تحدَّث أكــثر

من صـوت، طلب الهـدوء، ضـرب برفـق على المنضـدة ليصـمتوا، طـالبن بالحـديث. بـدأت سيدة عراقية كردية بذلك، أسهبت في الجانب العاطفي للنساء الشرقيات كأمهات مكافحـات في الجبـــل وفي المدينة، أيـــدتها، فاطمـــة، أم سورية تقليدية، مازالت ترتدي الحجاب بطريقة الريف، وتفكـر بهـا كـذلك. اسـتعملت كلمـة "عيب عيب" كثـيرا، وصـفت النسـاء بشـكل ديني، قوارير، الحلال، الحرام، انتقلت بـدون أن تعي إلى موضوعة أخرى، الجيش الحـر، الثـورة السورية، النظام، النساء، قتل، أطفال.. شرَّقت وغرَّبت الأحاديث بدون وحدة موضوع، تدخلت إحدى الموظفات، كانت جادة كتمســاح، أنهت المحاضرة بحجـة أن الـوقت لا يسـمح. فهمت لوحدي أنهم لا يريدون للمواضـيع أن تتشـعب. وأنـــا خارجة، ســار في اتجــاهي عنـــد البـــاب الزجـاجي، مـد يـده مصـافحا، فعلتهـا بخجـل، وحذر.

- أنت سيدة ذكية ونحتاج لنقاشـات أكـثر تعـزز الروابـط الثقافيـة للوافـدين الجـدد، آسـف لم أســتطع الإجابــة عن ســؤالك الأخـير بسـبب الـوقت، في الأسـبوع المقبـل لـدينا محاضـرة أخـرى في كـامب هوبرنتيـا 2 قـرب المطـار،

مسافة عشر دقائق من هنا، هنـاك العديـد من العوائل في منازل الكرفانات.

بخطى مبطئة بهدف إطالة الحديث سـرت معـــه في الممـــر الفاصل بين الإدارة وغرفـــة الممرضـة في الطـابق، نكتشـف بعضـنا بعضا عن قـــرب، تكتشـــف أوروبـــا آســـيا، والعكس بـــالعكس، شـــرحت لـــه صـــعوبة العيش في الكامب، همهم موافقا، قلت له :"تصور ونحن نتمشـــى الآن علنـــا عشـــرات العيـــون تســـجل حركتي بدقة تلسكوب هابل، وسيرسلون تقريرا مسائيا لزوجي عندما يعود".

-ــــ أنـــا هنـــا منتـــدب حكـــومي ولســـت قادما للمواعدة، هههـــه، آســـف للمـــزاح في موضـــوع جاد، أنا أتفهم ذلك طبعا.

- لا أحـــد يـــرحم النســـاء بثقافتنـــا، "موظـــف أو صديق"، أنت بالنسبة لهم رجل، جاهز للفـراش حتى لو بعد دقيقة من التعارف، أنت تفهم هذا جيدا، أنا لا أعمم ولكن الأمور في الغالب هكذا.

-ـ أنت سيدة محترمة لا تهتمي لهم.

رد بثقة تسربت إلي:

-ــــ هـــل ســـمعت بالمثـــل العـــربي: التعلم في الصغر كالنقش على الحجـر، نقشـوا كثـيرا على أحجارنـــا، نصوصـــهم وأفكـــارهم وقيمهم. محـــو

ذلـك ليس سـهلا، قـد يكسـر أجـزاء منـا، أتكلم بشاعرية هذا لأنني شاعرة وقاصة مبتدئة..

- جميل، ترجمي لي بعض أعمالـك للانكليزيـة، سيساعد هـذا في دفـع قضـيتك ربمـا، عنـدها سيفهمك الآخرون بصورة أوضح من خلالها.

- ربما لاحقا، حاول لو سمحت أن تتصل بمركـز السوشيل، لينقلونا إلى سكن عائلي مخصـص, تعبت من التواجد مع المئات من الغرباء.

- أعدك سأحاول، ستكون لك حياتك الخاصـة , ستكونين حرة.

نطق آخر العبـارة بهمس، كمن يخجـل من فكرة ما مرت في رأسه عابرة وانطفأت بحزم.

- هذا مبكر جدا، أعني أن أكـون حـرة، مـا تـراكم في داخلي منذ سـنوات لا ينفض هكـذا.ونكت فستاني لأريه ما أعني.

- اذا فهل ستأتين؟قال بشبه رجاء.

- ربما، لأحصل على إجابة عن سـؤالي وطلـبي، لا أعد بذلك الآن.

- سنكون سعداء بك، اطلـبي كـارت بـاص، من الكـامب سـأخبرهم أنـك بحاجـة لـذلك، مـع السلامة.

أراقبه من الباب الزجـاجي، ركب سـيارته، وأخذه الطريق الأسفلتي بعيدا، عدت لنفســي، لتفاصيل اليوم العادية في الكامب.

عندما انتهى أكثم من جسدي ليلتها، لبس سرواله الداخلي وأدار لي ظهره، تنفست بعمق وقلت بلا تركيز "أكثم جاوبني بصـراحة"، همهم بنعاس كحصان متعب. "سولفي.. خنتـني مـع فنلنديات من يوم اللي وصلنا لهسـه؟"، سـألته بشرود. أجاب بتذمر "ليش اني مفاركج لحظـة؟ ومنو يابة تنعجب بي، دي سكتي، حسبالي فـد موضوع، تصـبحين على خـير". ودفن رأسه بين وسادتين، كـان أكثم يتحـول يوما بعـد يـوم إلى قضـيب محض في نظـري، يقـذف منيـه على جدار بطني كل مـرة، صـحت: "لسـت مقذفـة لأحد، هل تفهم؟". لكنـه كـان قـد غـط في نـوم عميق وصار يشخِّر بتصاعد.

حلمت بالمحاضر الفنلنـدي، كيـف تسـلل لحلمي، بأية لغة مشفرة اخترق حساب رأسـي، كنت نسـيت اسـمه، إلا أنـني تـذكرت ملامح وجهه المصـقول كصـابونة دوف بيضـاء. كـان يقودني من يدي ونسير حفاة على المـاء، المـاء بـــارد ومنعش، كفـــك دافئـــة ونابضـــة كقلب مستخرج من جسد للتو لكنني خائفة أن أغـرق،

نــاولني ذراعــك ذا الشــعرات الشــقر، نــاولني لثغتك، ناولني طرف قميصك لأشم رائحته. ثم دخلت غيمــة جيلاتينيــة، أعبرهــا، أعصــرها بين فخذي وانــام مبللــة الســاقين بمــاء حمولتهــا أو مائك.

أصــحو على جلبــة عالية صــباحا، تــأتي من خــارج الغرفــة، كمــا هــو الوضــع المعتــاد في الكــامب مــع مجيء البريــد من دائــرة الهجــرة، الرفض الجماعي للطلبات، الجينوسايد الورقي، شــملت الجميــع، باســتثناء الســوريين. كــانت رســـالة أولمبيـــة، أيهـــا المتســـابق الآســـيوي والأفريقي للفــوز باقامــة في أوروبا، هــارد لاك، نتمــنى لــك حظــا أوفــر في المــرات القادمــة، قالوهـــا بـــأكثر من لغـــة غـــير منطوقـــة، لكنهـــا محسوسة. تضرر الكثير من ذلك، نساء وأطفال ورجـــــال كبــــار في الســــن، عوائـــــل تفككت وأشــخاص ضــاعوا بين طيــات ســجادة القــارة الأوروبية الهائلة، تلاشوا، باعوا أنفســهم لنســاء، لرجــال، للمافيــات، للشــيطان، للاشــيء، ادعى بعضهم الإلحاد، المثلية، تغيــير الديانــة، عملــوا ســاعات طــوال تحت الثلج مقابــل عشــرة في المئــة من الأجــور الحقيقيــة، عملــوا في غســل السيارات، في المطــاعم الشــرقية، في تجميــع

العلب والقنـــاني من النفايـــات لاســـتبدالها بسنتات في ماكينة الاستبدال. كان الله يشاهد ذلك، غير مكترث، أو كان يشاهد مباراة الدوري الإسباني الممتاز، لا أحد يهتم لاحد، كل مـا في الأمـر هنـاك بشـر بلا هويـات وأوراق يتنقلـون كقمل العانة من مكان إلى الآخر بقصص أبدعوا في أن تكون مؤثرة وعاطفية من دون جدوى.

في الليلة الماضية، قطع أحـدهم شـرايينه ونجا من الموت، ، رأيت الدم على عتبة الســلم حيث مـر من هنـا مسـجى على حمّالة سـيارة الإسـعاف.قـالوا انـه بكى عنـدما أفـاق , شـعر با(الأسف) لأانه لم يمت كما أراد, او دفعه أمـر الترحيل القسـري لـذلك ,أحـدهم حـرق نفسـه، افغـــاني ارادوا ترحيلـــه على مايبـــدو، تخيلت مقدار الألم الذي مر به قبل أن يمـوت. تحـترق أيـدينا كنسـاء كثـيرا في المطبخ، نعـرف هـذا الوجع كما هـو لا كمـا تقرأ أنت الآن عنـه، إنه لا يشبه إلا نفسه ولا يوصف..

كل أسبوع زخات من الرفوضات من دائـرة الهجرة، تبلل الجميع بطريقة ممنهجة وجماعيـة كما يفعـل المجيب الآلي.. رفض رفض رفض. تشبه ذلـك معلمـة اللغـة الفنلنديـة المتطوعـة كايسـا بشـخص يختم فـوق أوراق صـفت في

أعمـدة، يختم ويلقي يختم ويلقي، هكـذا، تمثله جسديا بشكل هزلي.

كنت قـد أتممت مقابلة بعـد أكثم بيـوم، حصل هـذا منـذ سـبعة أشـهر، ننتظر حكم اللّٰه ومكتب الهجرة مثلنا مثل الآخـرين من طـالبي اللجـوء، قـال أكثم إذا رفضـونا سـنهرب إلى المانيـا أو إلى فرنسـا ربمـا، قلت لـه لا أحتمـل عناء السفر غـير المضـمون نبقى ويفرجهـا اللّٰه. قلت لنفسي لو خيَّرني بين الطلاق أو الانتقـال إلى المانيـا سـأقول له "اللّٰه ويـاك محـروس ومودع".

كوننا عائلة نحصل على عناية خاصة بعض الشيء من موظفي الكمب وممرضاته، كنا في السـابق في شـقة في بتيـانمكي، لكن جارنـا الفنلنـدي الطيب، سـامحه اللّٰه، اشـتكى لإدارة العمارة، بسبب جدالاتنا وأصواتنا المرتفعة لمـا بعد العاشرة ليلا حيث الجميـع نيـام اسـتعدادًا للنهوض مبكرا، كنا نتبادل الحديث ليلا أو نهارا بعفوية وبأصواتنا الطبيعية غير المنخفضة كمـا في بيئتنا العراقية.

حصل ذلك قبـل أربعـه شـهور نقلونـا على إثرها إلى كامب هوبرنتيا 1في فانتا، كان الأمـر كارثيا، في البـدء، أكثم الغيـور كطفـل يحب ألا

يشاركه الآخرون دميته، ، أنا طبعا، أرصد عينيـه تراقبان عشـرات عيـون الشـباب ولهرمونـاتهم وحـتى خصـيهم، عنـدما أكـون في المطعم مـع الآخرين. كان لا يسمح للهواء بأن يقـترب مـني بينمـا لا يهتم لمشـاعري بمـا يكفي، الامتلاك. مازال بنشوة وانتصار سائق التاكسـي العـراقي القليل التعليم الذي حصـل على حبيبـة وزوجـة جامعيـة تتحـدث لغـتين ، كـان عليه أن يغـادر تلك اللحظـة، أشـعر تجاهـه بالتكـافؤ، لا أمتلكه ولا يمتلكني أقصد. ولا يعني اختلافنـا الثقـافي شيئا أمام حبي له، في الأيام الأولى على الأقل، أكثم من حي شـعبي تـربى على قيم الفحولـة والعـراك اليـومي، يسـاعده جسـده القـوي ومرونته، تطـورت قدرته العراكيـة خلال خدمته في الجيش حيث القسـوة والصـرامة هي المعيار، تستمر وبحماسة. شجاراته المتواصـلة وعصـبيته مـع الشـباب اللاجـئين جعلت الأمـر معقدا، عزلونا في قسم عائلي بعد ذلك، جلبـوا عشر عوائـل عراقيـة أخـرى، صـار مركـز اللجـوء محلة وبيئـة عراقيـة إلى حـد مـا، تعـرفت على أناس جدد طيبين من الشـباب والعوائـل الـتي معنا، جميعنا في مـركب واحـد مثقـوب بقـرار

من مكتب الهجـــرة ومصـــدق من البرلمـــان الفنلندي.

حصــلت على تــذكرة بــاص للــذهاب إلى محاضرة الأسرة التي يديرها فيليبي، في كامب هوبرنتيا 2. زودني كونستا موظف الاستعلامات الذي يبدو، كطير فنسـج صـغير، بواحـدة نافـذة لمدة يوم فقط من تاريخ تفعيلها. لم يكن الأمـر يســتحق ركــوب البــاص، المســافة قريبــة، احتفظت بــه لمناســبة أخــرى، في الحقيقــة، أخــبرني مــروان الشــاب في الغرفــة 155 أن باصات مجانيــة تنقل المســافرين من الفنــادق القريبة، هولدي أن، سكاندك، وغيرهـا للمطـار، خصصـوها لزبـائنهم من المسـافرين طبعـا، إلا أننا يمكن أن نحشر أجسادنا معهم، مجانا.

عنــدما وصــلت صــباحا، كــانت قاعــة المحاضــرة مليئــة بالنســاء والأطفــال بأعــداد كبــيرة، بمعيــة طلاب كليــة علــوم سســيولوجي جاءوا بدفاترهم ليكتبوا عنا، كحــالات للدراســة. هكذا أصبحنا، مـواد مختبريـة يحللهـا الآخـرون ليخرجوا بنتيجة واحدة، الشـرق شـرق والغـرب غرب. كان عليهم أن يبحثوا عن جسر للتواصل، بين الثقافات، لكن الغرب لا يحتاجكم. من قال هــذا؟ الغــرب لا يفكــر إلا في الشــرق، انظــر

نشـرات الأخبـار، الصـحف، السوشـيل ميـديا، يتـــداولون اســـم الشـــرق، الشـــرق الأوســـط بالتحديـد، حيث أتينـا، بخـيره وشـره، بمـوارده واســتهلاكه. يحللــون ويســتثمرون كــل شــيء هنـــاك إلا الإنســـان، يطـــرد من كـــل اتجاهـــات الأرض إلى المجهول، لا جغرافيا له، لا في بلــده الأم ولا في بلـــدان المهجـــر كمنصـــات مؤقتة للعيش.

حضــرت محاضــرة ثالثـــة ورابعة، لأشـــبع فضولي، أثار استغراب أكثم هذه الحماسة التي لديَّ بأن أصحو مبكرة وأسـتعد للمحاضـرة كـل مرة: "ليلي شنو يوزعون بالمحاضرات، فلوس؟ ليش مهتمـــة؟". أطفئ جمـــرة شـــكوكه: "أي، يوزعون حلويات وألعاب أطفال زهراء تلح عليَّ، أني شكو؟".

أوصلني فيلبي في يوم شتائي إلى مــدخل الكامب، أصر على ذلـك بـرغم أنـني لم أوافـق، تحجج بـــالثلج المتســـاقط خارجـــا وأن لا أحـــد سيلاحظ ذلك: "أنت طيب النية فيليبي" أقول لـــه. موظفـــات الكمب لاحظن تطـــور علاقـــتي بفيليبي، ســندس المترجمة المغربيــة كلمتــني بشـكل ملتـو ، قـالت إن مـا يحصـل قـد يقـود لعنف من زوجك إذا شك في شيء "طبعا أنت

امـراة عاقلة وليس هنـاك شـيء ليشـك فيـه لكنك تعرفين الرجال، بيشكوا حتى في ربنا".
سـخّفت أفكارهـا، ضـحكت، قلت لهـا: "اهتمي بعملـك، أنـا امـرأة محترمـة وحـرة، إذا عدتِ لمحادثتي بهكذا مواضيع اشـتكي عليـك عنـد البـوليس وأرفع قضـية تهديـد وتشـهير بسـمعتي، سيصـدقونني، كلتانـا أجنبية، ولـو كانت لـديك الجنسـية الفنلنديـة..".هـربت من الموضوع ومن أمامي، وصارت تتجنبني.
أكتب في دفـــتر مـــذكراتي، صـــافحني بالأمس متعمدا الإطالة، عصرَ كفّي، قطّر الكثير من مشـاعره وعطـره الرومانسـي في راحـتي، ابتسـم لنفسـي: "لج..كـافي حلم، معقولـة؟ لج أنت متزوجه يولي". دخلت إلى الحمام بسرعة، أشـم راحـة يـدي لأصـدق. نظـرت إليّ زهـراء ابنتي، خجلت من تصـرفي أمامهـا، ربمـا تعي، بحدس الأنثى، رغم صـغر سـنها. غسـلت يـدي جيدا بالصابون، اسـتعذت باللـه من الشـيطان. كـــان يجب أن ألقي افكـــاري في التـــواليت لينتهي الأمـر، كـان يجب ألا أحضـر أي اجتمـاع مرة أخرى، كـان يجب ويجب، كغابـة اشـتعلت الحكايـة، بـدا الأمـر بجمـرة، وانتهى بـاحتراق نصف الكوكب,على غيمـة مـا أن تمطـر فـوقي

الآن، أو على اللّه أن يتدخل، بدون ذلك ستجنح مراكبي إلى شواطئ أجنبية لم تُهيأ لي من قبل.

في المساء عندما كـان أكثم يحضـنني من الأمــام يلتهم شــفتيَّ بفمه المســور بشــارب كثيف ولحية بينما يجـذب حوضـي العـاري إلى منتصــفه، أتحســس ببطــني شــعر عانته، لم يشــذَّب منــذ أشــهر، إبطــاه كــذلك، رائحته المتعرِّقة، تفاصيل جسـده كلهـا بـدت كمـا لـو أنني اكتشـفتها السـاعة فقـط. أقـرّب كفّي من أنفي لأشم رائحة فيليبي، لا تزال ملتصقة بعــد نهار كامل، أو هكذا أتخيل.

أقـــارن وجه فيليـــبي النضـــر كفتيـــات الإعلانـــات بوجـــه أكثم، المســـتلقي أمـــامي، كسـمكة مدخنــة. كم سـنة من الراحــة نحتــاج لنستعيد نضارة أنسـجتنا الحيويـة، كم عقـداكم قرنا من السنين ونحن نستنشق بارود الحـروب ونأكـل الطعـام الملـوث بالمشـعات الكيماوية والنوويـة، كم حزنا تـرك أثـره كعجلات عسـكرية سارت فوق خدودنا، كم خسارة فـوق خسـاراتنا وتهورنا. كم قاتلنا أشباحا بينما الآخرون ما زالـوا يبحثون عن أقصـى سـقف للرفاهيـة والمتعـة، يعيشـون في الجنــة أو قريبـا منهـا، يُصــنَّفون الأســعد في العــالم بينمــا نُصــنَّف الأتُعس

وتُصنَّف مـدننا الأسـواُ للعيش. إلى أين تقودنـا مشـاعرنا الطائفيـة والقوميـة المتـوترة الـتي لا تسـمح لبعوضـة بـأن تحـط على أنـف كبريـاء أحدنا، بينما تنـازل الفنلنـديون عن ثلث الأرض بمرونة مقابل المستقبل والأجيال القادمة؟

حـــدثتني الموظفة صـــوفي الشـــقراء الناعمة، قالت أن جـدتها أصـبحت روسـية في ليلة وضحاها في الاحتلال السـوفيتي لكاريليـا، مـاذا فعلت فنلنـدا لاسـتعادة الأرض والعـرض والكرامة...

"هل ذهبتم للموت فـداء لـتراب ومنـازل كاريليا؟ هل حرضـكم الشـعراء المرتزقـون على هذا بفذلكتهم اللغوية أم ماذا؟" أسألها فتجيب: "في الحقيقة وقعَّنا اتفاقية سلام ودفعنا أمـوالا وخيـــولا كتعويضـــات حـــرب لم نكن نحن من بدأها". "لماذا لم تقاتلوا حتى آخر نفس؟ لمـــاذا لم تكونوا مندفعين؟". "ليسمن الحكمة أضـاعة الـوطن بسـبب الشـعارات، فكرنـا هكـذا، لـو اسـتمرت الحـــرب سـيدخل الجيش الأحمـــر هلسـنكي خلال أسـابيع، ليس من الحكمـة أن نضـــع بيضـــنا كله في ســـلة متأرجحة واحدة". تجيب:

ـــأووف، لكننا وضعنا أرواحنا كـل مـرة في نصف سلة وندفعها للهاوية من منحدر شاهق، نخسر ونخسـر لـنربح شـعاراتنا ونعيـد تـدويرها لخسارات أخرى، ولذلك بشـرة فيلـبي أنعم من زجاجات عطور باريس، بينما بشرة أكثم أخشـن من حذاء عسكري قديم.

تلقيت بفرحـــة خـــبر فـــوز أقصوصـــتي، بالجائزة الثانية، سـتترجم حسـبما قـالوا لتنشـر في صحيفة تخص أدب المهـاجرين في لنـدن. طلبوا إرسال رقم هـاتفي للصـحفية مي خـوري للتواصل ولكتابة ريبورتاج بسيط عني، ارسـلته: "أكثم، أقصوصتي فازت ببرنـامج بي بي سـي، "نصوص"، إني فرحانه لازم نحتفل بفـد شـي.. طلعــه للمطعم الشـرقي، ب ايتـا كيسـكوس، شـــنو رأيــك؟". كـــان مســـتيقظا للتـــو بلباسه الداخلي فقط، حك مؤخرته، سخّن شايا، شرب وعاد للنـوم. سـحبت اللحـاف: "يعـني شـنو، لا مبروك لا نطلع؟". صحت فيه بعصبية.

- ليلى ماكو فلوس، تعرفين التسـعين يـورو مـا تكفي ل..."...

أقاطعه: "أي دا يروحن للبيرة، وبعدين؟"

أهز كتفه وأصيح: "لا تغلِّس، جاوب. إذا ما تأخذني إني اطلـع بوحـدي.. فهمت؟ قـول" لا "حتى أحركها لروحي"..

ذهب معي مكرها، بسبب الغـيرة عليَّ، لا يرضى أن أذهب بمفـردي، سـألني في المطعم بينما النـادل يضـع أطبـاق الكبـاب: "عن شـنو كانت القصة ليلي؟". "سؤالك جدا متأخرًا، بس ميخالف أجاوبك، عن صرصـر".. . تـف مـا في فمـــــه من ســــلطة مقهقهـــــا بضــــحكة مســتفزة"خخخخ". انتبـه الموجـودون، خجلت جـدا، قمت للتــواليت بكيت هنــاك، وعنــدما عدت لم أشعر بطعم للأكل، نهرت زهراء بشــدة لأنها أسقطت الخبز على الأرض ثم أكلت منــه، أفــرغت عصــبيتي فيهــا.. بينمــا أكثم يعلــف كحمــار. جــال برأســي أن أطلب الطلاق حــالا، تخيلت الآخــرين، أمي أخــتي نجــاة صــديقتي بــالعراق، سـرمد ومـروان وأم نـرجس وغــيرهم بالكــامب يســألونني: "داده شــنو الســبب؟" فأجيب: "الصرصر، أكثم، استهزأ بي وبالصرصر بطل أقصوصـتي". لن يكـون رد فعلهم مختلفا عن ضــحكة أكثم المقهقهــة، كلهم من منبــع واحــد، ثقافــة ذكوريــة فجــة، حــتى النســاء الشـرقيات كـذلك، ذكوريـات أكـثر من الـذكور.

قررت أن أرد على استهزائه: "بالكتابة كـل شـي ممكن يكــون بطلًا، من الصرصـــر إلى ســايق التاكسي".

توقـــــف عن الأكــــــل: "ليش ليلى هيج؟ تعيريني لأني كنت سايق تاكسـي؟". رد بزعـل. أفقدتُه نشوة السخرية والكباب، شعرت بالرضا قليلا لأنـني خدشـته فقـط ولم أجرحـه، عنـدما تتـف على أحـد عليـك أن تهيّئ وجهـك ليتـف الآخر عليه. عدنا للكامب بلا رغبة بالحديث، زاد ضيقنا من بعضـنا، فُرضـت غرامـة في المـترو لأننـا بلا تـذاكر. أراد أكثم أن يضـرب الموظف، تراجـع عنـدما بكت زهـراء من الخـوف، اكتفى بالشـتائم وتمزيـق ورقـة الغرامـة وإلقائها أمـام الجميع في النفايـات: "من تنطونـا إقامـة ذاك الــوقت حاســبونا كبشــر، مــو على مــزاجكم بالغرامات نتسـاوى ويـه مواطـنيكم وبـالحقوق تعاملونا أقـل من كلابكم، طـرد بالشـارع، قطـع معونة طعام وعلاج، ترحيل".. صار يصيح بينمـا يتجنبــه الآخــرون وهم يخرجــون من أبــواب المحطة مسـرعين. شـعرت بـأنني السـبب، ما كان يجب أن أجبره على الخروج.

في اليوم التالي اتصلت بي امـرأة، لهجـة لبنانيــة عذبة تنم عن تـدريب عـالٍ في اللباقـة

والعمــل، قــالت إنهــا شخصــيا من تــرجم أقصوصتي وإنها معجبة بطريقـتي في الكتابـة. شكرتها، قـالت: "حـدثيني عنـك من هي، ليلى هـاني، نحتــاج إلى بيوغرافيــا، أو ســيرة ذاتيــة مختصرة عنك".

– ليلى هاني، طالبة لجوء في فنلندا، أسكن في مركز إيواء اللاجئين مع عائلتي إبنتي زهـراء و... (لم أذكــر أكثم) خريجــة ترجمــة قســم اللغــة الإنكليزية بجامعة بغداد. - أها، جميل أنتم عائلة هناك؟

- نعم.. عائلة إلى حد ما.

خــرجت مــع فيلــبي، لأول مــرة نلتقي و نتحــدث خــارج الــورش والمحاضــرات، كنت وزهــراء في زيــارة لطــبيب الأطفــال بعــد ان فقــدت الشــهية للطعــام. التحــق بنــا فليــبي عندالمستوصــف، كــان الصــيف على وشــك الرحيل، تلتمــع شــمس مــا متعمــدة لتضــيء رقبته، تبدو لي عبر قميصه ذي الفتحة الدائريـة كعمود رخـام في كنيسـة إيطاليـة، كـان يرتـدي قلادة فضية تنتهي بسمكة. سألته: "هـل تحب السمك؟ أقصد لماذا؟" وأشرت لرقبته.

- إنه رمز مسيحي قديم، أقدم من الصليب، يعود للقديس بطرس، كان سماكا.. لست

مؤمنا لكنني أتفاءل به، أو هكذا اعتدنا، لا يعني مثلاشكل الصليب على العلم الفنلندي أننا دولة دينية،أنها رموزثقافية.

اكتفينا بجولة بسيارته، تحدثنا عن تفاصيل الأيـام الماضـية أحـدنا للآخـر، زهـراء منشـغلة بـدميتها، دورا، هـذا أفضـل. مـرت سـاعة من الحـــديث، أصـــر على أن يعيـــدني للكـــامب، تمنعت: "عزيزي لا أحب أن تسجل هـذا عيـون الآخــرين، يقفــون كالــذباب الآن في المــدخل للتدخين. أنزلني قبل الكامب لو سمحت". نظر بتساؤل: " أفهم". "أنا عراقية متزوجــة". أجبته: "سيتحدث الجميع عني بسوء، ستتعقد حياتي هكذا".

- من هم؟ لا أحد لـه الحـق بمحاسـبة الآخـرين، هل لديك اصدقاء مقربون هناك؟سألني.

-ـ فقط اثنان، مـروان شـاب من بغـداد، أعتقـد أنــه... لا أعلم، أكثم يقــول إنــه لا يغـار عليَّ من مـروان لأنــه "مثلي". الآخـر سـرمد، كـأخ كبـير ومحترم لي ولـزوجي، نثـق بـه دائمـا وبحكمته، كــان صــحفيا أو كاتبا قبــل أن يــترك العــراق، أتمنى لو تلتقيه. ساحاول أن أرتب موعدً.

التفت إلى الشارع، أردفت:

- أعتقد هذه المسافة كافية لأنزل وأتمشى مــع ابنتي قليلا.
- شكرا لمجيئك، أراك لاحقا.

اتصــل بي بعــد أســبوع، كــانت الــورش الاجتماعيــة قــد انتهت، ســيبحث عن ســبب ليراني: "فلنقل لأجل زهراء، هنـاك تخفيضـات في متجر United Colours لملابس الأطفال، أحب أن أشتري لها هدية مع اقـتراب أعيـاد الميلاد ، ثم أدعوك لمشروب سـاخن في كافيـه قـريب. موافقة؟". أرد بتمثيــــل رديء: " هــــا، لا أدري سأخبرك لاحقا".

انطلقت الســيارة باتجــاه معــاكس للكــامب، انطلقتُ أنا كذلك في طريـق معـاكس لحيـاتي الســـابقة. زادت الهــــوة بيني وبين أكثم سنة ضـوئية جديـدة. نكمـل جولة في الفوريـوم في وسط هلسنكي، نجلس في مقهى باطلالـة على شــارع منرهــايم، اخــترت زاويــة تحجبــني عن المــارة، زهــراء تجلس في حضــني، حقيبــتي الجلدية على مقعد المنضـدة، أتفحص هـاتفي، ربمــا يتصــل أكثم ويســألني، عليَّ أن أكــون جــاهزة، جــاء بكــوب الكابتشــينو لي، طلب الإسبريســو بينمــا موســيقى كلاســيكية هادئــة

تنبعث مـــع الأبخـــرة، طلبت زهـــراء قطعة شوكلاته فقط.

تحــدثنا عن الــورش أو المحاضــرات، عن أطـرف مـا حصـل فيهـا، بالنسـبة لي. إحـدى الفنلنديات اللواتي حضرن الاجتمـاع من قبـل، كانت مطلقة حـديثا، جـاءت لتشـارك تجربتهـا مـع الأخريـات، تبـدو أسـبابها سـخيفة للطلاق: "زوجي مهمــل، لا يحب تــوني الكلب ولا يهتم به، تصوروا لم ينزهه إلا مرتين منذ تزوجنا منــذ أكثر من سنة، هذا لايطاق، لذا اخـترت الطريـق الصـحيح". صـفق الجميـع لهـا وذرفت دمـوع التــأثر..أضـحك كلمــا تــذكرت حـديثها. يقــول فيليبي هي حرة. يستدرك بجدية:

- هـل تعتقـدين أن الـزواج مبـنى كونكريـتي لا يجب هدمه أو الخروج منه على الأقل؟

باغتني سؤاله المبطن..

-ـ تقريبا، أتفق أنه مبنى، لكن لا أتفـق أنـه على وصف سجن، أنت لم تقلها، إلا أنك استعملت تأثيرها بقولك لا يمكن الخروج منه، كونكريـتي، أعي ماتقصـد، ربمـا يكـون الـزواج عقـد عمـل بشروط، اتفاق أخلاقي، أو حتى سـجن ربمــا إلا أنــه اختيــاري، لم يرســلنا أحــد إليــه، نحن من

صنعناه، فلنقل هكـذا ليلـبي حاجاتنـا ويشـعرنا بأننا نسيج عضوي.

-ـــ لكن ليلى، عليـــك أن تضـــيفي أيضـــا، أن مفاتيح هذا المبنى، السجن بين أصابعنا.

أتملص من الحــوار بارتشــاف الكابتشــينو ومداعبـة شـعر زهـراء، أحضـنها بقـوة، فهم مـا أقصـــد، لســـنا أحـــرارا بســـببهم، منتجاتنـــا البيولوجيـــة، والتزامنـــا الإنســـاني الغريـــزي بحمايتها، من الآخرين ومنا أحيانا، عندما نجن.

كـــانت نظراتـــه مســـلطة على وجهي، كشـافات ملعب دولي تضـيء نقطـة واحـدة، شعرت بالحرج، شـعور لم أجربه منـذ تـزوجت، أحـدهم يهتم بي كـأنثى، حصـل هـذا سـابقا، عندما تعرفت على أكثم، سـائق تاكسـي ينقـل طالبـات، حب من المـرآة الأماميـة للتكسـي ، تزوجتـه لأحبـه لاحقـا.. "ليلى ليلى هـل أنت بخير؟" ينبهني فيليبي. كنت سارحة "ها عفوا" أجيبـه باسـتفاقة. نكمـل حـديثنا عن الطقس والجبنة الزرقاء وشركة ملابس ميرومكي، مازال يراوغ، لن يعترف سريعا أنه معجب، هذا مؤكد، الرجـال الفنلنـديون خجولـون كأطفـال في أول يوم دوام مدرسي، لكنه معجب، لاتخطئ الأنثى ذلك وإلا لا تسمى أنثى. تحدثنا عني، دراسـتي،

هواياتي، حيـاتي السـابقة في العـراق. سـألني هـل كـان زواجي ثمـرة علاقـة حب؟ فاجـأني بالسؤال...

-ـ طبعا. أنا أحب زوجي أكثم.

أرد بشـكل إلي، لكنـه كـان أعمـق، فكـك العبارة، قال:

-ـ هنالـك فـرق بين أن تحـبي زوجـك أو تحـبي أكثم...

-ـ عفوا، ما تقصد، أنهما واحد.

-ـ من أنت؟ ليلى، البغدادية، المثقفة، الكاتبـة، الأم، طالبـة اللجـوء؟ لسـت واحـدة، أنت كلهم، نحن ما وضعنا الواقع فيه، لا ما نريد بداخلنا.

-ـ الحياة الزوجية، العائلـة، دواليب بـزخم عـالٍ، تدفع بنا للاسـتمرار، الحب حلـوى تُقـدم لاحقـا بعد الطعام...

-ـ علينا أن نحب لنكون جاهزين للحيـاة، الحب مناعة مكتسبة، نمـوت من الـداخل سـريعا لـو أضعناها، بالمناسـبة الطعـام بلا رغبـة تعـذيب صغير.

أرد عليه: "لا أوافقك، أنتم الغربيون لـديكم "قيم" مختلفة.

تضايق: "الحب خـارج الأعـراق، ليلى، بـل هو العرق الأول، الجينوم، كل ما يوحدنا كبشـر،

بينما الكـره هـو كـل مـا يفرقنـا كبشر. عنـدما تحبين، اصعدي إلى قمة جبل حافية واصـرخي من هناك سيسمعك كل الوجود..

- أنت شاعر فيليبي. أقول له.

أم هكـذا تحـاول تـوريطي معك، أحـدِّث نفسي بهمهمة. يستوضح مـا أقـول، أرد عليـه: "لا شـيء، علينـا أن نرجـع الآن، بالنسـبة للتخفيضات، ربما في وقت لاحق".

-ـ إذا اتفقنـا, "الويكنـد "القـادم سـأنتظرك في مقهى ما، تعالي أرجوك.

-ـ نعم ربما، لكن علينا أن نسـتعجل، قـد يكـون أكثم عاد إلى الكامب.

أخـبره بقلـق، يـرد مبتسـما: "أوكي، فقـط استرخي".

في السيارة، دار حديث سـحابي، مضـبب بطريقـة الفلاش بـاك، تخيلت كـل شـيء بالأبيض والأسود. حدثني عن حياتـه، عشـيقته الأمريكية السـمراء السـابقة وابنتيـه معهـا في بوسـطن الآن. قـال بمسـحة اشـتياق وحـزن. أخبرتـه بلباقة إن زهـراء بـدأت تشـعر بتململ. استمر يحدثني عن حريتي كامرأة، عن الاختيـار والقرار، بلا تسليم لأحد أو التأثر به، هكـذا يفكـر فيليبي. يتصل أكثم:

-ـ يمعوده وينك؟
أرد: "بالمول".
-ـ أي مول؟ أنا هنا.
أجيب بتملص: "يامبو...
باستغراب يسأل: " ايش عندك هناك؟".
- اكو تخفيضات ,طلعت ويا البنات, هسه راجعين بالطريق .
- بسـرعه عيـني، عنـدي موضـوع مهم، تعـالي ونتفاهم.
قال بصوت متوتر، أحسست بأنه مشوش التفكير.
- خيرا، صاير شي؟
لا يـرد، يغلـق الخـط. أنـزعج جـدا، ليس لموضوعه المهم، أو توتره، بل لأنه أغلـق الخـط وأنا مـا زلت أتحـدث، شـعرت كمن يغـني في مسرح وتلقى رمية حذاء على أذنه.
عنـدما وصـلت كنت مشـحونة بمـا يكفي للشجار مع ألف أكثم. من باب الغرفة، صحت، أنت ليش تقفل الخط بـوجهي؟ كـان منكمشـا على نفسه، يبحث في حقيبة جلدية ضمت كل وثائقنا العراقية، أرشيفنا الذي عبر البحر كبــذرة لينمو على الجانب الآخر، أطرق قليلا "مو وقت الزعل ليلي، اجتنا مقابلة، ما أدري أفـرح مـدري

أقلق؟". كان علينا الاستعداد لدائرة الهجرة، كما يســتعدون لنــا بمهــارة، كتب كــل مــا يخص ســـيناريو طلب اللجـــوء على عشر أوراق A4، معـــزز بالوثـــائق "ليلى، بكائــك دققي كلامي المكتوب، حـاولي تعـدلين الثغـرات، تضـيفين شـــي إذا آني ناســي، فهّمي زهــراء، يســألون الأطفـــال على انفـــراد، أنت همين حضّـــري نفســك، إذا مــا أخــذنا إقامــة من الجولــة، أو المقابلة الأولى فمعناها بهذله، انتظار ســنوات، نتعفن بالكــامب، ونشـوف الله بعينــا، وممكن جدا يرّحلونا، هذا صار مـع هـواي عوائـل قبلنـا، زين حبيبـــتي.. اعتمـــد؟". لم أجبـــه، جلســـت صـــامتة، لم يشـــعر بأنـــه أخطـــأ، وألغى فكـــرة مناقشة ذلك..

- طـــز بـــالهجرة وبالمقابلـــة، آني تعبانة من تصرفاتك، أنت تستهلكني كل يوم مثل باكيت جكــاير"..حــاول بعـدها الاعتــذار "بعـديش؟". طلب جنس مرتين.. "هذا بشرفك اعتـذارك؟". ههه، يضحك "حتى تشبع عينج.. أنت محتاجـة لهذه الشي، ارتاحي".

أصمت في المضاجعة الاولى ، ثم أصمت في الثانية. امتلأت بماء الغضب كبحيرة ملحقة

بسد، حينذاك عاهدت نفسي أن أفيض وأغرقه وأغرق كل شيء، حتى نفسي..

جاءت مقابلة الهجـرة في الـوقت الـذي لم أكن أنا مستعدة أو حاضرة، لا نفسيا ولا فكريـا، وتركيزي خارج رأسي، يحوم هناك مع تفاصيله، حديثه، وعيه وحاجتي التي بدأت تنمـو، كزهـرة الخشخشاخ، إليه.

- شلونه شكله الخارجي بالله؟ لج أوصـفي إليَّ، أو أرسلي صـورته عيـني ليلى". تتحايـل نجـاة، صديقة الطفولة من بغداد وصـندوقي الأسـود، أرد باقتضاب: "حلو، سوبر حلو ههههه".

لم أركـز في ردودي للمحققة، حصـل عـدم تطـابق بين إجابـاتي وأجابـات أكثم، لا أعلم بخصـوص زهـراء، سـألوها منفـردة، بحضـور المحـامي: "مامـا شـنو السـؤالات مـال عمـو المحقق؟" ترد: " ماما نسيت".

أكثم مشـغول بـالبحث عن عمل، مـرت ستة أشـهر، قانونـا لـه الحـق بالعمـل عـدا أنـه طالب لجوء، انكليزيته ضـعيفة جـدا، لا تتعـدى جملتين، أمـا الفنلنديـة فبالكـاد تحيـة الصـباح والمسـاء، و"كيـف الحـال". دخلت كـورس الفنلندية مبكـرا، مسـاء ألتقي بمتطوعـات من المعلَّمـات المتقاعـدات يـأتين متطوعـات

لنتحـادث معهن اللغـة، نلعب، يجلبن حلـوى" الممي" التقليديـة أو "اليونيبـيرغ، " أو شـراب الكلوكي الحلو، أشـعر بـدفء أنسـاني لعشـرين دقيقة معهن، ثم يعـود الجليـد القطـبي ليحيط بمشـاعرنا وعلاقاتنـا مـع بقيـة الفنلنـديين. سمعت أنهم طيبون وودودون في حالتين، في السكر الشديد، أو عندما يثقون بأحـد، مـازالت تـأثيرات الغابة تنسـحب على أجيـال وأجيـال عاشوا بالمدن، العادات الريفية الموروثـة تنمـو حـتى فـوق الكـونكريت. مـازالوا حـذرين ومتباعـدين عن بعض وعن القـادمين إليهم، يسكن أحدهم كوخه أو شـقته بـالمفهوم نفسه، على سـفح جبـل، أو في هلسـنكي داون تـاون. كـان علينـا أن نتفهم عـزلتهم، ويتفهمـوا مشـاعيتنا، للمشـاعر والأفكـار وحـتى الطعـام. الكثير من موظفي الكمب الفنلنديين تحسنت حالتهم النفسية عنـدما اقـتربوا منـا. في البـدء كـانوا يسـيرون كروبوتـات، وجـوه بلا تعـابير، أجسـاد جميلـة بـاردة كزجـاج المتـاحف، لكن تدريجياً بدأوا يتغيرون. في فـترة الشـاي تغص القاعـة بالمئـات، من اللاجـئين يضـحكون ويلعبـون الشـطرنج والـدومينو والطـاولي ويتناقشون، حياة نابضة كغصـن أخضـر يقـاوم

التغيير معتقـدا أن الفصـل مازال صـيفا تحت أكوام ثلوج الشتاء الطويل. يتساءل الموظفـون: كم أنتم سعداء بهذا، علينا أن نجـرب طـريقتكم بـالعيش. سـمعت عن قصـص حب، مخالفـة لتعليمات شركة الكامب.

التقيت فيليـــبي في مكتبـــة المدرســـة الثانوية، قرب الكامب، انشغلت زهراء بألعـاب الأطفال في المكتبة بينما انشغلت أنا بفيليبي وانشغل فيليبي بي.

-ـ أشعر أنك متوترة، هـل ضـايقك زوجـك؟ إذاً فكيف مر أسبوعك الماضي؟

قال شابكا أصابع كفيه ببعض أمـام وجهـه بينما أسند حنكه عليهما.

- أنا بخير، أكثم يعلم بلقائنـا، أنـا أخبرته، بحجـة تـدقيق أوراق قضـيتنا واستشـارتك كصـديق اسـتعدادا لمقابلـة دائـرة الهجـرة بعـد أيـام. متوترون أنا وأكثم وحـتى زهـراء، هـذا مصـيرنا، و..

- ومصير قصتي معك.

قال، باغتني أمسك يدي. جفلت كطير.

- أوكي، أنـا أحـاول تهـدئتك، آسـف لا أقصـد سوءا..

أوضحت له أن المكتبة يرتادها لاجئون من الكامب: "سأكون في نظر الجميع ساقطة".

- لكن زوجك يعلم، ما المشكلة إذا؟

ـ نعم، يعلم نصف الحقيقية.

أرد بحدة.

في 2016 شهر حزيران، ألغى البرلمـان حـق اللجوء الإنساني على إثـر إفـادات من عراقـيين سابقين مقيمين في فنلندا رفعوا تقاريرهم بأن العراق آمن، كـانوا في الغـالب من مسـتفيدي النظام الجديد مـا بعـد 2003، حلبـوا الميزانيـات الأوروبية بمبالغ المسـاعدات السوشـيل بينمـا يستلمون رواتب خيالية من الحكومة الصـديقة لهم بالعراق. كانت صدمة ورسالة قويـة، تلتهـا صـفعات بـدأت بـالرفض وانتهت بـالطرد في الشـارع شـتاء أو صـيفا. لا فـرق، فبلا وثـائق ستكون عاريا ولو ارتديت كل معاطف الدنيا.

يتحول الكمب إلى بيت كبير في المســاء، يتنقل الشباب من غرفـة إلى أخـرى للمسـامرة وشرب الشاي، يغنون، يتشاجرون، يتصـالحون يدخنون يقرض أحدهم الآخـر بضعة يـوروات أو سـيكارة. "طققـق" صـوت البـاب، أم زهـراء عندك رأس بصل، عندك ليمـون، ملح. يحتـاج الجميـع إلى الجميـع، في رمضـان حيث اليـوم

اثنان وعشرون ساعة، يفطر الجميـع معـا حـتى غـير الصـائمين، يـدخنون بعـدها أو يصـلون ثم يتسحرون بعد ساعتين ويمسكون عن الطعـام. روح العائلة تقوى بين الرجـال في الغربـة، كأنما هم في بيوتهم مع أهلهم في البصرة أو بغداد أو الموصل. "ماما زهراء تعـالي نـروح لخالة هالـة بالطابق الثاني". آخذ ابنتي لمجلس من النساء يتـــداولن الضـــحكات والقصـــص العراقيـــة والنميمة المحببة، بينما سـخان الشـاي يصـفِّر كقطـار فحم قـديم. أكثم مع أصـدقائه يلعبـون الدومينو والطاولي، يمر الوقت نسـائيا خالصـا، نتناسى قليلا هموم الانتظار والقرارات المخيفة وغـــير المنصـــفة عـــادة، في رمضـــان، الشـــهر الهجري من العام نفسه، جاءنا الرفض الأول.

جاء سرمد ليتسامر ليلتها معنا، مصـطحبا سعدا، سألونا عن سبب الـرفض، أخبرنـاهم أن القـرار غـير مفهـوم بالنسـبة لنـا، في الغـالب يزعمون أن العراق آمن. أثار سعد انتباهي، كان بـروح مرحـة عاليـة وصـحة جيـدة جـدا، كـأن الكامب لم يفرض عليه كآبة مستمرة منـذ أكـثر من عام. انسحب معتذرا بموعد، عـرفت لاحقـا من سرمد أنه يعاشر فنلنديـة. "لكـني سـمعت انه متزوج في العراق وعنده طفلة"."مـو مهم".

تنحنح سـرمد "الرجـال بلبـل.." وغـرّد محاكيـا صوت بلبل "يقفز من غصـن لغصـن". "عيـني عيني" أرد باسـتهزاء "والمـره؟ مطيـة للركـوب فقـط؟". انـزعج أكثم لجرأتي.. ولأنـني تحـدثت بتلميح جنسـي، خفّـف سـرمد ذلـك "يمعـود أكثم.. ليلى أختنا الصغيرة". مرت الليلة بسلام، مــع بعض التعــنيف من أكثم عنــدما غادرنــا الجميع.

جــاء الــرفض الأول، صُــدمنا، أكثم كمن أصيب بالعمى والشلل المؤقت، أطفأت النــور لننام، يرتجف تحت البطانية، يتمتم مـع نفسه: "ليش هيج..من قــال العــراق آمن؟ إحنــا موضـوعنا شخصـي، راح نسـتأنف ولازم نغـير المحـامي". كـل هـذا وغـيره تداولتـه مـع أكثم، اكتأب، قلّل من الكلام "حبيبي قل يـا الله هـذه مـو نهايـة العـالم، تفـاءل يـا أخي". أشـجعه بكلمات أنا نفسي لست مقتنعة بها. " ليش ما نهرب لألمانيا. ها؟ مو أحسن هنـاك؟"."لا أكثم رجعوا مئات الشباب من ألمانيا لفنلندا بسبب بصمة شنغن، لا ما أقدر ولا أريد اتبهـذل أكـثر، نبقى هنا وهاي هيه.. تريد اسويلك جاي مهيـل ترتاح أعصابك؟". "عوفيني ليلي، كلش تعبان، أريــد أســكر وبس". "لا هيج تــدمرنا وتــدمر

نفسك، الصباح رباح لازم إلها حـل، احنـا عائلـة ما يرحلونـا أعتقـد ولـو سـووها من قبـل، بس، حسبي الله ونعم الوكيل".

صار يسكر كثيرا، يجمـع علبـا من القمامـة ويحولهـا إلى فلـوس للشـرب ويعيـد ذلـك كـل يوم، أهملنا أكثر، صار يشـرب ويضـاجع وينـام، صار شكله كمشردي الشوارع.

- أكثم كلت لك ما مستعدة. ايش بيك؟ دروح، اوفف. اتركني..".

ودفعته، كان سكرانًا جدا، وعيناه حمراوان مثـل حبتي عنب، عضني من زندي بقوة فصـرخت، كـــان يقصـــد المداعبة بطريقته، قلت له: "سـأطلب المـوظفين والحـراس الأمنـيين". صـفعني مـرة ومـرتين وثلاثـا، لم أعـد احتمله، يواقعني بمـا فـوق مقـدرتي أو مـزاجي، يطلب الجنس لنفسه وليس كشـريكة لـه، يغتصـبني كزوجة، يعرف جيدا أني غير مسـتمتعة، ينتظـر لحظة القـذف حـتى قبـل أن يبدأ، انتظـر ذلـك لأتخلص منه وأنام بجسد متألم وروح مجروحـة، ورغبة لا تعرف طريقـة للخـروج. أداعب نفسـي بعد أن يدير وجه للجهة الأخرى عارضا لي قفـاه كثور مشعر، أبكي بصمت ثم أنام. في الصـباح وأنا ذاهبة لتبـديل المناشـف وأغطيـة الفـراش

بأخرى نظيفة كما جرت العادة أسبوعيا، خرجت زهراء إلى الشارع قرب مدخل الكامب الرئيس، خرجت على إثرها حاملة المناشـف والشراشف "لج مامـا زهــراء تعــالي، مابيــه حيـل اركض وراج". كـانت تتبـع امـرأة، يسـير امامهـا كلب هوسـكي رمـادي صـغير، أثـار فضـول ابنـتي فتبعته. كـانت الشـابة جميلـة بشـورت قصـير وبلوز بلا أكمام، تربط شعرها إلى الوراء وترتــدي نظارات كبيرة، لم ار وجهها، فقد سحبت ابنتي، عنــدها اســتدارت وحيتــني: "moi مــا اســم الصغيرة؟" أجبتها: "زهراء". "جميل، أنا بايفي" أجبتها "اسمي ليلى". "تشرفت بلقائك وبلقــاء زهراء الصغيرة". قلت: "شكرا". ابتسـمت بـود وغادرت. عرفت لاحقا أنها صديقة سعد، كانت قد حضرت لتصـطحبه، أو تاخـذ أوراقـا بريديـة إليــه حيث يســكن معهــا، الرجــال الشــرقيون يعاشرون الفنلنـديات علنـا ويتفـاخرون بـذلك. أسمع كلمات نابية أحيانا في قاعة الطعـام على الإفطــار، يشــرح أحــدهم ممارســته الجنســية بالصوت والصورة كاملة وقد يبرز تصوير فيـديو لذلك، يحرج ذلك أكثم فيتشاجر معهم احترامــا لوجودي، لا أرى أية مشكلة، أنــا متزوجــة وهــذا

طـــبيعي، لا يفهم أكثم ذلــك، أتـــرك الأفطـــار لنصفه وأخرج.

- مامـــا زهـــراء تعـــالي نـــروح نخلي الملابس بالغسالة، يلا حبيبي".

- ماما اجه بابا.

وصل أكثم مع ثلاثة من أصدقائه إلى بـاب الكمب.

حل صمت ناعم بيننا تخلله صوت النادلة، تجمع الأطباق من مائدة قريبــة، دعوته للغـداء، يفضل الأسماك والجمبري وثمار البحر، جلســنا في مطعم يو فو، تنطلق موســيقى ال lam mor التايلاندية بين الجالســين، وهم منهمكــون في أطباق السوشي. "عجبك المطعم؟". يهز رأســه ايجابـا، يســتمر بنبش أســنانه دلالـة اللامبـالاة، هـــاتفي يضـــيء صـــامتا باشـــعارات رســـائل متلاحقــة، كــان يجب أن أطفئه كليــا، يــوتّرني بنبش اسنانه وكانما يستخرج اضلاع حــوت من داخلها.

ينظر إليَّ دون تعابير في وجهه، لا حب ولا كره، كيف لهذا الخمسيني الصاخب بالصـحافة والإعلام، أن يكون بومة مجمدة لسالب مئـــة؟!. تأففت عندما وجدته يعبث بالوقت وبأعصابي، هو يعاقبني باتقان، كنت احتاج إلى راسه ليفكر

معي أو نيابة عني بعد أن سـمحت لقلـبي بـأن يعمل ويقود مفردا.
- وشــكرا طبعــا على الغــدوة البحريــة,ذكرتــني بأجواء البصرة، والخليج "ليلى أنا شو أقدر أقــدم مساعدة؟".. نطق سرمد، الجدار أخيرا. تنهــدت مجددا.
-ـ سرمد أنت بمنزلة أخي الكبــير، أنــا من حقي أن أضـــعف كانســـانة، ولربما أخطئ. لي الحق على أكثم، وعلى الآخرين أن يتفهموا، ويغفــروا، مثلما يسـامحون مريضـا يشـتم الطـبيب بعـد المخدر، أو يسامحون طفلة مزعجة .
-ـــ "ايش وكت صــرتي طفلــة ومريضــة ليلى؟ أنت ناضجة وبكامل وعيك، أنا مو ضـــد الحب، أحبي واختاري حــتى لــو كنت متزوجــة، الطلاق مثل مهرب الطوارئ، يمكن نسـتعمله فـد يـوم إذا إحتاجيناه ويمكن ما نحتاج إليه أصلا، لكـــني اختلف ويـاك بأنانيتـك، أسـوا رائحـة وأبشـعها تصــدر من غــدة انأنيتنــا، مايشــتمها الأنــاني، الآخرين يحسون بيها".
-ـ يمكن مروان قلك إنه شافني أطلــع مواعــده ويه واحد فنلندي. مـروان كـذاب وطفـل، أصـلا أشــلون تصــدك واحــد ...؟ اســتغفر الله، أنت

تعرف، هو يبيع جسمه وهو...وأمسكت لساني عن قول مثلي.

- المفروض نحترم ميول الآخرين، أنا ضد بيع جسمه أو يؤجره مثل مايقول، هو صح سولفلي بس الكامب كله يعرف قصة ليلى والذئب، قصدي الباحث الاجتماعي فيلبي.

وإبتسم عن أسنان بصفرة النيكوتين، عاد لنبشها مجددا، ادرت وجهي بانزعاج ملحوظ، كف عن ذلك محرجا.

- أنت تشوفني بهذه الصورة؟ وحدة منحلة، سافلة أنانية باعت رجلها وأبو بنتها وبيتها لخاطر واحد غريب لا من ثوبها ولا ثقافتها وبيناتهم فروقات زمنية من آدم نزل للأرض، الشرقي والغربي؟ أنت هيك تشوفني سرمد؟ طيب، عال، أنت أحسنهم وأعقلهم وهذا منطقك. ليش هوا أنت ماتعرف أكثم، وشراستة واللا ابالي اللي عنده؟.. وعلى كلٍّ أنا أحب أكثم، وما زلت..

قلتها بنبرة صدق، لم تعبر عقل سرمد.

- زين ليلى، هذا اسمه شامبو وبلسم في علبة واحدة، العلاقة المفتوحة إلها شروطها، على الأقل أن يكون جميع الأطراف بعقلية منفتحة وأحدة، أوروبية غربية، أية تسمية مو مهم،

يمكن أنت وفيليـبي متـوافقين بس الثـور أبـو قـرون أكثم... (قالهـا مـع إشـارة بأصـبعيه على رأسه كقرنين) راح ينطح، يشق بطنـك أو بطنه، راح يدمر ويدمر.. ليش ليلى؟ شنو أقدر أسـوي؟ قولي لي وأنا حاضر للمساعدة.

عدلت جلستي، شفطت دمعـتين وأزحت الوجه الحزين عن وجهي، وضعته في حقيبتي.

-ـ عندي موضوع مهم، يعني شنو قابل جايبتك تكتب مذكراتي مثلا؟

قلت بسخرية..

- جميل، مذكرات امرأة خائنة. آسف، بس هـذا عنوان جدا مناسب.

رد مستهزئا..

- سـرمد أنت سـكران؟ مـوعيب اتحـاكيني بهالطريقـة؟. لخـاطر الـزاد والملح يـا أخي، فعلا عبارتك تجرح.

-ـ ثانيا أنا مو سكران وأولا أنت ليش زعلتي، أنا وصفت فعلاً، الوصف مناسب للي أشوف من تصرفك.

-ـــ اوكي، نعقد اتفاقًـا، وبمقتضـاه تحولـني من خائنة إلى وفيـة وتنقـذ عائلـة، أكيـد أنت رجـل شـهم، حـتى لـو كنت نصـف مجنـون ونصف عاقل، أنت ثعلب مو أرنب وتعرف شاقصد..

تفحصته بنصف عين، قرأ شيفرة أفكـاري، ابتســم، يمــرر أصــبعه على حافــة كـأس المـاء المدورة، كأنمـا يدور أفكـاره لا أصـبعه. يتوقـف فجـأة بعــد أن التقــط من عيــني كـل الإشــارة واكتمل تحميل الفكرة.

- بعــد القهــوة، والبســكويت، أحب نتمشــى، ونسولف بالتفاصيل.

عاد لنبش أسنانه، لم أتضايق هذه المرة.

تواعـدنا أنـا وفيليـبي، بعـد أسـبوع. "هـل تفضـلين مقهى مـا"؟ سـألني. "أي مقهى يفي بـــالغرض، عـــادة العراقيـــات لا يـــذهبن إلى المقاهي بمفردهن لذا فلا أعرف اسما محددا"، أوضحت له "أخـتر أحـدها وأرسـل لي العنـوان برسـالة نصـية". التقينـا عنـد ابـواب متحـف الأتنيوم Ateneum، قـادني لمكـان قـريب خلـف المتحـف، بـار Hemngway. "أنـا لا أشـرب"، قلت عنــد البــاب. "حســنا توجـد قهـوة أيضا، اتس اوكي". طلب نبيــذا أبيض، "هـــل تجـــربين"؟ عرض عليَّ رشفة. "لســت مســتعدة لهـذا، ولا متحمســة بالأســاس، عليــك أن تتقبــل هــذا مقدما". أجبت بنبرة جادة.

تحدثنا عن الطقس للأيام المقبلة، اقـتراب الشــتاء أكــثر من أجســادنا، علينــا الاســتعداد

بملابس ثقيلة للمرة الثانية في فنلنـدا. تحـدث عن الموسـيقى الفنلنديـة، تويفـو كـاركي كـان المفضل لديه، تـابع: "التـانغو الفنلنـدي، حيث الرجـل والمـرأة ينصـهران بوجـود إيـروس إلـه الحب، تصل ضربات القلب إلى 140 ضـربة في الدقيقة، بما يعـادل الوصـول لنشـوة الجمـاع". أراد من ذلك أن يرى مدى خجلي.. كـأنثى. "أنـا لا أثـار بهـذه العبـارات، لأكن واضـحة، التلميح بـــالجنس لا يـــؤدي إلى جنس في الغـــالب، تعلمت منـــذ ســنتين أن أكـون مثلكم عمليــة وأعيش بعقـــل وربـــع قلب فقـــط". قلت مـــع ابتسامة ثقة.

اقــترح علي أن نــرقص على أنغــام أغنيــة لسارة التو وتيمو رويفـاينن، كـانت تنطلـق في المكان. اعتذرت.

- أنت نمرة هندية ليلي، عليك أن تكوني هكــذا دائما، تعجبني الشطة التي تضعين في كلامك وحركاتك وانفعالاتك، كيف لي أن أقولها؟ عادة نحن هنـــا خجولـــون وبطـــيئون بـــالتعبير عن الإعجاب.

- هل تقصد أنك تحبني الآن؟

قلت وأنا أرفع حاجبي الأيمن، وأركز عيــني على شفتيه.

أحرجته، حمحم كمن غصَّ بملعقــة شــاي، ابتلــع ريقــه، فتح زرين من قميصه، وزّع نظراته بعيدا.

- هــل انحــرجت؟.. آســفة.. قلت بأنوثــة واثقــة ودلع.

- نعم. قال بفخر، مرسلا ابتسامة مشرقة انارت وجهه وياقة قميصه الأبيض. أ أردفت:

- هــا أنــا ذا اختصــرت المســافة الآن، واطلب منك أن تفعل المثل.

- أي مثل؟

- أن أقول لك أحبك مثلا..

أجبت بصوت خفيض. قلص بؤبؤي عينيه كأنما يشرب ما قلت بهما.

- يبدو أنني تسرعت، قال محرجا.

- اسمعـ أنا متزوجــة. عنــدما أكــون حــرة، ولــديَّ أوراق إقامــة، يمكن أن أفكــر جــديا في الأمــر. ساعدني الآن كصديق لأحصل على مــا ذكــرت، عندها أنا من ستأتي لتقول لك أنا معجبة. الآن أنا مشوشة وأي قرار أتخذه سيكون غير موفــق، انفعالي فقط، فهمتــني فيلــبي، حــتى لــو كنت معجبة بك، فلست حرة لأقولها.

عندما رجعت كان أكثم قد عاد، مع زهــراء، سألني: "ما الأخبار؟" أجبت: "لا جديد".

كنت ذاهبة لأطلب أكياس شاي ليبتون من فاطمة السورية، قابلت "مروان" عند المصعد. كانت بدايات المساء قد هبطت مبكرا مع كآبة أعطت للكمب رائحة مميزة، رائحة الكابة تشبه رائحة ملابس وسخة عطنة ورطبة في دولاب لم تصل إليه أشعة الشمس. كان متشاجرا مع أحدهم، سألته: "لماذا أنت غاضب وهل هو بسبب شجار أم رفض جديد من دائرة الهجرة؟". لم أنتبه لإجابته بسبب الضوضاء في مدخل الكامب. "مروان أنت أخي، أثق بك وبسرمد، لا تفضحني بالكامب، أكثم يذبحني". شددت عليه، كان رآني مرة مع فيليبي، عرفت لاحقا أنه يواعد رجالا مثليين مقابل المال، بالنسبة له وبالمفهوم الشرقي فهو رجل يواعد من يواعد من المثليين علنا، لا يتعدى الأمر تانيبا شفهيا ، أما أنا باعتباري امرأة متزوجة فالأمر كارثي، منطق شرقي قديم جديد، أحدِّث نفسي بينما أحضر الشاي.

كثعبــان حلقــة جزيئة البــانزين الــذي يأكل ذيله، تأكل السنة نفسـها، يلتهم ينـاير ديسـمبر ويلتهم ديسمبر ينـاير، دوائـر زمنيـة وهميـة، إلا أنها تدفع بقواربنا إلى مياه مجهولة، نشـيخ كـل ثانية، بـدون أن نعي، وحـتى لـو كنـا نعي، فـإن

ثعبـان الأيـام يـدور ويـدور ويأكـل ذيله مجـددا لينمو. الصيف مرة أخرى، سمعت أنهم طــردوا "مروان" من الكامب، مروان كان يثرثر في كـل مرة يجلس مع الآخـرين بأنـه رآني مـع عشـيق، هذا أفضل، ليعلم الجميع وليحكموا بما شـاءوا، مادام الله وزهـراء ابنـتي شـاهدين أنـني امـرأة حرة، بجسدي ومشاعري وأفكاري.

اتصـلت بـه: "أرغب بمقابلتـك, فيليـبي". "نعم هذا ممكن، ما رأيـك في الاسـتجمام على الساحل؟". أوافـق: "غـدا، ok". بخفـة، يهفهـف الصيف كإيشـارب شـيفون ملـون في الهـواء.

ـــ"هـل نـذهب للسـاحل؟ أتجيـدين السـباحة؟ أعتقد أن نساء بغداد يتحولن لحوريت كمــا في ألف ليلة وليلة ويعمن في دجلة بينمـا الشـموع تطفو في النهر مساء، تهتز بخفـة أو تـزاح كلهـا لجهـة للسـاحل كلمـا مـر قـارب وصـنع موجـة صغيرة". قلت له: "هذا خيال، شاعرية جميلــة، نكتفي كنساء بغداديات بـالجلوس قـرب ضـفة نهر دجلة نرقب الشـموع المتراقصـة الأضـواء، نؤججها بأدعيتنا ووشوشـتنا، بمـا نتمـنى، على النهر. خضر إلياس القـديس أو الـوليّ ذو القبـة القريبـة يشـفع لنـا عنـد الله. يهبـط الفجـر على جسـد النهـر وبغـداد خفيفـا كالنعـاس، عنـدها

تكـون النـوارس قـد حطت وطـارت والشـموع اختفت، بينمـا الـزوارق شـقت صـدر النهـر باتجاهـات متقابلـة تاركة جرحا من مـاء يـزول سريعا".

ساحل هيتـانيمي ، رمـل دافئ وشـمس معتدلة، ليست قاسية كشمس العـراق، تكفي لإضاءة مدينة هلسـنكي على الأقـل، أو تضـيء وجه فيليبي المطرز بشعر خفيف. أصـر على أن أرتـدي مايوهـا، كـان قـد جلبه معـه بالفعـل بسيارته الرانج روفر، قلت لـه: "أرجـوك لسـت مستعدة نفسيا لهذا، يمكنك أن تعوم بشـورت قصـير بينمـا أراقبـك عن كثب. تفهم ذلـك، لست مندفعة لتقليد كل مـا أرى، على دمـاغي أولا أن يفتتن بالأفكـار المغـايرة الجديـدة لأنفذها، جريئة كـانت أو عاديـة... فيليـبي أيهـا الفتى/ السمكة، النحاسي تحت عين الشـمس الثاقبـة، كلمـا تخـرج من المـاء مبللا بجسـدك الملتمـع العـري يـراودني شـعور بـأن أصـباغك الذهبية ستزال وتترك بقعة متوجة في المـاء". فكرة سخيفة ضحك منها، ضاربا المـاء بقدميه. "هل تعتقدين أنني مصبوغ بألوان علبـة بخـاخ؟ هـل تريـدين التأكـد؟ إلمسـي جسـدي". قـال مقتربا مني، لمسـت ذراعـه الرطبة متحسسـة

بشرته باصابعي، كان زلقا وزيتيا. احببت ذلك لكنه لم يثرني "اسمع أعتقد أنني تأخرت، علينا أن نعود لو سمحت". "حاضر" قال لي، وهو يغير لباسه الداخلي قرب البحر أمامي، ربما فعلها لا إراديا بحكم التعود، تجنبت النظر إليه، لاحظ خجلي، تبسم وقال: "آسف أنا لم أقصد. تربيت على هذا من دون أن أتعمد الإثارة وأخجل من عريي أمام أحد". قلت: "واضح. تقبلني بخجلي الشرقي وربما الأنثوي، نحن أصدقاء، ربما لو كنا ...". وصمت. قال "نعم. ربما لو كنا شركاء معاشرة لكان الأمر أسهل".

وجد اكثم عملا في شركة البريد، كل خمسة أيام من العمل يعقبها يومان استراحة، يبدأ عمله في الواحدة صباحا ويستمر إلى الخامسة فجرا، كان عليه أن يوصل الصحف إلى الشقق والمنازل من خلال فتحات شقية في منتصف الأبواب، يلقمها مجهدا، صاعدا نازلا عشرات السلالم في عشرات المباني خلال الليلة الواحدة، ثم يعود لينام مرهقا، أغلب اليوم، عدا عن أوقات الطعام والفودكا. يستدير الوقت عاضا ذنبه، فيصحو أكثم في منتصف الليل، ويدوّر الأمر من جديد. خفتت قبضته الغيور عليّ، صرت أتمتع بحرية أكثر في

التواصل مع الآخرين، كأصـدقاء ممكن أن نثـق بهم بعد غربلتهم بمواقف بسيطة.

تتطور مهارتي في اللغة الفنلندية بينما يرفضها أكثم والآخرون ـ ــ ايش راح نستفاد لو رحلونا، نتكلم فنلندي ببغداد مثلا لو ببابل؟

ـــ جيت فنلندا حتى ابقى ، إذن لازم أن أتعلم لغة البلد، حتى لو اعتبرت الأمر سياحة قصيرة، سمعت مرة عبارة اذا تحدث أناسا بلغة مشتركة فأنت تصل لعقولهم، وإذا تحدثهم بلغتهم فأنت تصل لقلوبهم.. إني أريد قلوبهم. ارد بثقة.

أمزح مع سرمد، الذي يشجعني بنظرات صامتة من وراء زجاج نظارته المتخفية "سرمد، لو أنت أصغر شوية كان اتزوجتك على أكثم... ههههه" امزح معه.

“ اعلن مكتب الرئيس الفنلندي "سولي نينيستو": "أن الرئيس البالغ من العمر 69 عاما وزوجته جيني هوكيو التي تبلغ ٤٠ عاما ينتظران طفلا". وقال الزوجان في بيان: "كنا نأمل منذ وقت طويل أن يكون لنا طفل وواجهنا الكثير من الصعوبات خلال تلك السنوات. لذا فقد كانت الأمور في غاية الدقة والحساسية فيما

يتعلق بالأيام الأولى من الحمل لكننا نستطيع الآن أن نعلن الخبر".وقال مكتب نينيستو: "إنه من المنتظر ولادة الطفل في فبراير/شباط 2018 وهو تقريبا التوقيت ذاته الذي سيخوض فيه الرئيس الانتخابات من أجل الفوز بولاية ثانية مدتها ست سنوات، وتشير استطلاعات الرأي إلى انه المرشح الأبرز للفوز".

- لديكم ربع سـاعة لفهم الموضـوع ثم عليكم أن تجيبوا شفهيا على الأسـئلة بخصوصـه.. قـالت معلمة اللغة الفنلندية، ريتا هاكمانيني.

- مبارك، قلت..

- ماذا؟ ردت المعلمة باستغراب.

- مبـارك ولي العهـد.. تبتسـم المعلمـة. لسـنا مملكة وليس لدينا ولي عهد، الـرئيس موظـف حكومي شرفي، لسـنا في السـويد مثلا.. شـكرا لمشاعرك ليلى.

-ـ لكنـني شـاهدت حفلـة يـوم الاسـتقلال، بـدا الـــرئيس وزوجته كعائلـــة ملكية، أو دوقـــاً على الأقـل، بـدت أجـواء الاحتفالية كـذلك، الجميـع يلبسـون ويتصـرفون كنبلاء القـرون الوسـطى، أليس كذلك؟

-ـ أوه، إنها مجرد حفلة، حفلة فخمة فقط، ليس لدينا نبلاء، عزيزتي، ولا أمراء ولا دوقات.

مر أسبوعان سريعان، لم يخلوا من مراسلة يومية، مع فيليبي، ألخص له يومي في المساء ويفعل هـو ذلـك أيضا ولـو بكلمـات مقتضـبة، دعاني إلى شـقته، تقـع قـرب جسـر مشـاة في وسط ضـاحية تـابيولا، في الطـابق الأرضـي، قرب المدخل الرئيسى للعمـارة الـذي بـدا أنيقا جدا وبرائحة مساحيق التنظيـف. وصـلت بعـد الظهر، كان يشاهد مسلسل "الحيـاة السـرية". فتح الباب، كـان مرتـديا بنطـالا قصـيرا أحمـر، وفـانيلا بيضـاء بلا أكمـام، حضـنني، تحمحمت للتنبيه، انتبه إلى أن ابنـــــتي زهـــــراء معي. تسـاءلت عينـاه عن سـبب اصـطحابها لموعـد جنسـي كمـا يظن. ادخلي مامـا، سـحبتها من يـدها وأجلسـتها في حضـني، حـاول مـداعبتها والتحدث معها بالفنلندية:

- mita kulu?

كـانت صـامتة تـؤدي دورهـا كحـارس شخصي لي من لحظة تهور أو خطأ بشري، قدم لي ولزهراء كاندي علب كولا. "فليبي مـا العمل إذا عرف أكثم أنني ألتقي بك؟ سيخطف ابنـتي ويهرب إلى ألمانيا أو فرنسا، يذبحني ويهـرب". وأكمل مع نفسي: "هل تعي حجم الكارثـة أيهـا الأوروبي الرومانسي؟".

لم أقل لـه أنـني أحبـك، لم يكن قالهـا لي، فلماذا أقولها له. "أنـا أتفهم مخاوفـك" تحـدث بجديـــة. "عليَّ أولا إخراجـــك من الكـــامب" استدرك بـذكاء، عنـدما حضـنت زهـراء بقـوة "أنت وزهـــــــــــــــراء طبعـــــــــــــا".

اقترب مـني، أمسـك يـدي وقبَّلهـا من بـاطن الكف، قال إنني أعجبه، وضـــع كفي على لحيته الشقراء الخفيفة، أحسست بأنـه محتسي، بـدا ذلـــك واضـــحا في أنفاسه العبقـــة برائحـــة الكونياك، تجاهـل وجـود زهـراء، حـاول تقبيـل رقبتي بفمه الكرزي الصغير الجميل، كان مثـيرا جـدا غـير أنـني لم أتجـاوب وتماسـكت. "انتبه إبنتي معي". قلت بحزم.

طرقات على الباب، طرقات قوية وصـراخ: "ليلى، ليلى، افتحي البـاب، أعـرف أنت هنـا". أكثم كطفل محترق يتقافز عند البـاب، يضـربه، يحاول كسره.

تصـــعقنا الدهشـــة، كـــان يراقبـــني إذن. "فسأتصل بالبوليس" قال فليبي، وهـــو يبحث عن هاتفه. "لا، لا أرجوك، ستعقد الأمور هكـذا، فقط تجاهله سيذهب".

اتصـل فيليـبي بالشـرطة، قبـل أن يصـلوا بخمس دقــــــــــائق، اختفى أكثم، كأنما علم

بوجودهم. أخـبرهم فيليـبي بمـا حصـل دون أن يشـــير إلى أن الشـــخص كـــان زوجي. تحـــدثوا طويلا، انتهى الأمـر إلى لا شـيء، رجـل سـكران مهتاج هـرب مـا أن رأى الشـرطة. بكيت طـول الطريق، خنست زهراء كأنها حجر صوان صـغير يجلس في المقعد الخلفي، بينما حـاول فيلـبي تهـدئتي، كـان قـد اقــترح عليَّ أن أبقى الليلة عنده. رفضت طبعا. "لا عزيزي، ستسوء الأمـور أكثر، عليَّ أن أواجهـه الليلـة بشـجاعة. ألم تقـل عـــني إنـــني لبـــوة بابليـــة؟ عليَّ أن أكـــون مـــا وصـفتني بـه. لا تقلـق لن نمـوت مـرتين، لكن يجب أن نعيش كما نحب مرة على الأقل".

وصـــلت إلى الكـــامب، في الغرفـــة كـــان منتظـرا وصـولي وبيـده حزامـًا جلـديًا رجاليًـا. أمســـكني، لـــوى ذراعي أمـــام الآخـــرين، كنت أصرخ، إبنتي كانت تصرخ لصراخي. "راح اكسر راسك، اقلع عينك، اكسر فكك، قحبة، سـاقطة خاينة". تدَّخل اثنان من الشـباب كانا مصـادفة قـــرب بـــاب الغرفـــة المفتـــوح، دخلا وهبـــا لتخليصي، لكمهما بعنف، طارت سن أحـدهما أمـامي وتلطخ كـف زوجي بالـدم، بينمـا اكتفى الآخر بالابتعاد والصـياح فيـه ليتركـني. تسـرب الصوت عبر الباب وبلـغ الحـراس والمـوظفين،

شـــــاهدونا في شاشة المراقبــــة المرتبطــــة بكـــاميرات في كـــل ممـــرات الكمب. دخـــل الحراس لينقذوني منه، كان مهتاجا ركل أحدهم في بطنه، لا أعلم كيف أصف الحـارس النحيـل وهـو يطـير كجـرادة على إثـر قـوة الركلـة. أظهر الحارس الآخر قطعة مستطيلة سـوداء، صـعق زوجي، ارتج وســقط أرضــا كســمكة مجففــة. اتصــلوا بالشــرطة والإســعاف في الآن نفســه، أخـذتني الموظفة المغربيـة سـلوى، حضـنتني بينمـا اهتمت لينـا بـابنتي الـتي كـانت تبكي. تــألمت لابنــتي أكــثر ممــا تــألمت لنفســي، ســامحيني زهــراء، ســتفهمين لاحقــا، عنــدما تكبرين سنة أو أكثر، عنـدما تـذهبين بمعطفـك الوردي للمدرسـة بينمـا السـناجب تتقـافز هنـا وهناك وانت مسرورة تضحكين، معافاة، آمنـة، كل شيء يدفعك للأمام، كـل شـيء مضـمون، حتى لو مت أنا وأبـوك بعـد سـاعة، لن تعـرفي الذل، اليتم، العوز، الخوف، التحرش، أو الموت العـــــراقي المجـــــاني.كتبت لفيليـــــبي على الماسنجر:

ـــ وصـلت، وكـان سـرمد أول المحرضـين علي "خاينـة، تفـو عليج، شـتمني أمـام زوجي الذي استقبلني بالركل واللكمات، كـان سـكرانًا

وأيضا قـد تعـاطى الحشيشة، أمسـكه الحـرس وصعقوه، سقط كسارية مركب شراعي هامـدا، أخــذوه إلى جهــة مــا، أخــذوني للمستشــفى، وزهــراء لــدار رعايــة أطفــال مؤقتًــا، نجــوت من المـــوت على يديـــه، تعلم كم يعـــادل ألم قلـــع الأظافر، ربما يعادل ألم مرور حصى في مثانـــة، أو قلع سن بدون مخدر، هكـذا أتخيـل ألم أكثم، لو حصل العكس وتركـني لتـألمت أيضـا ولمـا غفرت له، كثير من الابتكارات البشرية ضرورية لاســـتمرار الحيـــاة بنظـــام ذي زخم، كـــالزواج، لتتوقف هـذه المركبـة يومـا مـا، سـيكون لهـذا تأثير، مثل كوابح السيارة، اصطدام، واحتكـــاك، وارتجاج، هل أنا مستعدة لهذا، نعم، ومـــاذا عن ابنتي زهراء؟ سأهشم روحها إذا فـرملت زواجي الآن، بوحشية وعنـاد، اما هي وإمـا أنـا، لكنهـا أنثى كما أنا، ستفهمني يوما، أو تلعنــني، تغفـر لي أو تحتقــرني، كــل هـــذا في وقته مـــازالت صـغيرة بعـد لتـبرز مخالبهـا الأنثويـة، مـازالت تلبس الحفاضات وتخـاف من صـوت الغربـان في الخـارج، مـازلت رحمهـا الأول، أمـا أبوهـا، فسـيبقى قضـيبا ألقاهـا كبـذرة يومـا بشـهوة ومضى.

أتفهم ألمه أكـثر من آلامي الجسـدية، كـان اللاجئـون يرشـقونه بنكـات موجهة عن نسـاء يبـدِّلن أزواجهن بحثـا عن قضـيب أسـمك وأطول، أو بدافع التغيير فقـط، كيـف يمكن لي أن أتواجد في هكذا بيئة مجددا.

فصلوني أنا وابنتي عن أكثم، وضـعونا في شقة، صار من السهل على فيليـبي أن يـزورني وأن يسـهر معي أيضـا، صـار من الأصـعب أن أقوم بهذا، أو أتجنبه على الأقـل، حـافظت على صـداقتي معـه، بدون تمـاس جسـدي، ربمـا حضـنني مـرة أو مـرتين، فلم أضـعف لعطـر جسده الفـاتن، المغـري، الـذي يـذيب الرخـام، تمسكت بنفسي وابنتي، وفقط.

أكثم، مكث في السجن لأيـام ثم نقـل إلى ماتسلا، معتقل مصغر، يستعمل عادة لترحيـل الأجانب نتيجـة جـرائم ارتكبوهـا أو انتهـاء مـدد إقامتهم، بالنسبة للعراقيين استعمل كمنطلـق لترحيـل من لم يحصـل على إقامـة خلال ثلاث مراحـل، رفض أول اسـتئناف، رفض ثـانى اسـتئناف، ورفض الثـالث، و"الثالثـة ثابتـة" حسب المثل المصري.. أسقطت قضية ضـربه لي، أسكن الآن منزلا مؤقتا في منطقـة خاصـة بالنسـاء المعنَّفـات، لا يحـق لأكثم أن يقـترب

مــني ولا من ابنته لمئــتي مــتر على الأقــل، /*استدعتني* دائرة الهجرة، طلبوا شـهادة فيليـبي في المقابلة، قال إنه يحبـني وانـه هـو السـبب الـذي دفـع زوجي لهـذا الجنـون والعنـف، وإني حرة، ولذا فعليهم أن يحمـوني أنـا وابنــتي، من بلدي وزوجي، استغرق الأمر أسبوعا، اسـتلمت بريدا بمظروف ورقي ابيض، يبــدو غــير مهم إلا أنه احتوى أعمارنـا ومسـتقبلنا، وثلاث سـنوات انتظار، كان مغلـف بطاقـات إقامـة فنلندية لي ولابنتي.تنفســت بعمـق، تم مـا أردت. أتملص من مواعدات فيليـبي، يفقـد صـبره، واهتمامه بي أيضا، لا يتواصـل يوميـا، لا يـزورني إلا مـرة كل شهر، لدقائق، ثم ينظر لساعته، كان يقولهـا مباشرة أن لديه موعدا جنسيا مع صـديقة، يقرأ ردة فعلي، غــير مباليــة طبعــا، أخبرته أن لــديَّ عشيقا جديدا، شخصا مــا. "عــراقي؟" سـألني. "ليس مهما، أنا حرة، فيلبي، هل نسيت هذا؟" ارد بـنرفزة ظـاهرة. "أنت تسـتجوبني، لا أقبـل بهذا، باي". اغادر منصة الماسنجر.

أطلقت دائــرة الهجــرة ســراح أكثم من ماتسـيلا، محطـة الترحيـل، نقلـوه إلى مدينـة يانســوا في الشــمال الفنلنــدي، تنفســت الصعداء، انخرط في مدرسة مهنية لتعلم اللغـة

الفنلنديــة من خلال حرفــة التمــريض، أحببت ذلك كنت أطبقه كأم على ابنتي، التقي فيليـبي مصادفة في مولات التسوق أو متـاجر البقالـة، بالكاد أسـلم عليـه بالكـاد يـرد، انتهت الحكايـة معه للأبد.

رن جــرس البــاب، فتحت بينمــا زهــراء ترقص على إيقاع غجري عراقي سريع..

-ـ سرمد، أبو سـميراميس، "لـك مشـتاقيلك، خليــني أحضــنك".. وأباغتــه بحضــن أخــوي، يبتسم .

- يمعــوده.. نظــاراتي راح تطيح، يعــدل من وضــعيتها على انفــه، يــردف، لــو يشــوفنا، المجنون اكثم،يذبحنا .

نجتاز المـدخل إلى داخـل الشـقة، "هلـو عمـو" تلوح زهـراء، ارسـل لها قبلـة في الهـواء، "هلـو روح عمو".

- احضن يابه احضـن، هيـه ظلت بس عليـك، اكثم المجنـون عقـل وافتهم..يـأتي صـوت من داخــــل المطبخ ,يطــــل برأســــه أكثم مبتسما..يحضنني بود.

-ــ مشـتاقين اخويـة سـرمد، شـخبارك..تعـال للمطبخ ســاعدني.. اشــويلنا الســمك على

طريقتك البصراوية.اتبعـه , بينمـا تـراقص ليلى ابنتها.

الفصل

السادس

"صندو

ق الذاكرة الورقي".

لا أتفـق مـع النهايـات المتقنـة، لي عنـق الأحداث والأشياء لتصبح في موضـعها بشـكل مصطنع، كأنما الحياة نضـجت عن كونهـا ذلـك الطفــل العشــوائي ، التشــذيب هــو تــأديب وعقوبـة نوعـا مـا، لم يحـدث أن اتفـق السـارد الأكــبر (الله)، الطبيعــة أو الإنســان ليصــلحوا الكون كله مرة واحدة. في صفحة مسرد الحيـاة من قال توجد "صفحة أخـيرة " أصـلا،هـذا غـير منطقي، ومصطنع. مصـنع الـدراما لا يتوقـف، ولا ثانيـة واحـدة عن الانتـاج، كـل الموجـودات لديها دراماها الخاصـة، فيزيائيـا أحيـان، بـدون حاجة للغة، لا حد للنهايات كما لا حد للبدايات. كــون مفتــوح بلا اتجاهــات، بلا أطـراف، حـتى الغيمة الـتي تعـبر كمهـاجر بلا أوراق، ثم تشـق بطنها، بنتوء ما، بسارية سـفينة، صـليب فـوق كاتدرائية، ناطحة سحاب، أو أنـف جبـل، تكـون قد سردت بذلك حكاية مـا، القـارات المتحركـة الصفائح، نـيزك ينطفئ فى فم محيـط، حشـرة تعـبر سـهوبا، سـمكة، حمـار وحشـي، إنسـان، النهايات المتشظية هي الأقرب لمحاكاة الكون وأدواته .

هل ما زلت تفكـر في نهايـة؟ اسـألني، أنـا سـرمد الطـاهر وأجبـني.. لا بالحقيقـة أنـا أفكـر

بدايـة، عليَّ فقـط أن أصـنع مفصـلا، كمـا بين عربتيَّ قطار، وأشـد الأجـزاء ببعض، ثم أطلقهـا فـوق قضـبان حديديـة تنتهي في ضـباب اللا أدري، هـل عليَّ أن أقـول لكم مثلا، أن لطيـف، اللطيف، المهذب، الكذا وكذا، انتحر!.

حصل ذلك منذ سـنة، حين رفعـوا الجثـة، لاحظـوا كفيـه معقوفـتين للـداخل، كأنمـا كـان يمسـك شـيئا متخيلا، افـترض لجامـا، لأنـني سمعت عن قصة تيو وروهـا الفرسـين، صـباح ذاك اليــوم المشــؤوم. اســتجوبت الشــرطة صاحب الشقة، كيف تؤجر بالبـاطن شـقتك بلا أوراق بينما السوشيل الفنلندي " الكيلا"، تدفع عنك بدل الإيجار؟ كان الشاب كرديا ، بشــاربين غليضـين وشـعر منسـدل وعيـنين متسـعتين: "من تعرف من أصحاب المنتحر؟" رد: "أعــرف صـديقه سـرمد,سـاعده بنقـل حقائبـه للشـقة وقتها".

اتصـلوا بي الشـرطة ليخـبروني،أحسسـت بفأس سقطت فـوق لسـاني، صـمت لنصـف يوم. استدعيت لمركـز الشـرطة، انتظـرت عنـد الاستعلامات، تقابلنا انا و الشاب الكـردي.كـان مهزوزا ومرتبكا .

-ـــ بيانيــد بــاش، صــديق أنت كــاك لطيــف يموت,سوى لي مشكلة هذا.

دخلت إلى الضابط، كان التحقيق روتينيا: "ماذا تعرف عنه؟ هل كنت معه ليلتها هل انت من ..؟ أرد: "لا، لم نتقابل منذ أسبوع، لديكم عشرات الكاميرات، في الكامب، في باب المبنى". أعترض على هذه التهمة منفعلا. ـــــ "إذن فهل تعتقد أنه انتحر أم أن شخصاً " أخر "ما دفعه من النافذة، من تعتقد قتل لطيف؟". يمعن المحقق بأستفزازي فأتجاهله.

فعلا من قتـــل لطيـــف؟ الانتظـــار ثلات سـنوات بلا أوراق إقامـة؟ الـرفض ؟الطـرد من الكامب؟،إيقاف عمله؟ سؤال صعب، أم همـا.. تيو وروها، حصاناه اللذان قاداه لنافـذة الشـقة، سـبحا في الأفـق وتركـاه يسـبح في دمـه على الأسفلت؟.

مات لطيـف،ألقى بنفسـه كرجـل حـر إلى الأرض أو ألقـاه الحـظ العـاثر. انتهت القصــة، فحصــوا أغراضــه، لا شــيء يــدل على شــيء. تركوهــا، أطلقــوا ســراحي وســراح الكــوردي صاحب الشقة، أوصـلني بسـيارته إلى الشـقة، قال "انتزر هنا كاكه"، عاد بحقيبة جلدية وكيس ملابس. "شنو هذا"؟ "خذه" يـرد "هـذا غـراض

ال"مرهوم"، اني ما يتحمل بعد مسئوليته. خدا حافيز".

ألقيت كيس ملابس لطيف بأقرب برميل قمامـة، كنت سـأفعل مـع الحقيبـة الشـيء نفسـه، تـوقفت، أخـذتها للكـامب، وصـلت، حشرتها تحت سريري، تثاءبت.كان يـوم متعب في التحقيق. نمت.

حلمت، جسد حصان برأس لطيف، يرعى في حقل سنابل سودٍ، ثمة شمس خضراء تنـير المشهد، جثة لحصـان مسـلوخ، تبـدو عضـلاته وأوردته وردية مشطبة بأحمر قان، اقـترب. أراه بلا سـاقين. أفكـر. يمـوت الفـرس إذا كسـرت ساقه، يقترب لطيف مـني، يشـم أذني، لا. انـه يهمس، بلغـة المـوتى، أو لغـة الخيـل، كلهـا مجهولـة بالنسـبة لي كحيّ، فاجـأني بلعـق جبيـني، لعابـه برائحـة العشـب، حمـل بفكيـه حقيبة متخشبة وألقاهـا أمـامي.. طرقـات عنـد البـاب أصـحو، مغتسـلا بعـرقي، "من؟". "أنـا فيصـل، أبغي كهـوه وسـكر". يطلب بلهجتـه البدوية.

من فيصـل هـذا؟ تسـألني ناديـا، صـديقة تعـرفت عليهـا في بـار Ruusu. كنـا نقـراء أو نستمع للشعر هناك، ناديا في منتصف العقـد

الثالث، شعر بـني داكن كـروي كخـبز الجـاودار، عينــان تشــعان بزرقــة ناريــة، رشــيقة وناعمــة كملعقـــة شـــاي، وبيضـــاء بصـــفرة زبـــدة.
"إذن فمن فيصل هـذا؟" تعيـد وأنـا سـارح في فراغ الفراغ، تردف: "لِمَ لم تخبرني بقصته؟" أرد "فيصل هذا...اه ه ه، فيصـل".تسـخر: "شـكرا، هذا الوصف غزير وموسوعي". أحضنها مـداعبا كرة الشعر لديها: "آسف، لكنني لا أعـرف شـيئا عنـــه، يحب القهـــوة والســـكر". مبتســـما، أضـــيف .في الكـــامب ســـألته: "منـــو أنت، فيصل؟". تهرّب بعينين مترفتين، أجزم بأنهمـا الاثنتان شـهدتا أقصـى تـرف في الكـون، يبـدو ذلك من أسلوبه وصوته وترافة ملمسه: "بدوي. بــدون كويــتي" قــال، ســألته: " لكن عنــدك جوازعراقي، كيف كويتي بجواز عراقي؟". شــرح لي مرتبكــا: "حنــا البــدون مــا لنــا أرض، يــوم بالعراگ يوم كـويت ولـه سـعودية، بيتنـا شـعر، وحدودنا السما الزرگه والكلاء والماي".
جميـل، هـذا هـو الإنسـان الأصـلي، قبـل التحوير، قبل حقن راسه بـإبر المدنيـة، نحيـف، يأكــل ربــع الوجبــة، لا يرتــدي أســمال ملابس مســتعملة ولــو اضــطر لأن يبقى عامــا كــاملا

بملابسـه، لا يأكـل بقايـا طعـام، لا يتشـاجر أو يحكي لأجل الحكي، مختلف جدا جدا..

يسكن فيصـل مـع شـياو الكـردي وصـالح النجفي في الغرفة 158، تبعد عنا ثلاثة أبـواب، بالنسـق نفسـه مـع غرفتنـا 155، أنـا ولطيـف وسعد وأمـير الأفغـاني، يمـر الممشـى الضـيق بمحـاذاة غرفنـا، يمتـد ليصـل كجـدول إلى الحمامـات، والصـحيات، تنفصـل عن بعض بجـدار "سـاندويج بنـل" مضـغوط، تقـع ليس بعيـدا مسـافة سـتة أبـواب، سـتكون ماراثونـا يوميا لمن يكثر من شرب البيرة سرا، تعليمات الكـامب تحظِّر إدخـال أي مشـروبات كحوليـة وتشدد على هذا،كما تمنع التدخين في الغرف، هناك أجهـزة إنـذار، تنطلـق، متصـلة بـرقم آلي بالإطفاء. في أوقـات الشـدة والضـجر والأخبـار المحزنة، يعبث أحدهم، يضع سيجارة مشـتعلة في قرص الإنذار في السقف، يرن الجرس على طول وعرض المبـنى، يخلونـا إلى الباحـة قـرب المـدخل، في الـبرد، ثلج متسـاقط، نعـاس، الثانية صباحا، أشتم علنا: "من ابن القحبة الذي فعلهـا؟" يبتسـم أحـدهم في الظـل، بالغـالب يكون هو الفاعل، يرد بهمس: " أمك".

حدث هذا مرارا، مزاح، مما يضطر سـيارة إطفـاء أن تهـرع إلى المكـان بصـفارة إنـذارها المدوية، لكنها تعود إدراج مرآبها دون تقرير عن أي حـادث! اعتـدنا واعتـاد مسـئولو الكـامب، صـاروا لا يخلونـا حـتى لـو اشـتعلت خمسـة طوابـق. أخـبر من معي: "لـو حصـل حريـق حقيقي، دعوني أكمل نـومي، كخـروف مشـوي فوق الرز".

تتصـل بي الآن ناديـا: " هلـو، هـل أنت متاحًـا الليلـة؟" أجيب: "يعتمـد هـذا على نـوع الطلب,سهر وجن ورقص، جاهز".

في مدخل ديسـكو "سـيركس"، أنتظرهـا عنـد البـاب، الحـارس يطلب هويـة، لا أملـك، جـوازًا؟ ليس لـديَّ، أتحـدث معـه منزويـا في العتمة، نعـود، يسـمح لي بـأن أدخـل. فضـول يعض بناديـا: "كيـف سـمح لـك أن تـدخل؟". "دسسـت لـه عشـرين يـور بجيب بنطالـه" أرد مقهقهـا. "معقولـة؟" بتعجب تسـألني: "أنت تمزح، هذه رش..و ة". "اشـش" أمسـك فمهـا بقبلة. "دعينا نستمتع، بعدين بعدين".

نـرقص، سـامبا، تـانغو فنلنـدي، سالسـا، نحتك، نتحاضـن، نتشـامم، نثمـل حـد ضـباب الفجـر. أوصـلها لشـقتها، في الطـابق الثـامن،

شـقة اسـتوديو، بمسـاحة ثلاثين مـترا مربـع، يتوسطها سـرير خشـبي، تلتصـق بي كالعـادة، كعلكــة في شــعر قــط. "مابــك؟!" تســأل. "لا شيء، أخبرتـك من قبـل, علينـا أن نغـادر الآن, كافي فضائح, تتملص مني:

-"ويعني؟لن أغادر.. يا سكران، يـا باسـكا, خـرا، ما أعجبك؟" . "ناديا ناديا" أصيح "مو كـل مـرة، أرجوك" . تقهقـه منتشـية ومطفـأة، بفهـاق، اء اء.. بدأت بث سخافتها، عناق آخر، أرخيتها عن جســدي، بحــذر وتمهــل. "آســف، أنــا لســت مســتعدا لعلاقــة حب، قلت لــك من قبـــل" . ابتســمت، أضــاءت مــرة واحــدة كمدينــة، ثم انطفأت، ببطء قالت: "لكن هذه ليست علاقــة حب، هذا جنس لأجل الجنس" . تشبثت أكـثر، عضت رقبـتي، مهتاجـة جـدا، أتلعثم. "أنـا، أنـا لست هنا، أنا هناك" .. "ماذا تقصد، لا أفهم؟" .

تمرر كفيها بين قميصـي وصـدري بحـدة. "أرجـوك ليس الآن" . تهمس سـاخرة: "لمـاذا؟ عليـك الـدورة الشـهرية مثلا" . تكمـل لعبتهـا، مغمضة العينين، تذوب ككمثرى نضجت جدا، وأنا سكين لا يقطع، هل تفهمني، كيف أقولها، لنصـف واعيــة الآن.."هــل أعجبــك؟" تســأل. "أكيد، لكن.." تقاطعني: "مــا ال "لكن" إذن؟" .

تتحسس فتحة بنطالي. "أنت مهتـاج". تحـاول فتح السـحاب، انفعـل، أمنعهـا: "أرجـوك، أنـا مـتزوج، إفهمي ذلـك لسـت بخـائن". أتوسـل، أرجوك.

تنسحب كموجة عن ساحل. "هكذا إذن، أنت حر، هل تشرب؟"."نعم، كأس نبيذ، أو عشرة". ثملت، سقطت، نمت على الأرض.. صباحا، نائمة، أهمس في فمها، تفتح عينيها: "ناديا..أنت جميلة، أجمل من أجمل شيء". أغادر.

ينفث آخر أنفاسه، الخريف، يسقط صدف أشجاره، أوراق بكل مشتقات اللون الأصفر، تمتلئ الطرقات بها، تهمد وتطير، نصف طرية، برودة مفاجئة تعلن أن ثمة شتاء قادما: انتبه عليك أن تستبدل أحذيتك وملابسك الآن بأخرى ثقيلة.

كنا نحصل على 92 يورو كمساعدة في الشهر، نستعمل "ماستر كارد" لذلك، زودنا به الكامب، كانت بالكاد تكفي لأسبوعين، بالنسبة لمدخن. كان عليه شراء ورق البافرا والأعقاب وأكياس التبغ، ويبدأ لف السجائر، حين يضيق الحال، نجفف ورق الشاي وندخنه، كنا نقتصد، نلف بنصف كمية التبغ المطلوبة

لسيجارة اعتادية، ستكون هزيلة، لا تشبع رئة بالنيكوتين، أسميه التدخين الصحي. نحتاج كذلك لرصيد للانترنت، نحتاج صوابين ومساحيق غسيل، أجور نقل، تبعد هلسنكي عنا اثنين وعشرين كيلومترا، نحتاج لطعام بعد الساعة السابعة موعد أغلاق مطعم الكامب، نجوع، ليس لدينا ما ناكل، فقط الشاي، وهذا نتشارك في مبلغه جميعا.

9ـ ـ 2015 –12، Vannta ـ

أخـبرني صـديق: "تعـال لكـامب أوروما صباح الغد، سـيعطوننا أحذيـة وملابس شـتوية مسـتعملة". يُـدار أوروما من قبـل الصـليب الأحمر الفنلندي، الأفضل بين جميع الكامبات. ذهبت صـباحا، في الاسـتعلامات طلبـوا أن أنتظر، نزل صديقي من غرفتـه، أبلغـه أحـدهم. جلسـنا في الخـارج على جـذع شـجرة، قـرب المـدخل نـدخن تحيـط بنـا الأوراق الصـفر المتطايرة بمنظرأخَّاذ، كنـا ننتظـر أن يبـدأوا في

التوزيــع، لكن.. في الواحــدة بعــد الظهــر، وأنــا أمســك كيســا بلاســتيكيا متهيئــا، أزّت طــائرة هليكوبترMD500، كنا نراقبها من الباحــة أمــام المبنى. جاء مترجم، أمر الكــل بــأن يتواجــد في قاعة المطعم، حشرونا هناك، كانت تكفي لمئة شــخص، في تلــك الأثنــاء ظهــر جنــود، ربمــا عشرون، فوجئنا، كانوا بأجساد ضـخمة وأكتـاف متسعة، يشــبه واحــدهم الآخــر، بملابس ســود، ومعدات قتالية متطـورة، خـوذ وتقنيـات لم نـر مثلها من قبل. أمّنوا بـاب المـدخل ومقتربـات المبنى ذي الطبقتين بواجهة من طــوب أحمــر، انتشروا فوق الســطح وبين الممــرات الفاصــلة بين الغـــرف، القاعـــة، الســـلم والحمامـــات، اشتركت الشرطة كطوق ثان في تأمين الطــرق الفرعيــة للموقــع. هــل حــدثت حــرب مــا، في الخارج؟ أتساءل:

- وكأنني في فيلم أكشن ل JAMES CAMERON

- الأفلام هلاوس صــورية قــد تصــبح يومــا مــا واقعاً.

- شاهدنا في الواقع ما هو اسـوأ من أي خيــال، لم يعد الأمر مثيرا.

ثمـــة رجـــال اســـتخبارات، خمنـــا ذلـــك، بملابس مدنيـــة انتشــروا أيضا، كــانوا يتلقــون

أوامرهم باير فـون، كنـا مندهشـين، مـا معـنى هــذا؟ أوضــح أحــدهم بقميص أزرق وبطاقــة تعريفية تتدلى من عنقه: "هذه القوات الخاصة jaeger، هــذا طــبيعي، سيحضــر ضــيف مهم.عشرات الأعين بفضول: من، من؟

- سـكرتير الأمم المتحـدة السـيد بـان كي مـون والسيد بيتري أوربو وزير الداخلية الفنلندي.

- بان كي مون؟ هل جاء من نيويورك لهلسنكي لأجل قضايانا؟

أسأل دون إجابة. وصلوا، مـوكب سـيارات مارسيدس سوداء بزجاج معتم وبلوحـات أرقـام دبلوماسية، تحف بهـا دراجـات بخاريـة لرجـال الشرطة.

أوضح لي أحدهم، جاء السيد بان كي مـون وزوجتــه لتلبيــة دعــوة حفــل عشــاء في قاعــة فنلنــديا، لمناســبة الــذكرى الســتين لعضــوية فنلندا في الأمم المتحدة، كـان ببـاريس يحضـر مـؤتمرا دوليـا عن التغيـير المنـاخي. حقـا! أرد، بدهشة. كنت أعتقـد أنـه جـاء خصيصـا ليتـابع أوضاع اثنين وثلاثين ألف شخص طلبـوا لجـوءًا هنا، في الموجة البشـرية المليونيـة، مـازالوا بلا مستقبل.

أســـكت، همس صـــديقي. تلتفت أعين بعض الحراس الحذرة، بحركة كاميرات مراقبـة، مبتسـما، تحـدث السـيد بـان كي مـون، حث الـدول الأوروبيـة على أن تتحمـل مسـئولياتها تجاه هذه الأزمـة الإنسـانية، الموجـة المليونيـة العابرة للبحر بقـوارب نجـاة، ذكـرَ الغـرقى ومن ماتوا ومن مازالوا محشورين في اليونان، أعرب عن قلقـه، كالعـادة، تمـنى لنـا حظـا أوفـر وأن نتفاءل بالمستقبل. صفقنا له بحماسة، بإيماءة من رأس موظف مسئول. تقدم شاب ثلاثيني، عرّف نفسـه، عـراقي من نـزلاء الكـامب، شـكر السيد بان كي مون ودولة فنلندا، تمنى لنفسـه ولنـا أن نحظى بفرصـة عيش هنـا، صـفقنا لـه أيضا. غادر الوفد الكامب، سألت بهمس: لماذا لم يأت إلى كـامب هوبرنتيـا 1؟ هنـاك الوضـع المزري إذا ما قورن بكامب أوروما.

في تلـك الأصـبوحة، ألغي توزيـع الملابس والأحذيـة المسـتعملة. رجعت مسـاء، خـالي الوفاض، يكفي رؤية السيد بان كي مون بـديلا، سأضطر لأنتظـر حـتى الأسـبوع القـادم، آملا ألا يطـــــرأ شـــــيء مـــــا، مـــــزعج. تبتســم ناديــا , تعض شــفتها الســفلى وهي تطقطق باصابعها على لـوح مفـاتيح الكيبـور. “

هــل اســتمر بفتح صــندوق الــذاكرة ناديــا "؟ أســـــــــــــــــــــــــــــــــالها.
ـــــــــ مهلا, علي ان احفظ مـــا كتبت اولا , نعم , الان, اكمل .

"جاء يناير، تبدأ مساءاته منــذ الثانيــة بعــد الظهر، جو كامد كأنما تثلَّج عتمة وضبابا رماديا، بلا شمس كنا نصفر ونذوي ككل نبــات، نأكــل، نذهب للحمام نقلق وننام,هذا كل شيء. العــدم اليومي يدفعاننا للعصبية. السجن ليس جـدارا، السجن يوم منسوخ ووجــوه وحــديث منســوخ، السجن ألا تنمو الأيام بجديد، نتكــدس بأســرّتنا منذ الصــبح وحــتى الصــبح، ليس لــدينا عمــل، سألنا: "هل يمكن أن نعمل؟" ردوا: "طبعا، بعد ستة اشهر يمكنكم ذلك". أتممنا المــدة، ذهبنــا نســأل عن عمــل، اشــترطوا التحــدث باللغــة الفلندية، في ستة أشهر؟ أرد. "هل يعقل هــذا؟ كم تحتاج كفنلندي كطفل لتتحدث لغتــك الأم، ســتة أشــهر؟" أســال مســئول التوظيــف، يــرد مبتسما: "ربما أكثر، حتى القائد منرهيم احتــاج لوقت ليتعلم الفنلندية كلغة، ولم يتقنها".

تتصل زوجتي بي، تقول: "اشتقنا إليك". أريها فستانا كنت اشتريته منذ وصلنا إلى اليونان، تبتسم: "سرمد،بعد سنين في الغربة

سميرة كبرت وفستانها صار صغيرا، خليه لطفل قادم".تعمل زوجتي في "مستوصف عينكاوه" في أربيل، تتدبر أمور معيشتها وابنتها، أخجل من نفسي، أعبِّر عن شكري في كل مكالمة. تقول: "لا تقلق، بس تاخذ أوراق إقامة ونتجمع كل شيء يتعوض، التعب، السهر، الصبر، بس دير بالك عينك تروح منا منا". اضحك، أرد: "أصلا أنا ماشوف". بمزاح تهمهم: "همم، حبيبي متأكد؟ العصفورة تراقبك، وتجي تقولي سوالفك"".

عندما عدت للكامب ليلا, زرت عائلة أكثم. ليلى زوجتـــه خريجـــة آداب، مهتمـــة بالشـــعر وبالقصـــة، ابنتهمـــا زهــراء تــذكِّرني بصــغيرتي ســـميرة، اشـــتري لهـــا كانـــدي، تســـتقبلني بالأحضـــان، أُشـــيع أخـــيرا بـــأن ليلى تعاشـــر رجلا فنلنديا، باحثًا مجتمعيًا، لا أصدق ذلـك، أعـرف ليلي، قوية لا تخطئ.. تصحح لي، ناديا:

-ـ من قال أن الحب خطيئة؟

قصصتُ ما سمعته في الكامب، أعقّب:

- الحب جميل إذا لم يؤذ الآخر.

تقــترح ناديــا: "ســرمد أكتب عن هــذا".. "عن ماذا؟. استفهم منها، توضح: "اكتب عن أنـــاس

الكـامب بالإنكليزيـة، وسـأترجم لـك ذلـك إلى الفنلندية، سيكون مشروعا ممتازا، ابدأ بك".

رجعت مســـاء إلى "شـــلة" الكـــامب، يلتحفــون أغطيــة بيضــا، كأكفــان، كســالى، مســتلقين لسـاعات فـوق أسـرّتهم، التصـقوا بهواتفهم، ضاجعوا ألـف خيـال وفيـديو بورنـو، ذابـوا فيهـا، أصـيح فيهم: الـدنيا مـو فقـط نت ونقال، الدنيا أكـبر، قومـوا، احكـوا، سـولفوا.. لا أحـد يـرد. تقـول عيـونهم: ايش نسـولف؟ إحنـا بكامب كالسجن المفتوح، اليـوم يشـبه بكـرى، ويشــبه أمس.. "اتركنــا لخــاطر ربــك". أصــر، أسـحب عنهم أغطيتهم. "سـرمد، بـاردة يـول". أقول:

- عنــدي فكـرة، أكتب عنكم، أســويكم ابطــال قصص وأفلام، شنو رايكم؟ أبدي بنفسي.

- موافقــون.. ردّ الكــل، وعيــونهم لم تُرفــع من شاشات هواتفهم:

- بس، ايش اسم المشروع؟

- صندوق الذاكرة الـورقي، مسـرد هجـرة أفقي. يلا نبدأ..بحكايتي شخصيا, انا سرمد الطاهر.

"كل مساء بالعالم هو شاي عـراقي ثقيـل، أما الفجر فهو رغوة زرقاء، نقـاء مـؤقت،موجـة سماوية لا تلبث أن تتشظى إلى أشباح رماديــة

داكنــــة تثب إلى الشـــارع متثائبـــة ومســـتعدة للصراخ أو الصـراع حـد النذالـة، أعـرف نفســي لكم، أنا كائن فجري، أعشق الفجر من دون بقية أشلاء جسد اليـوم القتيـل، كـل محطـاتي تبـدأ فجـــــــــــــــــــــــــــــــــــــرا ولاتنتهي.

"يمــه؟".أباغتهــا بســؤال: "ايش وقت طلعت للــدنيا؟". كــانت أمي تقلي الباذنجــان تشــيح بوجهها جهة الحائط متجنبة فقاقيع الزيت، ترد: "نــاولني الملح". أفعــل، تتســائل "ايش ردت سرمد؟".

جلســنا على مائـدة الليـل، يـئز المصــباح الكهربائي لضعف التيار، قشرت قشــرة بصــلة، دافت قطعة خبز بالباذنجان المهروس، عصرت ليمونة، عصرت رأسها أيضا للتذكر: "همم.. ها، الفجـــر".. متصـــنعة احســـاس الفلاش بـــاك، أردفت: "زلطتك من بطـني الفجـر، كـان ابـوك على سفر دائم بالبحر، كابتن، يسـميه أصـدقاؤه السندباد البصري، أتحايـل عليـه حـتى اخلفكم، وين وين يلا..الزمـــه". غمزتهـــا: "تلزميـــه؟". اســترخت، أكملت: "من صــرت للــدنيا، كـــان مــركبهم وصــل إلى المحيــط الهنــدي، فقــدوا الاتصــال بيهم، ليومــك، ماعرفنــه عنــه شــي". عملت صـوت أمـواج بفمي كمـؤثرات صـوتية

للحكاية، تضحك "ولك خليني أكمل". تــابعت: "عصرني الطلوق الفجـر، أخـذني حـاج محمـود جارنا إلى مستشفى الولادة، انتظر خارجا، صلى الفجـر على الرصـيف، طليت أنت برأسـك من بيت الـرحم، كنت مقشـرًا مثـل مـوزة، ابيض ونظيف، ماعانيت بيك مثل اخوتك". مازحتهـا "ههه، تعودتي الشـغلة، صـرتي خـبرة بالطفـل الخامس، مو؟". ضحكت: "ولك عيب، تعلقت بيـك، آخـر العنقـود، وأغلاه، سـميتك سـرمدًا، يعني الأبد، مثلما غاب أبوك للأبد".

ثانية الفجر، مـوت ممسـرح لم ينتـه بعـد، قبّلت ابنــتي النائمــة وأنــا أغــادر، أحببت إلا أوقظهــا كي لا أجبن أو أتراجــع لحظــة، قــد تتشبث بحقائبي، بي، تبكي بمرارة وعنـاد، بابـا أروح ويـاك، انتظـرني ألبس بـدلتي وحـذائي، تغلق بسـاعديها الصـغيرين البـاب. نطّت عليَّ لأحملها بنصـف ملابسـها.. لا بابـا ابقي نايمـة، أشتري حاجة وأرجع. آخـر كذبـة لي في الـبيت، قد لا أرجع، أغرق أو أصل، الحياة لوتو، إمـا رابح وإما خاسر، زوجتي بكت لأجلي أو لأجلهـا، هـذا طبيعي، قد لا تحظى بحضـن رجـل دافئ لعـدة سنوات.

تموضع فجر ما، كفاصلة بحرية اسمها بحر إيجــه بين الشــرق وبين الغــرب، عنــد الشــط التركي مقابل جزيرة كوس اليونانية، منذ مســاء الأمس ربضــنا كفصــيل كشــافة، كنــا بشــرا وحقائب ظهر وأطـواق نجـاة ووثـائق ودولارات وهواتف، خفاف، متجهين ببوصلة نحـو شـمال الأرض المغناطيسي، تعميد بالموج، من يصـل يكون إنسانا آخر، من يهلك "اللّه وياه"..

في بــازار التهــريب العلــني في أزمــير، رصيف الحلم الأوروبي الأول، جاءت التســعيرة الدولية كالآتي، ألف ومئتا دولار ثمن عبـورك أو موتــك في البحــر، أن لم تصــل ســيعاد إليــك المبلغ. يتمنى كل مهرب لك في قلبـه أن تعـبر كي لا تزعجه بطلب نقودك، أو يتمنى لك غرقــا مـريح في كـل محاولـة تفشـل وتزعجـه بطلب نقودك. تخليت كل مهرب إلهة إغريقيـة لم تقم لها صلوات منذ قـرون، أو حفـارة بـرؤوس عـدة تثقب حائـط الفصـل القـاري، ليتصـل العـالم الثالث بالأول بقفـزة حـرة بقيمـة الـف ومئـتي دولار. تتجـه القطعـان البشـرية من الـدفء إلى الــبرد مخالفــة لبقيــة بوصــلات الحيوانــات، مفارقــة. أليس كـذلك؟ الحيوانـات لم تتلـوث بالمدنية والإنسانية ككذبة مشاعة، لهذا مازالت

تصـنع هجرتهـا وفـق الفطـرة، أمـا نحن ففي تشويش بيولوجي منذ ابتكرنا الحضارة.

نفخت الطوق، تطوقتُ به من منتصفي منذ الآن، يبدو كحلوى الجرك، بلون برتقالي فاقع. قفزت سريعا للقارب المطاطي، الجوب، لست بخائف، بفعل نصف زجاجة ويسكي. صحتُ بسخرية: تعددت الأسباب والقبر والقارب واحد. بدا الأمر كنزهة في نهر العشار. في وسط البحر، بدا فيلم الرعب، صار الموج يتلاعب بمصير القارب كيف يشاء، يعكس مسراه أو يوقفه أحيانا، صاروا يتصلون بالله لفظا وإشارة، من يقنعه أن ينقذ مخمورا الآن؟ لم أحرج نفسي واطلب ذلك كما فعلوا، رأيت الخوف، تمثل إنسانا، كرجل وامرأة وطفل، من قال أن الخوف تجريد لفظي؟ "جبناء" . صحتُ بهم "شنو هل دلع، شنو هالخوف" . تمايلتُ ثملا، أو بفعل الموج العالي. "هسه صرتو ما شايفين موت من قبل، امتى كنتو أحياء أصلا؟ انتو جثث، اكو جثة تخاف؟". صمتوا، أقهقه: "يلا.. إذا خايفين خل نرجع بالقارب لازمير، تقبلون؟". صمتوا أكثر بينما صرخ النورس بوحشية عن قرب. انشغلوا عني بنداء sos لله.. ارتفع المد وازداد التيار عنادا، شخر مرة

وصمت محرك ياماها القارب، صاروا مرعوبين، كقردة أعدت للذبح، اصطدموا ببعض، بكوا وارتجفوا، استلوا أدعية لا تعمل، استلوا صياحا، زادعبث البحر، وازددت إثارة. لاشتت قلقي، اقتربت من شابة، تبدو سورية من لهجتها "دخلك يالله، مشان هل صغار..". احتككت بها، تجنبتني، لا سنتمتر اضافي هناك لتهرب،" الحلوة من وين؟" تحرشت، ابتلعت إزعاجي وصمتت. هل كانت ستسمح لي أن أرفع ساقيها أعلى من هذا الموج، لو أني حاولت معها؟ فكرت مع نفسي. شممتُ مناطقها الحساسة ككلب سكران؟ سيتغاضى الكل على مضض، في زمن الخوف تباح الأشياء، وتقل مناعات القيم البشرية والأخلاق، ما الأسوأ؟ أن يضربني أحدهم يلقيني في البحر.. كلنا سنلقى قريبا في البحر. كنا على مقربة من سواحل جزر اليونان، امتلأ القارب لمنتصفه بالماء، بكفوف مرتجفة صرنا نغرف الماء ونرجعه للبحر، أحدهم استخدم منشفة استلها من قاع القارب وعصرها، استخدمنا حتى حقائبنا، كانت أكثر فائدة في تفريغ القارب من الماء المتسرب أكثر واكثر كل دقيقة. تشبثنا بحيواتنا بأية طريقة، ولو اضطر

أحدنا لتفريغ الماء بفمه كفيل. قررنا أن يقفز من يجيد السباحة، ندفع بالقارب من أجل النسوة والأطفال، فعل البعض وتبلد أغلبهم. كانت امتارا فقط، أوصلنا القارب، وبدأوا بالنط على الجرف الصخري بتدافع وأنانية. نزلوا، تبعهم من بقي بحوض القارب. حين بدأوا العوم، أخرج أحد الباقين سكينا صغيرا، بقرَ بطن القارب وشق جلده. فشَّ في دقائق وأصبح ككيس بلاستيكي كبير في الماء. إسرع حرس الحدود اليونانية لالتقاط المحرك الياماها كغنيمة. وصلت أخيراً، اتصلت بزوجتي، لا رد، تركت نصا: "وصلت إلى اليونان، أنا بخير بوساتي الك ولبنتنا سميرة".

في محطة قطارات فينا المركزية, مازحتني متطوعة نمساوية وهي تضمد قدمي من فقاقيع السير. قصّت الجلد الميت، تدفق ماء أصفر. خاطت المتبقي وألبستني جوربا صوفيا: "شلونك هسه؟" تحاكي لهجة عراقية، وعقّبت بالإنكليزية: أنتم مثل النيل، تصبّون شمالا، عكس السائد، ذهبت وعدت بقطعة شكولاته إليها، شكرتني بشفقة..

- مـا أسـوأ كذبـة تتفـق وتصـر عليهـا البشـرية عليها؟ سألتها , تبسمت.

- همم، الأديـــان،النقـــود، الكـــولا، الإنســـانية، هيه،أم الحدود الدولية؟

أرد: - هذه إسخفهن.

قفزنا مثل ماعز بري من فـوق حـدود أربـع عشـرة دولـة أوروبيـة، ببـاص، بقطـار، ببـاخرة، وحتى على دراجات. ألصقنا أقاليم الوقت الليل بالنهـــار والنهـــار بالليـــل، التصـــقت ملابســـنا الوسخة علينا، جعنا للنـوم، نمنـا على الأرصـفة وفي مخيمـات الصـليب الأحمـر، بكنـائس لم توطآ عتباتها منذ سنين، وبكمبات مهجورة منذ حـــروب هتلـــر، بتعب ونعـــاس وزكـــام وصـــلنا تورينيو مسـاء، في أقصـى شـمال فنلنـدا، كنـا عبرنا إليها من لابرنتا آخر مدينـة سـويدية. ثمـة ريح ترى بحواش فضفاضة تدفع غيوما تـتراكم، تنين صيني من أجساد اللاجئين يتشـــكل الآن، نساء وصغار وشباب، حقائب ظهـر ملونـة على شـكل نهـر ينسـاب نحـو دوريـة شـرطة، نقـف للتفتيش، كلاب مدربة تتشمم حقائبنا بحرفية، ما الذي يمكن للاجئ أن يحمله؟ كنا عبرنا اثنتي عشرة دولة أوروبية بلا تفتيش. بتنـا ليلتهـا في قاعـة كـرة سـلة مغطـاة، صـباحا أتمـوا تبصـيم

الكل، بصـمة شـنغن، انطلقت بعـدها باصـات تحملنا جنوبا، نحو العاصـمة هلسـنكي. وصـلنا فانتـا، نظمنـا أنفسـنا، وقفنـا في طـابور، كـان هناك مترجم من أصل صومالي وآخر مصري.

هذا هوالكامب إذن، هوبرنتيـا 1، كـان غـير مهيأ بعد، أبوابـه مغلفـة بزجـاج بـني سـميك، اتسعت بدأت تلتهم الطابور, دخلنا نتدافع.

بدا المبنى من الأعلى، بعين الطائر، شــكلاً خرســانياً مصــمتًا كحــرفH أفقيًــا، بطوابقــه الثلاث. كان مدخل الاسـتقبال مغلفـا بخشـب البلوط الأصفر، يخلو من أي أثـاث, لا اسـرة ولا دواليب في الغرف. أخذوا ورقة بصمة شــنغن، بدلا عنها أعطونا منشـفة وشراشـف واقتادونـا صعودا للطابق الثاني، إلى قاعة كبيرة. وُضعت عشـرات القطـع الإسـفنجية المسـتطيلة بحجم فــــراش لشــــخص واحــــد، كــــانت غــــير مريحة ,متجاورة كقطع الدومينو، تسـاقطنا من الإعياء واحدا تلو الآخر، رحنا في قاع النوم.

الثامنة صباحا استيقظ الكل، ما زالوا نعاسًا، النافذة الخشبية تطل على يوم غائم، سماء بصدوع رخامية. تساءلت: من يختار خلفيات الأيام كما نفعل نحن في أجهزة اللابتوب والموبايل والأجهزة اللوحية؟ في

التاسعة، اول إفطار بالكامب، نزلنا عبر السلم إلى قاعة اعدت للأكل، أكلنا وقوفا، كانت العلب الكارتونية ملقاة هنا هناك تحتوي أجزاء مناضد وكراس لم تنصب بعد، شاي بأكواب ورقية، قطعة خبز دائرية بداخلها شريحة جبن وورقة خس وشريحة طماطم لم تشبعنا. خرجنا كأسراب النمل، بحثا عن مطعم أو سوق، بدأنا بشراء شريحة الهاتف المحمول في مول" Jumpo "الأقرب الينا، انتشر مئات منا في المقاهي، المطاعم، الأسواق في" بريزما" و"كو ماركت"، في الحمامات، في شركات الاتصالات، على الجسر الواصل بين المول ومنطقة الكامب جاء الرد سريعا، طازجا.. قذفنا بعض الشبان بالبيض ,كانوا يمرون بسيارتهم.. أتفهم هذا الآن، ردة فعل عادية، خوف من الغرباء، رفض الآخر ما دام الآخر مجهولا، لا يأكل، لا يشرب مثل الفنلنديين، لا يمسح مؤخرته بمناديل ورقية، لا يعرف شيئا عن أهل القطب ولا يعرفون شيئا عنه، لا لغة ولاثقافة، لا نسقا ولا سلوكا اجتماعيا، كل الأشياء القادمة مغايرة، ستثيرالريبة، ثم اللا مبالاة ففضول المعرفة، فالإعجاب. يحتاج الأمر لوقت، ليذوب جليد الفنلنديين رويدا في

شمس صغيرة تنبثق من حديث أو فكرة مشتركة، لعبة أو مزحة. مهما حاولت، نبقى بشرا، بمشتركات أكثر مما تتخيل، عليك فقط أن تترك نفسك للوقت وسترى.

كانت القاعة التي ضمت مئة لاجئ سكني لمدة شهر. بعد شكاوى وتوسل، وضعوني في الغرفة 155 في الطابق الرابع جناح B، التحق بي بالترتيب مروان ولطيف، ثم سعد، فأمير الأفغاني. لم اخترهم، ثمة سيناريو تكتبه المصادفة، وسيكون علينا أن نختار فقط النص أو نرتجله عند الحاجة. كنا نتشاجر كلما جاءوا بأشخاص جدد وزجوا بهم معنا. ينتهي الأمر بتسوية أخرى، بتوافق، يتجمع الأكراد معا، الصوماليون، الأفغان، الإيرانيون، السوريون، العراقيون، السنة مع السنة والشيعة مع الشيعة. كان هذا مريحاً لادارة الكامب، يخفِّض من أثر صدامات محتملة بين ملل ونحل مختلفة فرَّقها الشرق وجمعها الآن الغرب. شكَّل بعض مترجمي الكامبات , اغلبهم بلغة فنلندية متوسطة ,لوبيات عرقية أو دينية، جمعت حولها أنواعاً من النزلاء، يحصلون منهم على وشايات، كاذبة في الغالب، ينقلونها إلى

جهة ما لتعزز موقفهم في العمل, لم يوفق بعضهم وطرود رغم ذلك .

فتحت موجـة الهجـرة الأبـواب لكثـيرين ليعتاشـوا منهـا كعلقـات ، وبـدأوا بعروضـهم السحرية, وعود بمساعدة الآخرين ،وعـود إيجـاد عمل، وعود بأي شيء، لم يفوا بواحدة منها.

كان أمـير الأفغـاني بعمـر التاسـعة عشـرة عنـدما انضـم إلينـا، مـا زلت أتـذكره، يصـحو صـباحا، يلمِّع حـذاءه بأكمامـه وبخـار تنفسـه "صبح بخير آغا سرمد". يحييـني بعيـني طفـل دفعته الأحداث لأن تفقد كل براءتها، نضج قبل أوانه، استُعمِل من إحـداهن، كعصـفور مخمـور دخل القفص ولم يخرج. عمل لطيـف كمتطـوع لمدة عـام كامـل، ثم بـأجر لمـدة أربـع سـاعات يوميـا، في دور رعايـة المسـنين، انتقـل على أثرهـا للسـكن في شـقة، كـان صـاحبها كرديـا، استأخرها منه بـا"الاسـود",صـار ذلـك شـائعا، ممن حصل على إقامة ودعم السوشيل.

كان سعد،الجنوبي قـوي البنيـة، كـتراكتور زراعي جديـد, يشـعرك حين تحادثـه أو تقـترب منه أنك في مَضافة في الأهوار، يقـف إذا جـاء أحـدهم، يبـدأ جلسـته ب"الله بـالخير"، دمث الخلق، شهم، يُعتمـد عليـه. صـار أبـا رغمـاً عن

أنفه من بايفي، حبيبته، حملت خطأً، ثقب في الكوندوم.. ثقب يخلـق إنسـانا، ، زاد على أثرهـا تعـداد الفنلنـديين نسـمة، صـبي، نـوردك سـومري، جنـوب شـمالي، أشـقر أسـمر، أراني صـورته بالموبايـل، انـدماج بيولـوجي لا يحتـاج لخطة توطين.

كـانت بـايفي تعشـقه، موظفـة في دائـرة الهجـرة,عرفنـا ذاك لاحقـا, كـانت أقسـى من خمسين شتاء، وأصلب من غابة شـجر صـنوبر بـري، ظلت غامضـة بالنسـبة لـه بينمـا هـو مكشوف لها كإعلان في سوق.

تشـابكت على مـرأى مـني خيـوط اللعبـة، بـدون أن أجـد خيـط بـدايتها، تـل من خيـوط ملونـة، ربمـا علينـا أن نتركهـا تتـداخل على طبيعتها ونستمتع بتنوعها البصري.

مر خريف واثنين، نفدت بطاريـات الصـبر لدى بعضـهم،" الهـوم سـك"، الحـنين للأهـل، الزوجـة، الأطفـال، الرائحـة الأولى الـتي "أن لم تتبعهـا تخنقك". طلب الآلاف من العراقـيين العودة الطوعية، لكل منهم ظرفه وحياتـه، ربمـا كـانوا في خطـر إلا أن البيئـة الفنلنديـة، غـير مناسـبة لهم. بـدأ التعميم في الإعلام، في الشارع، في أحاديث الساونات، كيـف يقولـون

إنهم في خطر ثم يعـودون؟ منحـوا العائـد ألـف يـورو ثم ازدادت إلى ألـف وخمسـمائة، الغربـة محيط إذا كنت سمكة ساذجة ستنتهي كوليمة سهلة، لسوء الفهم أو الهرب إلى ماضـيك، إلى المجهول، أو إلى إحـدى الـدول الأوروبيـة الـتي سـتدوّرك كنفايـات بشـرية وتعيـدك من حيث أتيت.

في أول شتاء في الغابـة الفنلنديـة، كـانت تثلج بالخارج بكثافة، فانتا منطقة جوية مفتوحة لذا تزداد برودتها عما جاورهـا. المخـاط السـائل تجمد في أنفي، رموشـي انتصـبت بيضـاء من الثلج المتسـاقط. لاحظت الـدم متجلطـا فـوق صقيع زلق عنـد مـداخل مبـنى الكمب، انزلـق كثـيرون، سـقطوا مـع اول خطـوة في الليلـة السابقة على الثلج الأسـود، طبقـة رقيقـة زلقـة جدا كصدف الأسـماك، أدى ذلـك لتنـاثر بعض الأسـنان والكسـور. لم نملـك أحذيـة بمسـامير مناسـبة لـذلك، علينـا أن نتكيـف. بـدا الثلج المرشوش كسـكر مطحـون جميلاً جـدا، إلا أنـه ليس صديقا أو آمنا دوما.

اشترينا أشياء مستعملة، وثيابـاً بقياسـات كبيرة xxl، وأحذية بقياسات 45، كنا نرتديها رغما عنا أحيانا. بدونا بطاريق تسـير على الأسـفلت،

بأحذيتنا هذه وملابسنا التي لا تطابق اجسـادنا، لا يمكن أن نبدو إلا كمهرجي سيرك. ب 92 يورو شـهريا لا يمكن أن تشـتري الا ملابس قديمـة وموديلات منقرضة,حاول أحـدنا البحث عن أي عمل، كان الشرط الأول أن تمر ستة اشـهر على وجودنا في البلد، وحين أتممناها، صـار الشـرط هو تعلم اللغة الفنلنديـة، سـتة أشـهر لا تكفي، كم يستغرق الفنلندي نفسه ليتحدث لغته الأم؟ حتى الجنرال منرهيم اسـتغرق وقتـا اطـول من هذا ليتحدث الفنلندية بصورة مقبولة.

نفـد التبـغ وورق البـافرا في منتصـف الشـهر، أفلسـت مبكـرا هـذه المـرة، بسـبب شرائي لابتوباً مستعملًا بثمـانين يـورو. نبشـت جيـوبي وذاكـرتي بحثـا عن يـوروات منسـية لأتبضـع حاجـات أخـرى، وجـدت يـورو وعشـرة سـنتات. فكـرت في الاسـتدانة من الآخـرين، تلاطموا بالأعـذار والقسـم بـأنهم كـانوا متجهين لي صباحا ليستدينوا مـني، رجعت إلى غرفـتي غـير مصـدق كـذباتهم الرخيصة، أشـعر بـدوار، النيكوتين هواء أي مدخن، سيجارة واحدة فقـط هذه المرة، أتوسل، أعطاني أحدهم سيجارة لف يدوي، هزيلة جـدا كحمـار جـائع، وبـداخلها ربـع الكميـة المفترضـة من التبغ، هـذه آخـر واحـدة

لديَّ قال محذرا، جفف شايا ولف منه سيجارة، أحسن لك.

- روح لمحامي فنلندي, اعمل له توكيلًا,يدفع لك مئة يورو..قال لي أحدهم في مدخل الكامب,لمأافهم الفكرة, سألته, ليش؟ شنو السبب المحامي يدفع لطالب اللجوء؟ ضحك, رد بأسنان متآكلة.

-ـ أغلبهم بلا قضايا أو عمل, محاميين مبتدئين أو كسالى, أو فاشلين, يشترون الزبون اللاجئ حتى يشتغلون, أنَّي سويتها, اخذت المئة يورو, من واحد واثنين وتلاثة, ووكلتهم كلهم, إذا سألوني, أجاوب, ايش مدريني, أنا أنسان أمي, العتب عليكم.

هربت من ضجر أحاديث الكامب، التي لا تتغير، الهجرة، الغرقى في إيجة، لم الشمل، الرفض، بصمة شنغن، اليونان... اتفاقية مع العراق للعودة القسرية,ثرثرة.

لجأت إلى المكتبة لأقرأ، تقام اماسيات ثقافية، تعرفت على شعراء وكتاب نصف مغمورين في فنلندا، عرب، عراقيين، اكراد وفنلنديين، تشاركنا همّ الحرف، مشاعية الكلمة والإنسان، من كل حسب لغته إلى كل حسب صوته الداخلي. تعرفت عليها،"هلا اسمي

ناديا"، "أهلا اناسـرمد, هـل أجلس؟"," نعم من فضـــــــــــــــــــــلك".

شاعرة، مهتمـة بالشـرق كمـا يهيم الشـرقيون بالغرب، كفضول لعوالم متخيلة، نسخ عن صور ذهنية قررها لهم المستشرقون.

صعدت المترو، بلا تذكرة، ليس لديَّ مال يكفي، أتابع بنظري الباب، خوفا من لجنة تحريرغرامات - ثمة صفحة على الفيس بوك، تعرّف مشتركيها بمكان وزمان تواجدهم، بمجتمع يتعاون ليتجنب وصل غرامة بثمانين يورو، أغلب من ينشر في الصفحة كحالي بلا تذكرة. جاء صبي يبيع المجلات، روماني، رددت عليه مبتسما، آسف لا أقرأ بالفنلندية، انتبهت امرأة مسنة قربي: "هل مر كثير من الوقت وأنت هنا في هلسنكي؟". "نعم". اقتضبت. "اها، هل ستتعلم الفنلندية؟". جاملتها: "نعم سيدتي، سأفعل، حين..". تحدث صوت آلي مشيرا إلى اسم المنطقة وبعض التوجيهات بخصوص الرصيف، هربت، مستترا بالصوت من أي حديث، تشاغلت بالهاتف،التفتُّ:"your ticket please"،كانت لجنة التفتيش بملابسها الزرق، حرروا لي غرامة,80 يورو ,أخذتها,أنزلوني،أكملت طريقي ماشيا.

ابتســم مــاركوس، الحــارس الأمــني في الكــامب، مفتــول العضــلات، طويــل، بعيــون خضر وشعر أشقر جدا، تـرجم خـبرا وأطلقـه في الكــامب، أحسســنا بشــماتته وكــان عنصــريا، يقول الخبر:

وافق أعضاء البرلمان الفنلندي على مقترح حكومي، منع بموجبه منح إقامات من نوع حماية إنسانية، واكتفوا بمنح نوع A حماية سياسية. حصل هذا في شهر حزيران من 2016، أتناول إفطاري بنكهة حزن وكآبة، انقطعت عن الأكل وخرجت. سيكون الهضم عسيرا، طار الكل كذباب يتصادم بعضهم ببعض، كما لو أنهم رشوا بمبيد. في الحمام أحسست بآلام في البطن، تقيأت الجبنة والخبز التوست والشاي،خرجت لأستنشق أنفاس الله الخضراء في الغابة القريبة. اتجهت صباحا لتكوريلا، تبعد عن الكامب خمسة وعشرين دقيقة بالدراجة. مختصرا للوقت وللجهد عبرت من وسط الغابة، دهست عجلاتي أفعى، كانت قد سقطت سهوا من أغصان شجرة البيتولا.. تفتُ شيئا في الهواء وهربت. كنا قد حُذرنا، سنُغرَّم 80 يورو في حال قتلنا أفعى، حتى لو كان دفاعا عن النفس. توقفت قليلا لأدخن،

استمعت لمزيج من عدة أصوات حيَّة وغير حيَّة، الطيور والريح، الضفادع والسيارات المسرعة عبر الطريق السريع.غطست في ذاكرتي بلا وعي مني، عدت إلى موت عراقي خالص في يوم ما، ربما ذكَّرتني الأفعى بذلك، لأصحو على يوم بغدادي دامٍ، عشرات التفجيرات بسيارات ملغَّمة ملئت بقنابل وقناني غاز البوتان ومسامير وصواعق وكلمات الله المتشنجة وفتاوى ولحى وغباء، في يوم واحد، بتناغم هارموني دقيق، كسيمفونية رعب، أحدها حصل في مدخل مبنى صحيفة (الخبر) حيث عملي. نجونا. عملنا في اليوم التالي، فوق الأنقاض، أعدنا ترتيب مكاتبنا وإصلاح ما يمكن إصلاحه، اعتدنا الأمر، واعتاد علينا. في يوم صيفي، في الواحدة بعد الظهر، وكالعادة، أرسلنا سلمان الفراش ليجلب لنا وجبة غداء من مطعم قرب المبنى، كباب وخبز حار وقنينة كولا، ذهب الفراش سلمان ، تأخر، تضورنا جوعا، تبينا لاحقا اختطافه. وجدنا ورقة مرمية في المدخل، رسالة تهديد، ذكروني بالاسم، سرمد الطاهر، اللعنة عليك أيها الخنزير الأمريكي الصهيوني العميل.. ال.. ال.عليك انت وجريدتك ان تعتذروا لرئيس الوزراء.

بمقال او على التلفاز, طيب أن لم نفعل؟:" اذا سنبدء بسلمان ثم نخطفكم واحد بعد الاخر" ,كان سلمان رجل مسن يعيل زوجة وثلاث بنات,لم يعد سلمان بعدها الى عائلتة.
اتصلوا برئيس التحرير، قالوا أن "دولته" يريد مقابلتي، في المنطقة الخضراء. سمعنا من قبل كثيرا عن صحفيين دخلوا هناك ولم يخرجوا، هربت إلى أربيل عاصمة إقليم كردستان البلادمع عائلتي، ابنتي وزوجتي، أصدر رئيس الوزراء شخصيا أمر إلقاء قبض عليَّ، لا تخضع أربيل لأوامره..هاجمت سياسة "دولته"، صار العداء شخصيا، أعجب ذلك قادة كردستان، حرمت من أن أدخل إلى بغداد، بغداد تضيق علينا، تأكلنا مثل "تيتان"في لوحة فرانشيسكو جويا، حيث زحل الأب يلتهم بنيه واحدا تلو الآخر وهو حزين.

أتــذكَّر زوجــتي الآن وابنــتي، كم ســتتحمل هــذا البعــد، "للصــبر حــدود"أليس ذلــك؟ نعم للصــبر حــدود، ولكــل الأشــياء حــدود إلا هــذه المبعــدة، المنفى القســري، بلا أطــراف، ممتــد من الشــمس إلى الثلج، تمطــر، أصــيح يــارب المطر أيا كنت، غيمة، نــورا، أو مــاء، اغســلني،

اغسل ذاكرتي، أبكي عن ألف رجل،أنطلـق على الدراجة، خفيفا كالريح وقلقا كالنار.
حين رجعت،ارسلت بطلبي المترجمة
سلمى ،أحاكي لهجتها المغاربية.
- سافا، اللالا سلمى، كيفاش دايره؟
ـ سافا، بييان, أخي سـرمد، بخـير. بغيت قلـك شوف البريـد ديالـك، الهجـرة بعثولـك مقابلـة، بالتوفيق.
- مرسي بكو، سلمى.
أشعر بقلق الآن، يزول قريبــا حين أنغمس في قصص الموجودين معي بالكـامب، ذهبت ليلتهـــا إلى ناديـــا، اكتفينـــا بالمحاضـــنة، والمشــاممة القبــل المتبادلــة، تتفهم وجهــة نظـري، وأقــدر ذلــك: "هي محظوظـة". أرفـع حاجبي: "من؟". "زوجتك، لأنك تحترمهـا حـتى بعد كذاسنة من آخر جنس مع امرأة".
أشكرها، أطلب منها خدمة: "ناديا أكملت النص بالإنكليزيـة". تـرد: "جيـد، سـأترجمه إلى الفنلنديـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــة".
فيصـل، مـا رأيـك أن تكتب عنـه، أطلب منـه مسرده، سيكون مغايرا ومثيرا بنكهتـه البدويـة. "ناديـا، أنـا جـائع هـل يوجـد شـيء بالثلاجـة؟" تجيب: "ربمـا سـلطة". أدس نصـف جسـدي،

انبش بحثا عنها، أين؟ بالمناسـبة، فيصـل، بـدأ مسرده معي منـذ الأمس، فيصـل لغـز، ليس بشخص عادي، لذا يبتعد مسافات عنـا، شـكرا للتنويه ناديا. "ناديا، هل تصـغين اليّ؟". كـانت منشـدَّة إلى خـبر مـا بالتلفـاز، في توركـو قتلى وجرحى، أحدهم بملامح شرقية يهاجم بالسكين المارة، يطعن أو يقتل، تعتيم أمني، توتر وهياج في الشارع ضد أي مهاجر، تحـذير حكـومي من ردة فعل شعبية منفلتة، اجتر بلا أشتهاء سلطة بروكلي وجبنا وطماطم وخيارا.

مـرة , بـاغتتني بسـؤال: "من أيـة مدينـة أنت؟". أجيب: "من بيت لحم". ترتسـم ابتسـامة ذكيـة في عينيهـا تـرد بسـخرية: "أصـدقك، بيت لحم في العـراق..أليس كذلك؟".

أطقطق أصـابعي، تلقي رأسـها إلى الـوراء مسـتلقية على الأريكـة، تشـعر بهـواء طمانينـة يـدخل رئتيهـا عـبر قميص نـوم أصـفر خفيـف يرسـم نهـديها بوضـوح: "سـرمد لم تجب عن سؤالي".

-ـ من البصـرة، تقـع على رأس الخليج العـربي، لست أنا من اقترح ذلك، اج جي ويلز في كتابه الأشياء كما ستكون في 1933 اقـترح أن يكـون

في البصرة مؤتمر دولي يؤدي لحكومـة عالميـة لاحقـا، صـارت فكرتـه حقيقـة، عصـبة الأمم والأمم المتحدة لاحقا".

تعدل جلستها مهتمة، أضيف:

- كـان اج جي ويلـز جـزءا من جمعيـة فابيـان ونـادي المعـاملات، جمعيـات سـلطوية تضـم نخبـة من حـول العـالم، سـرب هـذا الشـيء المتوقع في حينه سياسـيا إلى عملـه السـردي. تخيلي أن الكثـير ممـا ذكـره ويلـز حصـل، غـزو الفضاء وغيره".

تعقب:"تقصد أن البصرة هي"بيت لحم" النظام العالمي الجديد؟" تستسلم لاستلقاءتها الناعمة:"ربما". تقول وهي تنظر للسقف بشرود.

-ـ بالمناسبة افترض ويلز أن هناك في البصـرة عصابة عالمية اسمها " أجنحـة حـول العـالم ". ربما تنبؤاته قادتنا فعلا لأن نكون مجـرد أجنحـة هاربـة حـول العـالم، السـرد نـبي مـا، علينـا أن نصدقه. كل سارد منـا نحن اللاجـئين من مـدن الذهب المنهوب هو كرة صوف حكواتية مـا أن تسـحب رأس خيـط الحـديث حـتى ينسـل بسـهولة، أحيانـا تتشـابك خيـوط الحكايـات بعضـها ببعض وتتـوتر، قـد ينقطـع بعضـها،

مخلفة شـهقة مجروحـة ليلا أو خوفـا يتلصـص من نافـذة حـذر أوراق الطـرد والترحيـل، عيـون مرهقة بأجفان مثـل اللحـف الثقيلـة المتسـخة في الكامبـات، اللحـف الـتي صـارت زوجاتنـا وعشـيقات متخيلـة عندالشـهوة وأمهاتنـا عنـد البكاء، كل واحد وثيقة مهمة لأيام صعبة، تتلبد بعضها بالمخاط، المـني، اللعـاب وحـتى الـدم، كنت أقرأ الآخـرين من لحافـاتهم، كـان مؤشـرا بالنسبة لي إذا كان نظيفا فصاحبه سـعيدًا وإذا كـان مصـفرا فخيبـات الأمـل هي السـبب، وهكذا.

يتحدث شياو الكوردي لغـة عربيـة ركيكـة، لـديَّ معرفـة بسـيطة باللغـة الكرديـة، تعلمتهـا عندما هربت من بغداد لأربيل وسـكنت هنـاك منـذ خمسـة أعـوام، يغـني لي بصـوته الجبلي المتدرج كالسفوح، يغني لحسن زيرك، فيحضر جبل شيرين وكلي علي بك وأحمـد أوه وبيخـال وسـواره توكـه، وكـل هـذه الجغرافيـا الجبليـة الخضراء إلى الغرفة الصغيرة الـتي تشـبه علبـة حذاء طفل حديث الولادة.. اسمه شـياو، شـاب بحاجبين كثيفين كعلامة تجارية للعـرق الكـردي والـتركي والفارسـي ومن يجـاورهم، وبملامح شـبه أوروبيـة، شـعر كسـتنائي وعيـون خضـر

وبشرة نبيذية بيضاء، تشتد حين يغني كناي مجروح. تحمَّس لصندوق الذاكرة الورقي، لديه تجارب شائعة في الغربة، لن يحكيها كلها، أصر، يعاند، ككردي أصيل.

صباحا، استمع لشياو نوروزي. سحب نفسا من سيجارته وارتشف من كوب شاي بيده، وضع ساقا على ساق جالسا على صخرة امتد حولها بساط ثلجي ابيض خفيف فوق العشب الذي يصر على الاستمرار أخضر وفواحا، حكى بالكردية المشوبة بالعربية، عرّبتُها لاحقا:

"مقيَّدا اقتادتني، الشرطة الألمانية، قائلة أن لديك بصمة شنغن في فنلندا، سنرحلك اليوم لهلسنكي، أتوسل، أرجوكم، استوفيت عشرة رفوضات هناك، فنلندا ترحَّلنا حتى بلا اتفاق مع حكومة بغداد. لا جدوى، قضي الأمر، حشروني بمقعد طائرة متجهة من فرانكفورت إلى هلسنكي، بمعية شرطيين بلباس مدني. وصلنا عند الفجر، أنزلت، كانوا ثلاثة رجال شرطة، ثمة رسمة خنجر برأس أسد على بزاتهم الرسمية، حضر معهم موظف عن دائرة الهجرة لاستلامي، التحقت بهم الآن محققة شابة بنظارات سميكة وقصة شعر كهانا مونتانا،

أتلفت حـولي. اسـتعلموا "مـاذا مـا بـك؟ هـل تبحث عن شـــيء؟". أجبت: "لا ادري، لكنـــني لست مهما كي يسـتقبلني أربعـة رجـال منكم، هذا استقبال رسمي، هل كنتم تنتظرون بـوتين أم ترامب؟". كتم أحدهم ابتسـامته خلـف وجـه جـاد. طلبت مترجمـا، عـبر الهـاتف، شـخص يتحـدث الكرديـة بلهجـة الكرمـانجي، لأزعجهم. قلت أريـد مترجمـا بلهجـة السـوراني، لا أفهم كرمانجي. اسـتغرق ذلـك سـاعة من البحث لم يجدوا إلا سيدة بالكاد تسمع وترد عبر الهـاتف، شكرتها جدا قلت لهـا بـالكردي: "هـذا رزق اتى لك بسـب مـزاح، أنـا أتحـدث كـل اللهجـات". أحببت اللعبـــــة، تشـــــفيت قليلا، تكلمت الإنكليزية..

-ـ سأوقع وأبصم كمـا يحلـو لكم، فقـط دعـوني أنام.

أكملت الإجراءات نصف نائم، حملوني إلى كـــامب هوبرنتيا1، خمس دقـــائق بالســـيارة، عدت للغرفة 158 مـع فيصـل وصـالح. "تيـتي تيـتي مثـل مـا رحـتي اجيـتي"..اسـتقبلاني بسخرية واحضان..

- والله كاكـا أنـا ينـام هسـه، وبعـدين يسـولف، خافيز.

أجمــع أوراقي: "شــكرا شــياو..". "مــتى تطبعهـــا كاكـــا ســـرمد؟" أرد: "ســـأحررها أولا وأضـــيفها إلى صـــندوق حكاياتنـــا الـــورقي، وسانشرها حتما، ربما يقرؤها شخص بعد الـف أو ألفي سنة، لاتتعجل، كلكامش انتظـر سـبعة الآف سنة لتنشر ملحمته".

- سوباس كاكا شياو، سلاو

- سلاو كاكه سرمد.

اتممت مقابلتي، أجبت عن تسعة وتسعين بالمئة من الأسئلة النمطية، بعضها كان شخصيا جدا، تملصت، بحذاقة صحفي قديم، فُسر ذلك خطأ، في غضون الشهر، جاء الرفض الأول، برروا ذلك: "نحن نصدق قصتك، لكن زوجتك وابنتك في أربيل، تستطيع العيش هناك، لا خطر جدي على حياتك، الإقليم آمن".

"لكنني سأثبت لكم كيف حصل نزاع بيني وبين حكومة الإقليم. أرادوا ضمي للقطيع الصحفي من عشرات الأقلام التابعة، رفضت، قلت لهم لو كنت كذلك لبقيت هناك في بغدادوطبلت ل"دولته"".

تناقشت مع اكي إلـه هـالي، محـامٍ شـاب ونشـــيط، اســـتقتل في دائـــرة الهجـــرة من

أجلي،قــال لي :" لكنــه رفض جمــاعي، كقــبر جماعي، كوباء، كقرار لا يستثني أحـدا، لـو كنت مثليـا لسـاعدك هـذا". ابتسـم لمحـاميِّ، أرد: "أحـترم المثلـيين كبشـر، أحـترم الإنسـان بكـل ألوان القـوس قـزح، أبيض أسـود ومـا بينهمـا، لكنني مغاير، لديَّ زوجة أحبها جدا وابنة أتمــنى أن أبقى حيا كي ألبسـها فسـتانا كنت اشـتريته منذ عبرت إلى اليونان". طبطب محــاميِّ على كتفي، دمعت عيناه كأب، تمـنى لي التوفيـق، قال:"سأحاول مرة وألـف، أنـا مقتنـع بقصـتك ووثائقك، لكن.. تعرف أنت".

كان لطيف يزور الكمب بين الحين والآخر، ما زال بشـقة تـابيولا، يعـاني كثـيرا، يتكئ على المارهوانا كثيرا,مؤخرا. مروان، الذي سكن مــع R بعد طرده من الكامب. سعد وبايفي بين المد والجــزر، حب ومشــاكل متجــددة كنهايـــات الأسبوع. أمـير الأفغـاني يتحـدث عن محبوبتـه بغــزل كشــاعر فطــري من بلــد جلال الــدين الرومي، كلنا نعرف قصته إلا هو، كان يخيل لــه أنـه يعشـق بنتـا في العشـرين، اراد لنـا نقتنـع بذلك، أما في الواقع فهو يعاشر سيدة في سن الستين تحلب فحولته حين تريد، تمنحـه مـالا، يشتري به حشيشة، يدخن، يرتاح، فيعيد تـدوير

حكايته. صالح عمل أجيراً في شركة البريد لأربع ساعات، يوصل فيها الصحف إلى الأبواب، في ساعات الصبح الأولى. فيصل ينزوي أكثر، يمثل دور البدوي الجاهل، أرصد شيئا مخبوءا، إحساس يخطو نحو حقيقة، لا يمكن أن تخطئ صقرا حرا في حقل دواجن، ألمح في عينيه، سموا أميريا. أسأله: "تعرف في الخيل؟ كيف يميز البدوي الخيل الأصيلة؟" يرد: "بل كمختص". ويستطرد:

- طال عمرك يجمعون الخيل الأصيلة والهجينة، زي ما احنا كذا بالكامب، يصير راعي الإسطبل يضربهم بعصا، على ظهورهم ووجوههم، لين يخلص من هذا، يجوعهم يومًا كاملًا، بعده يعطيهم العليقة، برسيم وملح وشوفان، تبدي بعض الخيل تأكل، وبعضه ما يداني الأكل، عرفت الحين الهجينة تأكل بعد الضرب والأصيلة شموخة واعتزازها بنفسها ما تسمح لها.

- كأنك توصف حالنا، الكامب اصطبل جامع الهجين والأصيل، أنت من الأصايل، منو أنت؟

ليلى نمرة هندية أغضبت الإله شيفا فحوّلتها إلى امرأة من فلفل أحمر، بينما أكثم لاماسو آشوري من دم ولحم، قوي، مستهتر

أحيانا بردود أفعاله، التي يدفع ثمنها لاحقا، كل مـرة يعاهـد نفسـه أن يتغـير ويفشـل، يحبهـا ويحب ابنتهما زهراء، لا يهتم بـالتعبيرعن هـذا، ولا يجيـد دور الـزوج أو الأب، يعتمـد على أن العاطفة والمشـاعر تصـل بـدون لغـة وسـيطة، بدون أدنى جهد حتى هذا صحيح لـو فرضـنا أن الآخـر متمـاهٍ جـدا لدرجـة التخـاطب الحسـي والعاطفي بدون لغة، مـع ليلى، الشـاعرة وبنت كليـة الآداب لا ينجح الأمـر، أنثاهـا الداخليـة تحتاج لضـخ من المشـاعر المحكيـة والمنمقـة للتواصل.

لا أعتقد أنها تكرهـه، بـرغم عنفـه وإهمالـه لها، ولا أعتقد أنها تحبه، برغم أنهـا أنجبت منـه طفلـة منـذ خمس سـنوات ونصـف السـنة، تجذف ليلى في المنتصف، كان عليها أن تبحـر بقاربها نحو ضفة ما، الضفة الثالثـة أيضـا خيـار مطروح للمساومة. يتداول الجميع شائعة، ربما حقيقـة، علاقـة ليلى بالبـاحث الاجتمـاعي الفنلندي فيلبي، أعرفهـا عن كثب، أعـرف اكثم كـذلك، كلاهمـا متنـاقض. هـذا ليس سـبب الافـتراق، ربمـا هـو سـبب للالتصـاق، المغناطيسى لا ينجذب إلا إلى مخالفه السالب للموجب، وهكذا..

دعتني للحديث منفردين، خارج الكــامب، حتى" نسولف "بحرية وخصوصية أكــثر، بــررت ذلك. "طيب شنو تحب تاكــل؟" عرضــت عليَّ وجبــة غــداء، أنــا بحــراوي، أي شــيء من بطن البحــــر، حــــددت اختيــــاراتي، في المطعم التايلندي، روبيان وسوشي وثمار البحر، هذا هو المطلوب. خلصنا أكل. "ســولفي ليلى، ذانــاتي بس الك". قدمت لحديثها بأنها ليست خائنــة. "طيب، مصــدق كلامــك، بس أنــا مــو زوجــك، يعــني لا أقــدِّم ولا اؤخَّر، إذا وصــل خــبر لأكثم.. أقولها لو واضحة، يذبحك ليلى".

مســحت وجههــا بكفهــا كمــا لــو تغــير أعــدادات الوجــه بقنــاع آخر، بــدت أكــثر جديــة ودهاء، تخليتها بــرأس ثعلب، بعــد أن عرضــت فكرتها عليَّ:

- أنت أخ لي ولزوجي وأعتمد عليــك في التفهم وإنضاج الطبخة، علاقتي مع فيلبي هي طريقي المضمون للإقامة، لخاطر زهراء ابنتي، ولخــاطر أكثم، ما أنكر عجبني فليبي مثل أي منتج بس.. كشكل، أمــا الــداخل، التطبيقــات، النظم، فمــا متوافقــة، جــربت أتطــابق ويــاه مــا رهمت، فروقات وفروقــات لا هــو يصــير عراقيًــا ولا أنــا أصــير فنلنديــة، لــذلك قلت هي فرصــة نعيــد

تدوير هذه العلاقة. طبعــا أنــا مــا أخدعــه، حب، أوكي، إعجاب أوكي همات، بس أنا حرة أختــاره أو أختـــار زوجي، وإني قـــررت، تفهم شأقصـــد سرمد..

- نعم فهمت، المطلـوب مـني شـنو بعـد هـذا الغداء الرائع ؟ .

- المطلـــوب يـــا أبـــو ســـميرة، أن تخـــبر أكثم بطريقتــك بهـذه العلاقــة، قبـل مـا يسـمع من الآخرين، من مـروان بالـذات، حـاول تـدرج إلـه وحدة وحدة، وتفهمَّه أو تخوفه يتهـور ويقتلـني، فقط تعنيف لفظي أو كدمات بسيطة بس مـــو القتل هــا خلي الأمـر طبيعيًـا ومسـيطرًا عليـه، تحاول تمنعه يتهور، بشكل طبيعي وكأنني فعلا خائنة، وانت كذلك بث شائعة علاقتي بفيليـبي على قد ما تكدر، وأن تكون شاهدا على الخطـة. طبعا راح يعزلوني ا وبنتي بشقة، من آخذ إقامة يرجع أكثم إليَّ، بالسر مؤقتا حتى نحصل إقامـة بعده، أريـدك توضـح لأكثم حـتى اذاينسـجن أو يترحـل إني مــا أعوفــه وإني سـويت كـل هـذا لخاطر عائلتي.

صـمتت، بينمــا عيناهــا مازالتــا تتحـدثان بالكثير.

- ليلى أكتب عنك؟

أسألها بمكر.تجيب: "لا يمعود اســترعلينا، سالفتي مو للنشر".

تسألني ناديا: "هل قرأت شــيئا من الأدب الفنلندي، الكاليفالا، الإخوة السبعة، التطهير؟". تُفاجأ حين أجيب نعم. "كيــف؟". "بالإنكليزيــة، والعربية". "جميل". تحب ناديا أن أتحــدث عن فنلندا، تشعر بالفخر "احترم ثقافتك". أُســمعها سليمة مراد "هذا مو إنصاف منك". تُســمعني "وردة النســر" لهيلفي مــاكينين و"لهــذا فأنــا حــزين" ل تويفــو كــاركي. نســمع ســيبيليوس، تخــبرني عن منجــز خــالص لبلــدها، صــياغة الحكايات الفنلندية، أي إنســان قــادر أن يعمــل هذا طفل أو كهــل، يحتــاج الأمــر لورقــة وقلم لا أكــثر، يمــر بــأربع مراحــل، تحكي بصــوتك، آخــر يكتب، ثم يقرأ مسردك إليك، تصحح ما شئت وتعــدِّل، وبــذلك تســمع صــوتك خــارج إقليم الصــمت، كم جســراً يُمــد، كم قلقــاً سيتســرب بعيــدا نحــو الأفــق. نتحــدث عن خــبز التنــور، تندهش كيف تسنى للخبزة أن تبقى على فخــار التنور من الداخل حتى تنضج؟ تقــول شــاهدت بعيني ذلك في دبي. أخبز صمونا عراقيا، تخــبز لي البــولا، أطبخ دولمــة، ملفوفــا، تحضــر لي

حساء السلمون، نشرب يـالو، ونطـير إلى قبب زرق وقرميـد أحمـر، نـرقص، نـرقص، نقـع من الإنهـاك، نكركـر كصـغار، تعصـر كفي، تلتقي عينانا، لدقيقة، أحبك أسمعها بلا همس شفاه، أرد بقلبي، أحبك.

مـر أسـبوع، لم ألمح فيـه شـياو الكـوردي، كنت واثقـا أن لديـه المزيـد من الحكايـات، خصوصـا عنـدما أسـرّني بأنـه طلب لجـوءا في الـدانمارك منـذ سـبع سـنوات ولم يوفـق وأنـه صور فيديو كليبات لثلاث أغان له هنـاك، أراني ذلـك في اليوتيـوب. قبـل أن يطـرد من هنـاك عابرا الحدود بين دول أوروبـا كمـا يفعـل لاعب القفز بالزانة، بدون جدوى، شـياو عنيـد، كـردي كجبل، لن يستسلم ولو كلفه ذلك كـل سـنوات عمـره، للكـرد في الغربـة حس جمعي وشـعور عالٍ بالمسئولية، تجاه بـني قـوميتهم، عـزز من ذلك تاريخهم الموغل في الهجرة للخـارج. ألمح صالحا، أسـأله بعجالـة: "وين شـياو؟". ابتسـم: "ليش؟ قـول صـباح الخـير أولا يـا مثقـف". اتجاهل توبيخـه لي، كـان محقـا، أكـرر: "شـياو وين..؟". يجيب:"كاكا شياو يسلم عليك، هـرب لبلجيكا، بروكسل، قريبه كردي عنده محل بيتزا، يشتغل عنده مقابل النوم والأكل فقـط، يختفي

ستة أشهر، تسقط البصمة ويقـدم طلب لجـوء جديـدًا، يقـول: "إذا أعـادوني لفنلنـدا فسـوف انتحرعلى البث المباشر"، يرفع صالح كفه أمـام وجهه محاكيا وضعية التصويربالهاتف، يجتازني نحو المطعم، أراقبـه ماطـا شـفتي بعـدم رضـا. أفلت خيط حكواتي كان ممكن أن يحوك الكثير من الحكايات المذهلة.

ماذا عن صالح النجفي؟

صـالح، في العشـرينيات، مربـوع الجسـد، حنطي البشـــرة، ابن النجـــف ومقدســـاتها، وضحيتها وطريدها، هل سيوافق؟

جرّب معـه، ربمـا يوافـق على هـذه اللعبـة الخطـرة، أن تخـرج أحشـاء دماغـك على ورقـة وتقـــدمها للآخـــرين للالتهـــام، تســـلخ جلـــدك وتتعرى، تريهم قلبك كيـف يعمـل من الـداخل كماكينـــة ســـاعة ســـيتيزن، تـــريهم كاميرتـــك الصورية وكم تحتفظ بصور في ذاكرتهـا، انتظـر لا تتملص، أمسكك من ساعدك، اسمع، عليك أن تجعلهم يشـمون رائحـة جسـدك. وأبطيـك وتعـرَّق خصـيتيك وكـل ذلـك من خلال سـرد الإفـراغ والتطهـير، التوبـة، الاعـتراف، الـولادة، التعميد، حائط المبكى، سمّه ما تشـاء، فقـط.. لا تكذبك على عقلك, احترمه.

- سرمد، إذا تحـذف،"تعـرَّق خصـيتيك"، هـذه فأنـا جـاهز لكـل شـيء فـوق وتحت اللبـاس، اتفقنا؟

- نعم، جيد من البداية، من هو صالح النجفي؟

- اسمي صالح النجفي، من المدينة المقدسة، النجف، فاتيكان الشيعة.. تبخر والدي في ظهيرة ساخنة وشهيرة جدا، انفجار هائل هز إحدى بوابات ضريح علي بن أبي طالب عام 2003، استهدف زعيما شيعيا مهم, كان عائدا للنجف بعد ثلاث عقود من الاقامة في ايران، شاحنة بأطنان من المتفجرات والمسامير والشظايا والأحقاد المذهبية والإرادات المخابراتية، ارتفع دخانها إلى سقف المدينة في شكل مظلة فطر دخانية هائلة تذكِّر بقنبلة ناكازاكي، انعجن اللحم بحلوى" الدهين" وذابت القوميات بين جثث العراقيين وزوار الاضرحة من الهنود والفرس والباكستانيين والأفغان، ما تبقى في رأسي الآن هو صور انطباعية دخانية صوتية لصرخات الجرحى والمنقذين وأضواء الإسعاف وسيارات الشرطة، تلاشت روح أبي سرفتها منهولات الأرواح المتصاعدة إلى مجاري الجنة حيث تتجمع الأرواح والأدعية والأبخرة والأمطار. وجدنا خاتمه الفيروزي، يشع

بزرقة حادة كأن روح أب سكنته أو حلت به مؤقتا، دفناه مع قليل من اللحم المفروم الملتصق به كبقايا همبركر نيء. حسب أمي فالوالد غاب، وسيرجع مع المهدي صاحب الزمان، وراح يقوم بخدمته، لم أتقبل الفكرة، اعتبرتها أنانية منه أن يتركنا ويلتحق بإمام مختفٍ غير محتاج لخدماته حاليا. كنت طالبا في المرحلة المتوسطة كان يجب عليَّ أن أترك المدرسة، أدفع عربة في السوق الشعبي لنقل المشتريات، سجاد، أثاث، شوالات، مكسرات، أي شيء لنعيش، نلبس، ناكل، اشتري علاجا للوالدة، البّي احتياجات أخواتي الثلاث وأقيهن شر العوز، رجل البيت، وشمعته أنت، تقول ام صالح وهي تشد عصابة رأس كتمثال حجري لملك سومر كوديا، متهيئة لتزور قبر ابي, في مقبرة وادي السلام.

- يمه صالح، خط شاربك، وخشنت لحيتك، لـو بيـدي أعرسـك اليـوم، بتعب ذراعـك، أشـوفك عريس، قبل مـوتي، يمـه صـالح، عـوف شـغل السـوق، اتطـوع بـالجيش، هيبـة وراتب زين ومستقبل.

فعلت وتطـوعت في الجيش الجديـد، كـانت قياداته خليطا من ميلشـيات صـديقة

للجــارة إيــران ومن بقايــا عســكريين من زمن البعث، عجزة بكروش منتفخــة أعلنــوا تــوبتهم، من الماضــي، كــانوا خــبراء في القمــع لــذلك أبقــوهم، إعــادة تــدوير نفايــات العســكر.حُملنــا بحــافلات عســكرية مكشــوفة إلى منطقــة في أطراف تكريت، قاعدة سبايكر.

سألتني المحققة في دائـرة الهجـرة ــ هـل تقصد سبايدر، عنكبوت؟

- لا، اسمها سبايكر.

تبحث عن الكلمــة عــبر تطــبيق "غوغل"، تجدها، مع حزمة مشـاهد إعـدامات جماعيـة. - اها، فهمت..

أعلمت دائرة الهجرة انني أحد النـاجين من مهلكة سبايكر، وانني أعلم أسرار تلك المأســاة. تلك الليلة، حين أتانا الأمر بأن نخرج من أســوار القاعدة الآمنة إلى خطر الشارع حيث القتلة من داعش. أعلم من أمــر بــذلك، لــديَّ بهــاتفي الشخصي فيـديو لمن حرَّضـنا لنخـرج، هـددني بعـد نجـاتي من الـذبح، يملـك نصـف مليشـيا وبضــع رتب في الجيش. هــربت، من بلــدي وأهلي ولغـتي وحبيبـتي إليكم، هـل أمنح حـق لجوء لهذا؟

سألوني: ماذا سيحصل لك لو أرجعناك؟

- سأقتل. أجبت.
كانوا قد سـمعوا هـذا الـرد كثـيرا، من عشـرين ألف شفة أو أكثر.. لم يأخذوا ذلـك على محمـل الجد.
- هـل أكمـل قصـتي الأصـلية سـرمد؟ آسـف للقطع..
- أكمل.
قضينا ليلتنـا رقصـا وتقـافزا لنطـرد شـبح الخـوف، نمت بلباسـي فقــط، في منتصـف الليل أرتعش وأعــرق، أثب مفزوعــا للســقف كمن شــاهد تمســاحا في ســريره، صـــحت بأصوات غير مفهومة ربما بلغة بابلبـة مشـفِّرة. نهض إثنان، أمسكاني وأنا ورقة صفراء ترتجف خـوف أن تسـقط، غسـل أحـدهم وجهي بمـاء بارد، كنت اردد من خلال اسنان مصطكة.. ذبح ذبح لا لا ذبح..
أسأل: هل كنت تتنبأ بالمجزرة، صالح؟
يرد: ليست نبوءة، أخبار الذبح كانت تصـل الينا منذ عدة أسابيع، منذ سقوط الموصل بيـد داعش، ذبحوا سجناء سـجن بـادوش وكـل من وجدوا من شرطة أو جيش. فتحت عيـني بعين الشـمس ذات الهـدب الأصـفر، رأيت ضـبابا وذبابا يلغ بعيون مفقوءة. في ذلك اليـوم أعـدم

770 جنــديا عراقيا قيــد التــدريب، على يــد داعش، آخر مـا أذكـر أنـني كنت جثـة في شـق ترابي، تنزف حولي عشرات الأجساد، متصـلبة، أتنفس دما زنخا كسمك ميت، عطشا، أشــرب دما. سـحلت جسـدي في الفجـر، كـانوا رحلـوا للصلاة، كانوا بثياب سود، داعش ورجال قبائـل من تكـريت، وبقايـا البعثـيين. كـانوا عراقــيين وعربا وأجانب. زحفت إلى جرف قريب وألقيت نفسي منه، أنقذني النهـر، حملـني إلى الضــفة الأخرى، سحلني صياد، أقسمت له بأنني مجرد إنســان، جنــدي؟ تــرددت، قــال لا تخف. قــد يقتلـــني. ســـلَّمت أمـــري للـــه، أجبت: نعم، بشاربك..

-ـ كافي، سرمد، تعبت.

يغرق صالح في الصمت وفي التدخين.

في نـــدوة مســـائية، برعايـــة منظمـــة "KIILA"، خُصـص الموضـوع عن سـقف حريـة التعبــير، حضـرها كتَّاب عــرب وعراقيــون إلى جـــانب بعض الفنلنـــديين تحـــدثوا كثـــيرا عن الشـــرق، عن تابوهاتـــه الدينيـــة والجنســـية والسلطوية، تحـدثوا بتنميـط وعموميـة، مـازال الأوروبي يحتـــاج لمن يطبب عقــده ومعتقداته التي أقنعه بها المستشرقون، كـان يتخيـل كـل

شيء من خلال الصورة الهوليوودية لألـف ليلـة وليلة، حتى لو تخيـل أن هنـاك مبـاني شـاهقة ومؤسسـات وجامعـات، كـان يـرى الجـواري بملابسـهن الملونـة في النوافـذ كـل مـرة، أو يتمـنى ذلـك على الأقـل، بعض من ذهب للشرق لم يجد ذلك، عـاد وتحـدث بهـذا، ضـاع صـوته في الحس الجمعي العـام، سـألني شـخص :" كم جملا لـديك في العـراق؟" ," كم حصانا فنلنديا لديك في شقتك الأنيقة؟"

تحدث كاتب عراقي بجنسيتين أوروبيـتين أخـريين، قـزّم مجتمعه وسـخّف كـل منجـزه الثقـافي، وصـف أهـل بلاده بـالأميين جميعـا، لأنهم لم يركبوا مترو أو يستعملوا ماسـتر كـارد. اسـترخى بعض الحضـور بينمـا تظـاهر البعض بالتعـاطف. أهمُّ بـالخروج، تمسـكني ناديـا.. "انتظـر". أرد واقفـا " لا، هـؤلاء مزيفـون، لن اشترك في هكذا سـخافة". وأنـا أهم بـالخروج، ظن مقدم الضيوف أنني أريد الحديث، تفضـل هل لديك إضـافة. أفـرغت معـدة رأسـي كلهـا: "نعم. عليكم أن تـدفعوا أكـثر لهـؤلاء". "من تقصـد؟"."المخـبرين الثقـافيين، الكومبرادوريين، إنهم يعملـون جيـدا في الحـط من ثقافـة بلـدانهم، عليكم أن تقـدروا هـذا،

امنحوهم إقامات ادبيــة، في جــزر ومنتجعـات، دعمًــا اعلاميًــا، واحتفــاء وجــوائز، لــيريحوكم ويرتــاحوا، عفــوا. عليّ أن أغــادر الآن". تتبعـني ناديا، بينما يهمهم الحضور بالنقاش.

جاء فيصل إلى غرفتنا، ألقى التحية بلهجته البدوية، طلب قهوة وسكرا، طلبنا منه أن يبقى للدردشــة قليلا، صــمت كــل الــوقت، يســتمع فقـــط، لا يبـــدو عاديـــا، سأكشـــف عن خليته السردية يوما ما، قد أجد العسل الأصلي لديــه. كنت وصــــالح نتنــــاقش بخصـــوص النســـاء الفنلنــديات بينمــا انشــغل لطيــف ومــروان بحــديث شخصــي قــرب النافــذة. قــال ســعد:" صــاحبتي لبوة، والله لبــوة. ولازم اكــون أرنب، تخيلوا أرنب ينيك لبوة". "فنطازي مــو باللــه؟" ههه، ضحكنا. علق سعد: "صاحبتي جندي مو بنت، أحس لابسه خوذه حتى في السرير، أقول لها حبيبتي إحنا مو بصراع، ما بيننــا خاسر، احنا الإثنين رابحين بعض، تقول أنت رجل شــرقي، أو رجــل في العمــوم، اعتــدت على الســيطرة، رجل كهوف، ما أضعف، حتى لــو كنت أحبــك.. انوثـــتي هويـــتي".. أقاطعها "لا، انســـانيتك هويتك".

شاركنا أمير الأفغاني، بالإنكليزية: "حبيبتي تختلف عن كل ما قلتموه الآن، أنا أعطيها قلبي وهي تطـير من الفرحـة". رد سـعد مـع غمـزة: "متاكد؟ خـــــاف تطـــــــير من جـــــوين الحشيش؟"هههههه، تتعالى الضـحكات. حضر تـاج الـدين الصـومالي مرتـديا قميصـا وإزارا تحتانيا، يسـمى (معـويس) بالصـومالي، بـدا متذمرا. "خـيرا..؟" سـألناه، رد بعربيـة أفريقيـة: "والله يـا أخي، جـاءني رفض، قـالوا ارجـع إلى بلـدك بغـداد، آمنة حسـب التقـييم الجديـد". قلت لهم: "لكن أنا من مقديشو، مـا أعـرف يـا أخي، ليش هذا".تنهـد بمـرارة، ضـحكنا، بينمـا قطب جبينه.

- بغداد، مقديشو، كابل.. كلهـا منة، أصـلا مثـل جنيف، عادي، هم أعلم بمدننا من عدنا. أجبته.

تنهد وانصـرف. يسـألني سـعد، يجي يـوم نصير مثل سويسرا وتصح الكذبة؟

أصـمتُ لنصـف دقيقـة. بصـوت الكـاهن بالفصحى أحدثهم بمـا كنت قرأتـه مـرة، كـانت سومر تؤمن باله معـاقب، يـأتي بفم ينفخ نـارا، ولذا صرنا نخاف النار وطورنا الفكرة، إلى منشاة ضخمة أسميناها جهنم، أصـر السـومريون على

أن يتحدَّوا هـذا الإلـه الغاضـب، كيـف؟ بخلـود أرضي.

- يعني شنو؟

- فكروا بمنجـز, ببنـاء، يقـول لـه أيهـا المبـدع، الخـالق، نحن كـذلك نصـنع مثلـك، فكـروا، مـا الــذي يمكن أن يصــمد في وجــه النــار، لا بل يوظفهــا لصــالحه، فكــرة، الطــابوق، الطــوب الطيني، سيفخر إذا ما عاقب يوما الخالق بالنا.

رأيت الدهشـة على عيـون الجميـع، أكمـل بطريقة أذاعية:

- ماذا عن المصـريين؟ فكـروا، قـالوا سـيعاقبنا الرب بماء يغرقنـا، لـذا بنـوا أهرامـات وقصـورا ومعابد من صخر لا يهزمه الماء وسيبقى خالدا.

تحـرك مـروان قليلا وعـدَّل جلسـته، تربـع فيصل، بينما أنصت سعد ولطيف بتركيز:

- الآن ماذا عن الصينيين؟ قالوا سيعاقبنا الرب بريح، لذا اخترعوا الورق، كمضاد للعقوبة، كتبوا حضارتهم، فكروا: سنوظف عقاب الرب لينشــر اثرنا فنخلد.

صمتوا، أضاف لطيف:

- والفنلنــديون اخــترعوا هــاتف نوكيــا، لمــاذا؟ أعتقد لتفتيت الثلج الوجـودي بـداخلهم، لمحـو الغابة، سـيميلوجيا على الاقـل، الغابـة قطيعـة

وخصوصية مكانيـة مفروضـة فرضـا، يتصـلون ليتواصلوا، ثمة عطش جمعي للحكي، مشـوب بالخجل، هم شعب يفعل أكثر مما يحكي، هـذا ممتاز عمليا، ومرهق نفسـيا، نحتـاج لمشـاركة اللحظة مع الآخـر، الآخـر بوصـلة تشـير إلى أين وصلنا.

يعقب فيصل: عـز اللّٰه , هـذا كلام بـه فـود كثير.

التفتنا إليه: فيصل، عطنا من تـراث البـدو خل نسمعك.

- كنت صبي عندما سمعت هـذه القصـة، كان بمضارب العـرب شـخص بـدوي، ذبح ابن جارو بالخطا، ثـوّر بـه رصاصـة عمية، اجتمعت القبيلـة، قـال الشـيخ من والد القتيـل؟ صـاح منـاحي: أنا ياشـيخ، قـال لـه: أنت تحكم على القاتل، أنت راعي الـدم، خـذالو صـفنة لين مـا تملل الربـع، قـال: أحكم إنـو يسـافر، يجلي عن عربنا مدة سنتين، قـالوا الشـيخ أبشـر. طـافت اسـنتين، رد القاتـل لعيـالو، عيـوا من اللّٰه خـير لين اكحلت نواضر حرمتو ووغدانوا، بـات ليلـه، ليلـة وحـده والصـبح تملمـل، سـالوه,على وين يـاطيب؟ قـال : عزاللّٰه مـا أقـوى أبقى هنيـة،

بغيت انحــر الــبر.. وفعلا ارتحــل وماعــاود الين اليوم.

ـــــ فهمتوا شي،يـا ولـد..المفـروض هـذه عربي؟قال سعد مازحا.

انزعج فيصل، أرضيته بحضن عند الباب، اعتذر سعد: "صدكني أمزح معاك يشيييخ". مط "شيخ" متهكم. قلت لفيصل: " ولا يهمك اللي قلت هو الأقرب للعربية الأم، لكناحنا نلحن بلهجاتنا المركبة،لا تزعل، وراح أطبع الترجمة ووازعها عليهم, لا تزعل،ههه"

أخذتنا الأحاديث إلى جزر أخرى، رسونا هناك حتى ساعات الصباح الأولى، في الخارج,شمس دافئة بلا ضوء،حتى إنك تقدر تلمسها بيدك دون احتراق، الأفق مموه بمنحنيات، بلون رمادي واسود، كانما عربة جنود مصفَّحة متعطلة في السماء. هل يزيل قرص الفيتامين الكآبة؟ هل تنفع النزهات الآن؟ السماء كانها سقف من كونكريتأنى ذهبت. فليأتِ القادم، الآن وإلا فلا داعي لأن يأتي أبدا, هل يأتي (كودو) القواد؟؟

في المساء اللاحــق، تشـاجر مـروان وامـير الأفغاني، بدا الأمر معي، كان أمـير قـد تعـاطى مخدر، محلِّقا إلى أعالي سماوات اللّه.

. ترك أمير الغرفة صباحا، تضايقت لذلك، لكنه حر، لم أسمع عنـه مزيـدا من الأخبـار منـذ تلـك الليلـة، سـيربا تضـاجعه الآن مقابـل أن يسكن معهـا، سـيدفع نصـف حيويتـه ليعيش والنصـف الآخـر ليتعـاطى مخـدرا ويحتمـل العيش، فـرق في السـن يعـادل عمـره مـرة ونصـف المـرة. الغربـة قشـرت أمـير الأفغـاني كالفسـتق أسـقطت القشـر، الـدرع الحاميـة لكيانه، كصدفة.تدلعه الجـدة الأفغانيـة بهشـت بفيديو أراني إياه مرة:

- "أمير ناز ناز، سبز پسـته من هسـتيد". أمـير فسـتقنا الأخضـر، لـو تعلم مـا حصـل لـه الآن، ستموت لأربع مرات على أن تتقبل ما يفعل.

لا يفرق أمـير عن مـروان حيث اعتـاد هـذا تأجير قضيبه لمن يدفع، يسأله سعد:

- بشـرفك سـولف لنـا عن اسـخن وأغـرب المواقف.

تحفز مـروان ليسـرد بورنـو درامـا, تطلعت أذاننا اليه:

- "أصعب يوم، وأقسى مشهدFITCH، كان يلح على شغلة، قذرة، كنت أتهرب كل مرة، لكن فعلت في الأخير، تصوروا ما يثار إلا بالخرا على جسمه، لطخته، احتاجيت نوسكا وغرام

حشيش ولتر ويسكي حتى أصعد"،كرهت نفسي بعدها .توقف لبرهة ,أكمل:

ـــــ راح اطلع برا، اختنكت، من رخصتكم...اريد هوا نظيف.

رأيت عينيه دامعتين، وهـو يغـادر. أسـأله: "ليش مــروان؟ أنت شـــاب جيـــد، رياضـــي ومتعلم، وابن عائلة، ليش هذا الانتحار؟". قلت الكلمة مجازا، لم أتصور أن يفعلها يوما ما.. بعد شهر من سفر حبيبه R. "مـروان، شصـار بينـا؟ ليش؟".

رجع مروان يومها في العاشرة صباحا، تكوَّر في سريره، صانعا من شرشفه شرنقة بيضاء مضيئة بفعل شاشة هاتفه. مر اليوم دون أن يتحرك من مكانه , يمر الليل بطيء إذا راقبت الساعة أو راقبت أحدهم، الرابعة صباحا.. أتقلب فوق سريري، أراقبه، يراقبني، عبر فتحات نسيج شرشفه أبدو كظل أزرق باهت. كان يجب إلا أغفو الليلة، منذ رجوعه صباحا وهو يبكي ويبكي بصمت ,يشفط مخاطه، يرتاح قليلا ثم ينشج بصوت متعب. لن أسأله مجددا،حاولت غير مرة لم يجب إلا بالصمت من شرنقته. الرابعة والنصف صباحا، هبطت إلى قاع النوم كغواصة معطوبة. كنت

نعسانًا جدا، أحاطني خدر أزرق وهمس في أذني "هشش نامممم" ففعلت بهدوء وطواعية. قلت كان يجب ألا أنام الليلة، مرت سحابات ديسمبر، تلصصن عبر النافذة، يشبهن أوزات بيض على سفر، لم يجدن ما يثير , مسحن بوزهن بالنافذة و رحلن تسحب إحداهن الأخرى، شاهدنني اغط في النوم، بينما سرير مروان فارغًا.

مروان..افيق كمصعوق، مـروان، مـروان...، يسعل أو ينبح كجرو مجروح، مكـوم على نفسـه قرب الباب يتلوى، يغالب ما في أمعائه، يغمى عليه، عيناه محنطتان وجسده بارد، بينما تدفق سـائل اصـفر ذو رائحـة نفَّاذة من فمـه على الأرضـية وعلى ملابسـه, كلـور غسـيل , شـرب كلـور .. "ياللـه الولـد راح يمـوت"، أهـرع للموظفين.

-ـ اسعاف، اسعاف، حالة انتحـار، بسـرعة، كـان الجميـع في إجـازة أعيـاد الميلاد أو لم يباشـروا عملهم بعد، باسـتثناء مـاري والحـارس الأمـني آرتـو، اسـرعوا ورائي إلى الغرفـة، طلبت حليب مايتو ميلـك، بسـرعة، اسـتغرق الأمـر دقيقـة، كنت خلالهـا أحشـر اصـبعي لآخـره في حنجـرة مـروان ليقيء مـواد الغسـيل الـتي ابتلعهـا،

صـفعته مـرة واثنـتين لينتبـه، خدشــت لثتــه بأظفري ربمـا، سـالت خيـوط خجـول من الـدم على كفي، أجلســته وهــو جثــة مرنــة تتنفس بصعوبة، أفرغت الحليب في فمـه، كلـه دفعـة واحدة، ابتلع القليل منـه بينمـا انسـكب أغلبـه على الأرضـــية. تجمـــع بعض الشـــباب في الكامب، للمساعدة أو إشـباع الفضـول، وصـل المســعفون، حملتــه معهم حــافي القــدمين غصــت ســيرا في الجليــد، وصــولا لســيارة الإسعاف، أخذوه. تجمـع حـولي آخـرون حـاولوا إعادتي، ألبسني أحدهم خفا بلاسـتيكيا، اصـيح في الباحـــة الخارجيـــة: " ليش لـــك مـــروان. موقلتلك، كافي كافي.. ايش سويت بنفسـك.. وايش سـويت بيـه كلب، أنـا مـا نـاقص درامـا وقهر،تريـد تجلطـني؟".حـاول سـعد تهـدئتي، إرجاعي لداخل استعلامات الكـامب، أصـر على أن أتجمد في جو مثلَّج عاصـف بزرقـة رماديـة، أحدهم كان يدخن، يتسال ببرود: "مروان مــات لو بعد؟". اسمعه قربي، التفت إليـه بلكمـة في بطنه، أسقط فيها معه وسط الثلج.

أنهيت مكالمتي الروتينيـة مـع أم سـميرة، زوجــتي في أربيــل، عــدت لأفكــار المشــروع التوثيقي الأول لحياة الكامب، مــازالت حقيبــة

الحكواتيين مليئة بخيوط ملونة شتى، معقــودة بعض ببعض، يكمــل أحــدها الآخــر، مــا زلت أحوك حكايات الكامب كما تفعل الملكة بنلوب لتبقى حرة حتى يعود إليهــا أوديســيوس. ناديــا تجتهد معي في ذلــك، طلبت لي من أكــثر من جهة منحة لأعد مســردي كمشــروع روائي، هــل تكتب بالعربية أم بالإنكليزية؟

حصلنا أخيرا على دعم محــدود، منحــة من جهة ثقافية فنلندية، ناديا متحمسة أكــثر مــني، مــا زلنــا نلتقي، نحضــر أغلب الأحــداث الفنيــة والشعرية، سينما، بار، نادٍ ليلي، نسكر، نرقص، أطــوق خصــرها، تشــتمني، عيناهــا شــكوى مفتوحة، لما لا..؟ اغمض، أدور وأدور كصــوفي، على إيقــاع الصالصــا، فجــرا، تمســك كفي وأنــا أتركها عند المدخل لأرجع للكامب ثملاً.

- تعال معي، لديَّ جن إســكتلندي، أنت تحبــه، أليس كذلك؟

- وأحبك أكثر، لذا أتركك هنا في كل مرة، علينــا تقبل هذا.

- اذهب، الآن، أريد أن أنام.

تمسك اطراف الباب مترنحة، تلتفت إليَّ، بفهاق: "طز بك".

أبتسم، أساعدها، تدفعني بشتيمة، أنكش لها كرة شعرها بكفي، وانصرف.

جاء الرفض الأول، تـأخر سـنتين، الأشـياء عادة تبدأ صغيرة ثم تكبر، أما الأمل فيبـدأ أكـبر من خصر مجرة ثم ينتهي كميكـروب على رأس دبـوس. الـرفض الثـاني، لكمـة أخـرى، مـازلت أحافــظ على تــوازني، أدخنّ كقــاطرة وأشــرب كصـوفي ينكـر ذلـك لاحقـا، اسـتبدلت تقـاويم السـنوات على الجـدار، للمـرة الرابعـة على التـوالي. الـرفض الثـالث، المبتـل لا يخشـى المطر.. الرفض الرابع، إعادة التبصيم، الانتظـار كمـا لـو عـدت لمربـع آدم الأول.. مازلنـا غـير معرّفين، بلا أوراق رسـمية. حـتى أخطـاء نظـام الوندوز تعرف بكود ورسالة، حتى القمامة تمـيز بـألوان أكياسـها، أمـا أنـا الآن فالعـدم الحقيقي الذي فشل أميل سيوران في أن يصفه. الغرفـة تضيق بنفسي وأضيق بملابسي حتى.. هواء يـا الله يا بوذا ياجيفارا يا دلاي لاما، يـا مسـيح.. لا صـوت، فقـط الصـمت ينهش رأسـي، أرتمي فـوق سـريري، أتقلّب كـالنرد، سـأنهي حيـاتي الآن.. لا. عائلتي تنتظـرني. إشـعار مـا، يصـلني إيميل من.. الله، لا. من إذن يكسر هذا الوحدة؟ أتفحص بفضول من المرسل، أمير الأفغاني؟ لا

أعرف شيئا عنه منذ ثلاث سنين، منذ عراكه مع مروان، أعـذره لم يتصـل بي ولا مـرة، من يعلم كم لاقى من صـعوبات. أذكـر مسـرده وكيـف توقف، عليـه إذن أن يكمـل مـا بـدأه، ثمـة ريح نادته، حملت أفكـاري إليـه، وهـا هـو ذا يجيب ندائي..

"عزيزم اقا سرمد"..

كل مـا حصـل في الغرفـة 155 أنـا أعتـذر عنه، سامحني، اغفر لي غيابي، كما غفر مولانـا الرومي لشمس التبريزي، أنـا بخـير، في لنـدن، أعمل في مخبز نان أفغاني، انتظر الفرج، إقامة عمل في بريطانيـا، آخـر أرض الله بالنسـبة لي، لن أطرد لفنلندا كما يحصـل للبعض، سـقطت بصمة شنغن عني خلال ستة أشهر في باريس.

أراك متشـــوقا لمتابعـــة مســـردي.. أراك تعدل نظارتـك، أو تحـك أرنبـة انفـك، أراك.. لا يهم، أكمل لك حكـايتي. عـبرت بشـاحنة لحـوم مبَّردة، ركبت في باخرة، عبرت بنا المـانش إلى بريطانيا، في باريس قضيت سنة تقريبـا، نمت على الأسفلت، أكلت بقايا البيـتزا في المزابـل، ثم وجدنا مركزا للإيواء بعد سبعة شهور، أفارقـة وعراقيون وكـل أبنـاء آدم تجـدهم حولـك، كـان الفرنســيون يعطوننــا كوبونــات للأكــل وأمــور

التنظيـف، كنت اتصـلت بأفغـان وأكـراد من ممتهني التهريب، اعطيت لكفيل خمسة آلاف يورو، يستلمها المهرب حال وصولي، في الليلة نفسـها أخـذني لكاليه أفهمـني مـع مجموعـة أخـرى كيـف سيحصـل هـذا الأمـر، كـان نهـارا يعمـــل كموظـــف في المخـــازن حيث تعبـــأ الشاحنات من بـاريس لتنطلـق إلى لنـدن عـبر البواخر التجاريـة المغـادرة، اختبأنـا على جـانب الطريق، مرت شاحنة ببطء، عرفها جيـدا، قـال هذه متجهة إلى لندن أنا من جهزها عصرا، كنا

نعلم أن أي خطأ معناه أن تأخذك الشـاحنة إلى المجهول، قـد تجـد نفسـك في اليونـان أو تركيـا أو أسـبانيا أو حـتى الإسـكندرية أو جـدة السعودية، قـال لي هامسـا "خـدافز" ودفعـني في حوضـها البـارد. تـذكرت الشـتاء الفنلنـدي القارس، شحنة من لحـوم الخـنزير الورديـة، أنـا الخـنزير الحي الوحيـد بينهـا بجسـدي الممتلئ قليلا.. زاد وزني عمـا كنت قبلا معكم، ارتـديت "سليب باك " فـوق مـا أنـا مرتديـه من كميـة كبـيرة من البلـوزات الصـوفية وبنطلـونين من الكتان، كان قد زودني بقنينـة فودكـا 60 بالمئـة وترمـز شـاي صـغير وبخـاخ كالـذي يسـتعمله مرضى الربـو، قـال لي كاكـا، حـدثني بالعربيـة،

والكردية، لأفهم، "هـذا من ينخفض اوكسـجين يرش أنت هيج، وبخ في فمه".

مــرت الشــاحنة بســلام من أربــع نقــاط تفــتيش يــديرها كلاب وشــرطة فرنســيون، إذا أمســـكوني سيكســـرون عظـــامي بعصـــيهم المطاطيـة ويسـحلوني سـحلا إلى اقـرب مركـز ترحيــل، كنت محظوظــا إلى حــد الآن، غــنيت لنفسي في حـوض الشـاحنة المعتم.. ليمضـي الوقت سريعا، “سرزمين من خسـته خسـته از جفـــــــــــــــــــــــــــــــــايى…

بى ســـرود .. وبى صـــدايى .. بي صـــدايى” ارتشفت الشاي، كان قد برد، فاسـتعنت باللـه والفودكا الخالصـة، رائحـة اللحم الزنخـة، نقص الأوكسجين، أضـعت هـاتفي في العتمـة، بلت في سروالي من البرد، بعد اربع سـاعات بـدأت بالطرق على بـاب الشـاحنة، ارضـيتها، فقـدت التركـــيز وبـــدأت هلاوس بصـــرية تملأ ظلام الشــاحنة، الخنــازير المقطعــة عــادت للحيــاة وبدأت تلعـق عنقي أو تشـم مـؤخرتي، تـرقص حولي وهي تغني، نادتني باسـمي، أمـير أمـير، متى سـتموت لتعلـق معنـا في الـبراد، لم أعـد أشعر بـأطرافي، ازرق جسـدي، اسـتغرق الأمـر احدى عشرة ساعة، فتحوا البـاب في بريطانيـا،

سقطت بعـد خطـوتين أرضـا، أهـذي كمـريض تحت التخـدير، نُقلت باسـعاف، وحين أفقت بدأت الشرطة التحقيق.

تتساءل من أين لي بهـذا المبلـغ.. سـيربا، وحكايتي معها، كيف تخلصت منها، ستضحك لـو قلت لـك إني حشـرت اصـبع فلفـل أحمرهنـدي حـار في مهبلهـا ,لكي تكرهني,وتتركني أرحل عنها، أما كيـف وصـلت لفرنسا؟ ما حصـل هنـاك؟ كيـف حصـلت على مبلغ التهريب؟ ساكُتب لك في الإيميل القادم.

ملحوظة،

لم تكن حبيبـتي محض خيـال، كـانت موجودة بالفعل، كانت حفيـدة سـيربا، أحببتهـا من دون أن تعـرف اسـمي حين كـانت تـأتي لجدتها وأراها عن بعد، بصمت، بعض أكـاذيب العقل، حقيقة.

خداحافظ، داداش

أمير غزنوي.

هارو روود، لندن

ماه حمل -1398

نيسان 2019

جينوسايد الرفوضات لم يستثنِ أحدا، إلا المثليين والسوريين، طاعون، حلبة، إذا نجوت مرة سيسقطك في الجولتين الثانية والثالثة وحتى الثامنة. لم يمهلوا صالحا ليعيد التبصيم، صدر قرار بالترحيل، جاءت الشرطة للتنفيذ، لم يضأ نور الطابق بعد، قبل السادسة صباحا، الغرف غارقة في الشخير، والانتظار، ربما صباح آخر طازج بخبر مفرح اخضر، يكسر عتمة وسواد اللوحة، الكامب، فجرا، أصحو بعينيَّ ذئب، تلتمع بوهج انعكس من الهاتف في جوف العتمة، أشعر بخطوات غير مألوفة، بأحذية ثقيلة، تقترب الآن، تذرع طول الممشى، كان الكل نياما، مروان، يضاجع شرشفه، سعد جثة نائمة تشخر اثقل من إفرست، أشم رائحة مصيبة، أتوجس.

اقتحمت الشرطة المبنى، أربعة، اثنان في الأسفل عند المدخل، اثنان صعدا إلى طابقنا، سارا نحو غرفة صالح النجفي، عادة أبواب الغرف بلا قفل، دفعوا الباب، دهشا، لم ينفتح، ركلاه، محكم، صالح يضع سريرين متصلين من الداخل يغلق بهما الباب، كانت غرفته في الطابق الرابع، تطل نوافذها على فندق سكاندك، ينعكس ضياء نيون الاسم على

النافذة، في الأسفل ممشى معشوشب طيني، وبعض الأشجار، دفعوا الباب بقوة، هددهم بإلقاء نفسه من النافذة إذا فتحوا الباب، اقترح أحدهم أن يقتحموا من الشباك، نسمع همس أجهزة تواصل فيما بينهم، مدوا حبالا من اعلى، رفس أحدهم زجاج النافذة، كسره، دخل عليه، ضربه صالح بالمكواة على رأسه، رجال الشرطة كسروا الباب، هاجمهم بعمود حديد كان يشكِّل قدوم سرير، صعقوه، مرة وثلاثًا، سقط كخشبة، حملوه إلى الإسعاف.

أخبرنا أن صالحا تم ترحيله بعد نهارين من تلك الهجمة، من يعلم، ربما سيعود إلى أوروبا عبر البحر، سمعنا بعد أسابيع أن صالحا خطف من منزله، وجد براس مهشم وعيون مفقوءة، قرب حقل للأرز في المشخاب.انقطع خيط حكواتي بمقص الموت، تقترح ناديا خيطا آخر، من كرة الصوف الحكواتية.

اكتوبر 2019...

يدفعني الفراغ أحيانا لمطالعة الفيس بوك، مناسبات، أشير إلى خيار "مهتم"، أو" سأذهب"، بلا اهتمام، لست مهتما وليست لي رغبة في الذهاب. يتداول نشطاء الفيس دعوة لاحتجاجات في العراق، تجمّع ما في

ساحة التحرير، الحكومـة العراقيـة قلقـة، قطـع بجسر الجمهورية بأشباح سـود من قـوات فض الشغب، لا أحد في العراق يعوِّل كثـيرا على أي حــراك شــعبي، ســيكون "بــازارا سياســيا"، كالعــادة، يـدعي هـذا الطـرف قيادتــه أو ذاك الطـرف، سيصـير الـدم أرخص من المـاء، غـير مهتم للمتابعة أغادر هذه الأخبار,السـهر خارجـا, الويـك اينـد، ناديـا، البـار بأضـوائه المسـكرة، مشروب اليـالو الفنلنـدي، وإغفـاءة لذيـذة على كتف ناديا قرب تمثال ألكسـس كيفي قبـل أن تنطلق بالباص من السنتمتر 0 في هلسنكي.

أصحو ظهيرة يوم الإثنين، في الغرفــة 155، فمي مجفـف ومكـوي جيـدا، أشـعر بعطش، وكسـل، أرفـع متثـاقلا وجـه الهـاتف، تـزدحم شاشته باشعارات كلحى كثة غير مشذَّبة، أفلها واحـدة تلـو الأخـرى، بالكـاد افتح نصـف عين، صـداع يمسِّـد رأسـي ويضـغط صـدغي، أعـود لرسائل الماسـنجر، الواتسـاب، أغلبهـا وأغباهـا صورة وردة وصباح الخير، صباح ال..خ. .ره

هــذا إزعــاج، ســبام، وليس تحيــة، لفتت نظـري رسـالة على الواتســاب، مرسـلها غــير بروفايله إلى خلفية سوداء، وآية قرآنيـة: أنـا للـه وأنا إليه راجعون.

ما هذا الصباح الأسود، كارثـة مـا؟ لسـت بمزاج لتلقي كوارث، أنا الآن عطشــان، أهملت قراءتهـا، وذهبت إلى الحمـام، داسـا بـوزي في حنفية الماء، أرضـعها، أرتـوي، أعـود لسـريري، ماذا الآن، جائع، تفتح قاعـة أكـل الكـامب بعـد دقائق، أحمل هاتفي، وأهبط بالمصعد، الطرقة المؤدية اليه تمر بالاستعلامات وغرفة تمريض، أسلِّم على أحدهم moi moi

فضول يدفعني لقراءة نص الوتساب هذا:

"ســرمد البقيــة بحياتــك، أخــوك وارث استشــــــهد، راح من البصـــــرة لســـــاحة التحرير..وهناك انضرب بقنبلة دخانية اخـترقت جمجمته المسكين، من يومين، الأهل ما حبـوا يبلغوك بس أنا"..

أتوقف لأقـرأ، دخـان القنبلـة ملأ حنجـرتي ورئتي وعيني، اتقرفص عند بـاب القاعـة، يمـر شاب في عمر أخي: "سـرمد إيش بيـك تحتـاج مساعدة"؟. "لا لا شـكرا" أرد بصـعوبة. مصـنع سـكاكين بصـدري، ألم بـارد ومتصـاعد ببطء، جائع ورائحة الأكـل تسـيل سـطل لعـاب مـني، وأخي، وارث الشاب في المرحلـة الرابعـة كليـة هندسة نفط..

أعود بجوعي إلى الغرفة، أحتضن سريري، بصمت، أي رد الفعل على فجيعة، الحزن "أنا شابع حزن، من عمري سبع سنين وقلبي مكلوم".. طيب، عليّ أن أبكي، لا أقدر، وارث يستحق ذلك، لا أقدر، ليس بيدي، ضربت الهاتف بالأرض، هل هذا يكفي، لا أضرب رأسي بالحائط أدميه، وأسقط في الصمت.

لم أخرج بعدها من الغرفة ليومين، عدا للحمام، أشرب ماء بعطش صحراء وأبول كغيمة. تكتب لي ناديا: "سرمد هل تاتي؟ هناك فرقة موسيقية من الكابون ستعزف هذه الليلية". أرد: "اذهبي وحدك". زارني فيصل، أخبرته، أخبر بعض الأصدقاء، عزّوني، بالكاد أراهم أو أسمعهم، كلمة واحدة تلتصق بلهاتي، وبرأسي، تتقافز في كل زوايا الغرفة وعلى النافذة: "ليش"؟

أسبوع، لا تدخين ولا أخطو خارج مبنى الكامب، يجلب لي فيصل وجبة من قاعة الأكل، أخبرهم فسمحوا له. ناديا في الاستعلامات، جاءت متسائلة لا تعلم، أخبرها أحدهم، ابدت لي حزنها، مبالغة في حضني.. أشكرها وأعود إلى صدفتي الغرفة.[155]

زارني وارث، بالحلم، كان يـدخن، أزعجـني هذا، لا يجرؤ بالعادة أن يفعلهـا أمـامي، أسـقط سيجارته، يضـحك يتحـدث عن صـيد السـمك بشـــط العـــرب، ســـعل قليلا ونفث دخانـــا، تعجبت، " لك ايش بيك، يخرج دخانًا من أذنيه وعينيه، ياالله هـذا تخبـل، إيش جـاي تسـوي"، أركض للحمـام أبلـل منشـفته وأعـود لأطفئـه، تمتلئ الغرفة دخانا، ضبابا محروقا، لا أتبين أين هـو الآن، أصـيح بـه "وارث وارث". يطحر ويئن كثور نصف مذبوح، تكرر هذا الحلم لأربع مرات، سأجن!.

زارني عدنان في غرفـتي، ينـاديني خـالي، شـــاب في التاســـعة عشـــرة، امتهن الســـرقة وتوزيع الميرهوانـا في هلسـنكي منـذ طـرد من الكامب، صار مشِّردا، تلقفته هلسـنكي الليليـة السـرية، بشـوارعها الخلفيـة، ومجتمعهـا الآخـر تحت الأرضي. قبل أن يحضـنني ويغـادر، دس بكفي كيسا بحجم أكيـاس الشـاي "هـذا واجب التعزية، خالي، غرامين حشيشة أسبانية، أرتــاح شويه الليلة" همس بـاذني: "اللّٰه يـرحم أخـوك برحمته". اخذته كفضول، أرد: "عدنان.. صـارت الحشيشـــة واجب تعزيـــة؟ من يمتـــه، وتــالي؟! عدنان، خايف عليك، تغط بهذه الموجة الخطرة

وبعد مـا تنبـط. مـا يرحمـوك إذا وقعت، لأنـك مامو، مامو عراقي، هذا مـو ملعبـك، هـذه مـو أرضـك، أحـذرك من نفسـك، عـدنان، اعقـل، ابتعد عن الممنـوع". يصـغي، يـرد: "خـالو، تـو ليت، اتاخرت".

الواقـع مجموعـة هلاوس دماغيـة متفـق عليها بشكل جماعي، كما قال خبـير الأعصـاب أنيـل سـيث، أوافقـه وأضـيف: أحيانـا لانتفـق عليها، فتكون فعلا محض هلاوس.

ناديا ما زالت تشتغل على ترجمة المشروع إلى الفنلندية، صـندوق الـذاكرة الـورقي، بينمـا أقبــع في الظـــل، أحتضـــن اللابتـــوب، واقيء غثيانـــات ومعانـــاة المهـــاجرين، في الكـــامب وخارجه، اشـتباك مـا نـاعم بين الأصـليين وال مامو، يراد له أن يتمـدد ويتهيكـل، هـذا خطـر، هناك الآلاف من المامو، ستكون "بوخن فالـد" أخـــرى إذا ســـار قطـــار العنصـــرة على هـــذه القضبان، ستكون هزيمـة للإنسـان، لا رابح من رفض الآخـر، الكـل سيخسـر، سيسـير التـاريخ للخلف، نعود إلى الغابة.

مـــا زالت حقيبـــة لطيـــف ملقـــاة تحت سريري، اليوم الذكرى الثالثـة لرحيلـه، لم أكتب

مسـرده، سـأحاول أن أتخيلـه، من أوراقـه، في الحقيبة المتخشبة تحت سريري العائدة إليه.

حلمت بلطيـف، صـامتا، يرتـدي جلبابـا أبيض، لم أرَ وجهـه، كـان بـداخل هالـة، أسـأله: "لطيف أنت صرت قديسًا، لو نـبي، شـنو هـل الأفلام؟ لك مشتاقلك تعال أحضنك". سـلمني قصاصة ورق، كـانت خضـراء، قـرأت مـا كتب عليها، كان بخط يده، أعرفه من قبل.

" أنتظر تيو وروها عند منتصف الليل"

أفيق، ألهث، أوكسجين، أوكسجين، مـاء، اختنقت، الهث، لا أحـد معي بالغرفـة، أسـرع للنافـذة، أفتحهـا، أخـرج رأسـي، تنث سـماء سـوداء بحمـرة ثلج كحبيبـات الفلين، يتكـدس فـوق شـعري الأكـرت، أمـد يـدي لألتقـط منـه وأكل، تبتل به شفتي، أمسحها، أغلق نافـذتي، وأعـود لسـريري، التفت إلى الحائـط بجـواري، قصاصة خضراء، ملتصقة هناك، كتب عليها

" تيو وروها، منتصف الليل"

في الصـباح، والأرضـية رطبـة أمـام غـرف الكـامب، كـان الأسـتونيون العمـال يرشـون مطهرا للتنظيـف، حـذرني أحـدهم varo حـتى لا انزلق، أسرِّع خطواتي للاستعلامات.

- تفضل...

- أريد مقابلة الباحثة الاجتماعيــة المســئولة عن ملفي.
- حسنا إملأ طلباً، وسنرد عليك.
اصيح بهم بغضب استدعى الحراس.
- يـــاطلب يـــا........، الآن يعـــني الآن، أحـــرن كفرس.
في غرفة الباحثة الاجتماعيــة، قلت كـل شــيء مرة واحدة:
- أريد العودة إلى بلدي.
تتساءل:
- وماذا عن قضيتك، والخطر الذي ادعيت على حياتك؟
أرد بحزم:
- أنا لم أدع أن هنـاك خطـرا على حيـاتي، وهـذا شـأني. هـل أنت أعلم بي مـني؟ أربـع سـنوات وأنتم تدرسون القضية، انتظـار كـوني، صـرفت مبـــالغ كثـــيرة على أكـــل وشـــرب ومـــوظفين ومترجمين وسكن ولم تصلوا لقـرار، أو وصـلتم واستدرتم إلى الوراء بـدوافع معروفـة للجميـع.. سياســية. فليكن مــا يكــون هــذا ليس بلــدي، أعيدوني إلي بلدي الآن.
ردت بعـد أن تفحصـت شاشـة اللابتـوب أمامها:

- هل لديك اخ مـات حـديثا؟ ربمـا كـان قـرارك انفعاليًا سأعطيك مهلة لتقرر، ثم..

أقاطعها:

- أرجـوك، لا تقـرري بـدلا عـني. لطالمـا فعلتم هذا، لأربع سنوات قررتم ما نأكـل كـل يـوم، مـا نشـرب، مـتى ننـام ومـتى نـذهب للحمـام، كدواجن.

- حسـنا، إذهب لمركـز شـرطة باسـيلا، أبلغهم رغبتك في العودة، ستُمنح مبلغـا ماليـا قـدره.. ال..

-ـ ليس ضروريا.

طلبت مني ناديا بالحـاح زيارتهـا، أخبرتهـا أنني أقدم أوراق العودة لأقطع جدلا قد يحـدث، محاولة ستولد ميتـة لإبقـائي. وصـلت مسـاء، كـانت ثمـة موسـيقى كلاسـيكية تنبعث في الشقة من مشغِّل صوتي ما. في الخارج طقس غائم جزئي يميل إلى العتمة منذ العصر. بـدأت تمطر بينمـا ناديـا تحضـر عشـاء نباتيـا، بطاطـا حلـوة بـالفرن وسـلطة، ثمـة نبيـذ أبيض و مكسرات فوق المائدة.

ـــــ اذن قررت. مـاذا عن مشـروعك، صـندوق الذاكرة الورقي؟ مـاذا عن منحتـك؟ هـل تكمـل عملك من بغداد أو البصرة؟

تتساءل ناديا، أرد بتصميم:
- سـأفعل، أعـدك، حين تهـدأ الأوضـاع، وتنجح هذه الصحوة الشعبية في ساحة التحرير.
- هل تتوقع أن تنجح؟
- لا أتوقع أن تفشل على الأقل وهذا الأهم.
جلست قربي، على الأريكة، سألت، تشرب؟
أجبت: "نعم، شـكرا". تنظـر إليَّ، تشـرب شكلي، صـارت كلا عينـا زرقـاء، أربكـني ذلـك، أسألها: "ستشتاقين إلَّي؟".
مـالت نحـوي، وضـعت رأسـها ذا الشـعر الكروي الناعم على كتفي، عضت شحمة أذني، تنهـدت كربيـع يوشـك أن ينطفئ. أجـابت: "وأنت؟".
قبَّلتها، وأنا أحضنها: "اكيد، منـذ الآن". أرد بحشـرجة. تعـرقت، كلي يطلبهـا الآن، رفعت رأسها، قبَّلتني، عضت شفتي، سـألت: "كيـف أجـدت هـذه اللعبـة؟ سـنتان ولم تلمسـني ولم ألمسك، حـتى حين تشـاركنا النـوم مـرارا، هـل أنت طبيعي، ملاك، ام ماذا؟".
- ناديا، منذ أول ليلة أخبرتك، ليس بإمكاني أن أصـنع حبـا، قلت سـاعتها، هـذا جنس لأجـل الجنس، لا عاقل يفعل شيئا للاشيء، إذا أنعدم الـدافع صـار الأمـر هـراء محضـا، عبثـا لأجـل

العبث، ستكون صداقتنا أقـوى من عقـد زواج، أما الجنس.. قـد نفعلـه الآن أو بعـد مئـة عـام، كحادث عرضـي، لن أسـحلك ورائي بفلسـفتي هـذه، لكنـني أحبـك.. وهـذا أهم، ترجعـه كـرة الشعر، رأسها، على كتفي، نذوب بحضن، دافئ مسكر، تتمتم بمسحوق الصوت:

- وأنا أيضا، أحببتك، بطريقتك.

أعـود مسـاء للكـامب، أنـام بلا رغبـة في النوم، أتصفح الفيس بوك، صـرت أتـابع أغلب ما يحصل في بغداد والمدن الأخـرى من عنـف حكومي ضد المحتجين، شاهدت كيف تصوب قوات ملثمة قنابل دخان أفقيا، تخترق جمجمة إنسان، يسقط أرضا، يهمد، رأسه مدخنة قطار، تتسع بقعة دم على الأسفلت، يحملـه أحـدهم، يرمى برصاصة من قناص، يسقط جنبـه، يـاتي آخر، واخر يتكاثر حوله أصحاب التك تك، صفير يتعالى، وصراخ وصوت إطلاقات، وبكاء، مات، مات الرجل، يتكـرر هـذا المشـهد، بالمصـادفة شاهدت.. هذا، وارث، عرفتـه، هـذا أخي، أميِّزه من بين ألـف شـخص، رأسـه مفتـوح يتصـاعد منه الدخان كموقد، رايت دماغـه مخفوقـا كمـا في خلاط، يسـيل بين الأقـدام، حملـوه، هـذا وارث هـذا أنـا، هـذه دمـاغي، تغـرورق عينـاي،

يثقـــل فكي، يصــبح بـــوزن ســـفينة، تتشـــنج عضـــلات الوجـــه، ألقي بنفســـي على الأرض، كذبيحة حية، أرى نفسي هناك، أنا هو، هـو أنـا، لا فروقــات تــوقيت، لا مســافات، أتكــور على نفسي كجـنين، جالسـا على أرض بـاردة، قـرب ساق السرير، انشج بهدوء برأس مصدَّع وعيون متورمة الأجفان محمَّرة كحبتي توت بري، بينما العاصفة بالخـارج تسـتعرض عضـلاتها، كـانت قـــادرة على أن تقلب قطـــارا، لكنهـــا اكتفت بصفعات على النافذة بالوفر المتساقط، أبحث عن منديل، في جيب البنطال لأوقف سيلا من المخاط والبكاء، أجد كيس الحشيشـة الصـغير، غرامين، كعيون ثعابين، أبتلعـه بأكملـه، مغص خفيف، دوار، هليوم يملأ جثتي فتطـير كبالونـة ملتصـقة في سـقف الغرفـة، دقـائق وأهبـط بسقطة موجعة على وجهي إلى الأرضية.عينـاي شبكتا عنكبوت حمراوان، افتحهمـا بالكـاد، أرى حوافر أربعة، تلحقها أربعة أخرى فتصير ثمانية، صهيل خيول، وجها مستطيلا لفـرس بالغـالب يحتك بخاصرتي، يدفعني لأجلس، أرفع رأسي، أرى حصانين هائلين بجلد لماع كقطيفة تتمـوج تحت الضوء.

"تيو، اسمي تيو، كان علينا أن نلتقي منذ سنة". اقترب مني أحدهما، جس بشعيرات بوزه وجهي، اردف: "أنت أكبر من لطيف وأصغر من هانو، بالمناسبة، هذه روها، حيّها". تحمحم. يكمل: "إنها جائعة، الفرس الأم دائما جائعة، هل لديك عليقة برسيم بالملح؟".

بالكاد ألتقط انفاسي، استعدلت في جلستي، القرفصاء، أتنفس ببطء، وخوف، أتحسس بيدي بحثا عن نظارتي، ذابت في الظلام. اتجهت روها نحو النافذة، فتحتها بفمها، شعرا بضيق المكان، كانا شبه ملتصقين من الجانب، جاءتني فكرة، أن أسجل صوتيهما، قد يكونان هما الحقيقة ونحن هلاوس، خيال متقن لا غير، تحدث تيو، بعد أن هز رأسه، التمعت عيناه، كانتا كحجر عقيق غامق يتلظى، كانتا أكبر من عين الإنسان بتسع مرات: "هل تعرف، ربما أخبرك لطيف هذا، ربما نسي قبل أن يحلِّق معنا، كنت ساعتها في سومو سالمي، أسحب عربة نقل القتلى والجرحى كنت جريحا أيضا، بشظية في خاصرتي، أقسى شتاء واجهته، شاهدت الجرحى، ما أن ينزف يتجمد على ما كان عليه في الحال، هبت عاصفة شتتت الرؤية، باغتنا

السوفييت من الخلف، انهار خط دفاع منرهايم أو كاد، موت بني اللـون، لـو نجحـوا كنـا ذبحنـا سـاعتها جميعـا أو أعـدمنا كأسـرى في اليـوم التالي".

صهلت روها، حك تيو جبينـه في جبهتهـا: "اهـدئي ايتهـا الفـرس الأم، اهـدئي". أكمـل بصوت اذاعي متقن: "الجوع والبرد كانا عـدوين وصديقين، كان الجنـد السـوفييت جياعـا، كـل غزاة الأرض جياع، اعتادوا أكل الخبز الأسمر مع الشاي، تصـور كيـف تقاتـل ومعـدتك كجـراب بارد. في وسط رائحـة الـدم تنبعث روائح طيبـة وشهية من مطابخنا الميدانية، حساء السـجق، سـاخن أعـده الطبـاخون للتـو يكفي لألفين ويزيـد". حمحم تيـو منتشـيا: "حـتى لـوكنت مقاتلا محترفا، فستبقى بالفطرة إنسـانا، تجـوع وتتـذوق. هـرع الجنـود السـوفييت إلى الأكـل، حتى الضـباط " توضـح روهـا. "حـرب السـجق أليس كذلك؟". يهز تيو رأسه بالإيجاب، يكمـل: "اختـبئ وراء دبابـة معطوبـة، أشـاهد، موتـا ممزوجا بطعام، قدور حساء ودماء وجليد، قاتـل فيها الفنلنديون حتى بسكاكين البوكو، رصـاص بجهـات اربـع، ودخـان وأنين وأشـلاء تعجن

بالسجق، لا رابح من هذا إلا ملاك الموت، روها هل كنت معنا تلك الليلة؟".

دارت عينه وأذنه معا بايعاز واحد: "روهــا، روها، أعلم حزنـك، فليشـفع لي القـديس تيفن هذا". "كنت ألد المهر فويمـا سـاعتها، صـغير، اصطدم بدبابة، داست ساقيه". يتهـدج صـوت روها وتنشـج: "أكلـوا جثتـه.. حين يجـوع الجنـد يصــيرون ســنوريات بريــة شــرهة، شرســة، واقسى".

بدهشة طفولية أصغي لهما، أمســح عرقـا باردا. يلوح الفجر بين ثنايـا الغيم، تبـدو كـدنتيلا بحـواف مقرنصـة مضـيئة: "هـل تـأتي معنـا" يسالني تيو: "إلى أين؟". اتراجع للخلف جلوسا: "هناك، كل الأصحاب هناك، في حقل مفتــوح بلا أطراف، بلا بوصلة، أو جغرافيا، تعال، تعـال، تعال، هناك...".

ينخفض الصـوت رويـدا، يصـبح همسـا، تحتك بي روهـا، تحـاول أن تجعلـني أمتطيهـا، أفعــل، يقــول لي تيــو:"لا تتمســك بلجــام، لا جاذبية هناك، لن تسقط، ستحلِّق روحك لأعلى مروحة سقف الجنة، ثق بحـديث الخيـل. لتكن حصانا، حصانا عربيـا في الإسـطبل الكـوني، لا تقلــق، ســترى بــدون نظارتــك هنــاك، اركب

سـرمد، لطيـف ينتظـرك، هـانو، القديسـون والشـهداء، أخـوك وارث سـيكون هنـاك، لا تتردد".

أتمتم: "وارث، وارث، جـاي إلـك، وينـك، أخوي؟"..

قفـز تيـو من النافـذة، قفـزتُ على ظهـر روها، كانت على وشك القفز من النافذة، لكن..

فيصل فتح الباب، دخل النور من الخـارج، سقطت على الأرض، تلاشى الحصانان.

"روها، روها".

أردد: "تيو، روها".

حملني فيصل جسدا فارغا، وضـعني على سـريري. نشّـف عـرق وجهي، دثـرني بلحـافي، صار يتمتم أدعية في أذني، لم افهمهـا:كـانت ، كأدان بمقام حجاز".

هدأت، نمت.

في صباح اليوم التـالي، شـاهدت النافـذة مشرعة، تذكرت، أسرعت إلى الهاتف، أتفحص سـجل تسـجيلات الصـوت، لا يوجـد تسـجيل أصـلا. حضـر إليَّ فيصـل، طمأنتـه أنـني بخـير. سـاعدني في توضـيب حقـائبي، أتفحص صـندوقي البريـدي، ربمـا تصـل اليـوم أو غـدا تـذكرة الطـيران وأوراق السـفر الأخـرى، الجـواز

الــورقي المــؤقت، خــرجت لجــامبو المــول، تجــولت قليلا، جلتُ بنظــري، صــار المــول بالنســبة لي متحفــا، هنــا وقــف لطيــف، هنــا تشاجر مروان، سعد جلس هنا، وصــالح. أتــذكر كيــف ضــغط بمشاكســة زرا أحمــر أوقــف فيــه السلم الكهربائي, اخرج قضيبه من مخبأة وبــال على طول السلم، شتمنا الآخــرون بلغــاتهم غــير المفهومة لنا، قلنا same to you, أتذكر كيف تمازحنا وجعنا وشبعنا وقلقنا وخفنا وبكينــا!كــل هذا نبت في رأسي كــدغل من الــذاكرة المــرة, لن يقلع و لا بألف جراف.

عدت بكيس شيبسى وعلبة بيرة للكامب، عبرت الاستعلامات، يبدو ثمة مظروف محشور بصندوقي البريدي، لاحظت طرفــه، أيــاً كــان لا يعــــني لي شــــيئا الآن. بفضــــول، فتحت الصندوق، هززت الظرف، كان بحجم ورقة A4، ثمة شيء يتنقل داخله، كجنين نشــط في رحم. أفتح، مفاجــأة، بطاقــةورديــة، إقامــة لأربــع ســنوات.. همم، الآن؟ كم أربــع ســنوات أخــرى سأستهلك؟

تركت باب الصندوق مواربا، واعدت الرف، ثم اودعته بطاقة الإقامة لأمضي إلى متاهات الفراغ..

أنهم مع نفسي بكلمات **سهراب سبهري.**

يوم كانت المعرفة تعيش على حافة الماء،
كان الإنسان يرعى في كسل لطيف،
فرِحا بالفلسفات اللازوردية،
يفكر في الطيور،
ويضرب نبض الشجرة،
وتهزمه شروط الشقاء،
وفي عمـق كلامـه يتخبـط مفهـوم الكلمـة الفظَّة،
ينام الإنسان في محتوى العناصر،
ويصحو عند طلوع الخوف،
ولكن أحيانا يدوي صوت النمو الغـريب في مفصل اللذة الهشة".

يـــــــــــــــتبع...